الإسلام والمسلمون

في إفريقيا

دكتور

عبد الرحمن زكي

القاهرة

١٣٨٩ هـ — ١٩٧٠ م

اهداءات ٢٠٠١
ا.د. محمـــــد ديـــــاب
جراح بالمستشفى الملكي المصري

الإسلام والمسلمون
في إفريقيا

دكتور
عبد الرحمن زكي

القاهرة
١٣٨٩هـ - ١٩٧٠م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الدائرة الإفريقية هى إحدى الدوائر الثلاث التى حددها الرئيس جمال عبد الناصر لينطلق فى رحابها نشاط الجمهورية العربية المتحدة فى محيط سياستها الدولية ، فقد قال سيادته عنها فى (فلسفة الثورة) :

ـ فإذا اتجهت بعد ذلك إلى الدائرة الثانية ، وهى دائرة القارة الإفريقية قلت دون استفاضة ودون إسهاب : إننا لا نستطيع بحال من الأحوال ـ حتى لو أردنا أن نقف بمعزل عن الصراع الدامى المخيف الذى يدور اليوم فى أعماق إفريقيا بين خمسة ملايين من البيض ومائتى مليون من الإفريقيين .

ـ لا نستطيع لسبب هام وبديهى هو أننا فى إفريقيا .

ـ ولسوف تظل شعوب القارة تتطلع إلينا ، نحن الذين نحرس الباب الشمالى للقارة والذين نعتبر صلتها بالعالم الخارجى كله .

ـ ولن نستطيع بحال من الأحوال أن نتخلى عن مسئوليتنا فى المعاونة بكل ما نستطيع على نشر النور والحضارة حتى أعماق الغابة العذراء .

ـ ويبقى بعد ذلك سبب هام ، هو أن النيل شريان الحياة لوطننا يستمد ماءه من قلب القارة .

ويبقى أيضاً أن السودان ـ الشقيق الحبيب ـ تمتد حدوده إلى أعماق إفريقيا ويرتبط بصلات الجوار مع المناطق الحساسة فى وسطها .

ـ والمؤكد أن إفريقيا الآن مسرح لفوران عجيب مثير ، وأن الرجل الأبيض الذى يمثل عدة دول أوروبية يحاول الآن إعادة تقسيم خريطتها ولن نستطيع بحال من الأحوال أن نقف أمام الذى يجرى فى إفريقيا ونتصور أنه لا يهمنا ولا يعنينا .

ـ ولسوف أظل أحلم باليوم الذى أجد فيه القاهرة معهداً ضخماً لإفريقيا يسعى لكشف نواحى القارة أمام عيوننا ويخلق فى عقولنا وعياً إفريقياً مستنيراً ويشارك مع كل العاملين من كل أنحاء الأرض على تقدم شعوب الأرض ورفاهيتها .

وهذه المحاضرات التى ألقاها الأستاذ عبد الرحمن زكى ، على طلبة السنة الثانية بالمعهد توضح كيف كانت الأمة العربية طوال العصور توالى إمداد شعوب القارة بالهداية الإسلامية وتضفى عليها بقدر استطاعتها معالم الحضارة الإسلامية .

ثم طغى الاستعمار على القارة فعرقل امتداد هذه الهداية ، وأغلق منافذ انتقالها وأشاع الظلام فى أرجاء القارة .

ولم يقف عند هذا الحد ، بل مضى يسلب خيرات القارة ، ويستعبد شعوبها ، ويحرمها كل مقومات الحياة الحرة الكريمة .

وإذا كانت مصر الآن ـ منذ مشرق الثورة ـ تبذل كل تضحية ، وتجود بكل جهد مادي ومعنوى ، فى سبيل تحرير أقطار القارة من الاستعمار ،

وتثبيت استقلال ما تحرر منها ، فإنها إنما تفعل ذلك مسترشـــدة بهدى الإسلام فى تحقيق الإخاء الإنسانى على أساس المساواة ، وتنفيذ تعاليمه فى المعاونة على رفع نير العبودية عن إخواننا فى الإنسانية وفى الجوار .

وهم بعد ذلك أحرار فى اعتناق أى دين . فشعار الإسلام : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » .

وبعد ، فيسعدنى أن أقدم هـذا الـكتاب الذى يساهم مساهمة إيجابية فى نشر الوعى العام بإحدى الدوائر الثلاث فى سياستنا القومية ؟

عميد المعهد

الدكتور

محمد عبد الله العربى

القسم الأول

الإسلام في غرب أفريقيا
في العصور الوسطى

بسم الله الرحمن الرحيم

الإسلام فى غرب أفريقيا
فى العصور الوسطى

دخل الإسلام القارة الإفريقية عبر سيناء بصحبة الجيش العربى الذى فتح مصر بقيادة عمرو بن العاص عام ٢٠ هـ / ٦٤٠ م . وبعد أن تم الاستيلاء على الإسكندرية وهزيمة القوات الرومانية فى عدة معارك أصبحت مصر القاعدة العسكرية التى انطلقت منها الفتوح إلى برقة وليبيا وتونس وبلاد المغرب . ولقد قاوم البربر . وهم غالبية سكان شمال إفريقيا العرب الفاتحين مدة طويلة . واشتبك الجانبان فى معارك كثيرة كان من أهمها سبيطلة (٦٥٠ م) ، ثم توغل عقبة بن نافع على رأس جيوشه . وفيما بين (٧٠ هـ — ٧٠٨ م) انتهت مقاومة البربر أمام الجيش العربى بقيادة الحسن بن النعمان . وألحق المغرب سياسياً بدولة الخلفاء الشرقية (الأمويين والعباسيين) ، وتولى موسى بن نصير زمام المغرب . وفى عام ٧١١ حشد جيش عربى بربرى ، بقيادة طارق بن زياد ، واجتاز المضيق وتوغل فى الأندلس ، وفى سنوات قلائل ضمت إسبانيا إلى الدولة العربية الكبرى . .

ومنذ ذلك الحين أصبح المغرب ـ القاعدة الأمامية لنشر العربية والإسلام فى غربى أفريقيا وفى الأجزاء الجنوبية من الصحارى الكبرى .

وكان نفوذ البربر ليس مقصوراً على الأقاليم التى تمتد على ساحل البحر المتوسط ، فالمعروف أن أول من ملك منهم الصحراء زعيم اسمه بتلوثان

(توفى عام ۲۲۲ ه / ۸۳٦ م) ، ومالك بعد بلثان (ت ۲۸۷ ه / ۹۰۰ م) . ثم ابنه تميم إلى عام ۳۰۷ ه / ۹۱۸ م . ثم افترق أمرهم ۱۲۰ عاماً إلى أن قام فيهم أبو عبد الله وحج ثم توفى بعد ثلاثة أعوام من رياسته . وقام بأمرهم من بعده صهره يحيى بن إبراهيم .

كان لهؤلاء البربر ، وبخاصة تجارهم ، الفضل فى الدعوة للإسلام بين القبائل الزنجية التى تقطن الصحراء ، كما يرجع الفضل أيضاً الى مراكز تجارتهم الموجودة فى السهول التى تلى تخوم الصحراء .

وأول ما يقابلنا من القبائل البربرية التى عملت فى سبيل نشر الدعوة : صنهاجة ، وقد سكن أفرادها ديار الصحراء الممتدة بين موريتانيا (شنقيط) الى جبال حجار ، وإلى الجنوب إلى حدود السودان الغربى .

اتحدت فى القرن التاسع صنهاجة مع قبائل لمتونة ومسوفة وجدالة ، وكان هدف هذا الاتحاد العمل على تنظيم تجارة القوافل عبر الصحراء ، فيما بين أقصى الشمال حيث تنزل قبيلة ولاتة ، وأقصى الجنوب حيث كانت تقع مملكة غانة . ولم يكتب لهذا الاتحاد العمر الطويل ؛ فوهن أثره وتمزقت كلمة القبائل ، وانتهزت غانة تلك الفرصة فازدهرت وتسلطت على بعض أجزاء الصحراء التى يؤمها تجار القوافل من البربر والعرب .

ولما اعتنقت قبيلة صنهاجة الإسلام فى القرن العاشر ، تسرب الدين الحنيف عبر الصحراء ، وبدأت المراكز التجارية فى الصحراء ، ومنها أودغشت وهى المركز الأمامى لتجارة غانة على حافتها الشمالية ، تتسم بالطابع الإسلامى .

وفى حوالى عام ۱۰۲۰ واجه زعماء لمتونة وجدالة ومسوفة ، وهن من صنهاجه ، قوة غانة النامية . ولذلك عادوا ثانية إلى توحيد كلمة القبائل أمام الخطر المحدق . وكان تارسينا ، وهو زعيم لمتونة ، أول زعيم صنهاجى مسلم

أدى فريضة الحج ، وفى مكة امتلأت رأسه بفكرة الجهاد ضد الزنوج الوثنيين ودعـــوتهم للإسلام ، وقد استشهد وهو يقاتلهم (١٠٢٣) . ويمكن القول بأنه كان الرجل الأول الذى غرس بذرة الكفاح الإسلامى فى غرب السودان ، وتبعه الرجل الثانى ، وهو يحيى بن إبراهيم زوج ابنته ، ليكمل رسالته ، وكان يحيى شيخ قبيلة جدالة .

شاء القدر أن يظهر هذا الرجل فى جدالة ، فهو رجل استنارت بصيرته وتيقظ وعيه ، وضاق ذرعاً بما تعثر فيه قومه من الجهالة وسوء الفهم لمبادىء الإسلام . فلقد أراد أن يستنير ويستزيد من تحصيل العلم ، فعهد بأمور القبيلة إلى ابنه ، وأخذ يتجول فى بلاد المغرب طلباً للمعرفة . فوقف على مبادىء الإسلام القويمة ، وعقد العزم على أن يذيعها بين الملثمين . فأدى فريضة الحج مع الصنهاجيين عام ١٠٣٥ ، وبعد عودته أدرك يحيى ابن إبراهيم أنه لا يستطيع أن يباشر هذا العمل بمفرده ، لأن شئون قبيلته تستأثر بجانب كبير من وقته ، ولذلك استقر رأيه على أن يدعو أحد العلماء لتعليم قومه مبادىء الإسلام وتثقيفهم دينياً ، ويخلصهم من الاعتقادات الخاطئة ، ولذلك ذهب إلى القيروان ، وهى المركز الإسلامى العام ، حيث قابل أحد علمائها المتضلعين فى فروع الثقافة الإسلامية ، وهو أبو عمران موسى بن عيسى بن أبى الحجاج شيخ فقهاء المالكية ، وبعد أن تلقى عنه ما أراد ذكر لأستاذه أنه يريد أن يذيع بين قومه تقاليد القيروان الدينية ، وطلب منه أن يرشح له أحد الفقهاء المالكيين ليصحبه إلى قومه فى الصحراء ، ورأى أبو عمران أن يحيله على تلميذه فقيه السوس ، وجاج بن زللوى اللمتونى . لاعتقاده أنه يصلح للقيام بهذا الواجب ، وذلك لمعرفته بعادات الملثمين وأساليب حياتهم واختار له وجاج تلميذه الصنهاجى عبدالله

ابن يس العـالم المجرب القوى الإيمـان ، فأقبل على واجبه الذى اختير له وجعله هدف رسالته . وقد استطاع بفضل خبرته ومعرفته بلهجات البربر وإخلاصه لدعوته وتفانيه . أن يكسب الأنصار ويضم تحت لوائه جموعاً حاشدة تدين له بالطاعة والولاء .

بدأ عبد الله بن يس يبث تعاليمه فى بادىء الأمر بين اللمتونيين ، ولمـا رأى بعض زعمائهم يضعون العراقيل فى طريقه تركهم وذهب مع يحيى بن إبراهيم إلى قبيلته جدالة ، حيث عظم تأثيره وذاعت دعوته ، ودانت له فى النهاية لمتونة ومسوفة . ولما توفى يحيى بن إبراهيم الجدالى (٤٤٠ هـ ١٠٤٨ م) وقع اختيار الزعيم الدينى على يحيى بن عمر اللمتونى ليخلفه ويتولى شئون الحرب والجهاد .

ولمـا كان عبد الله بن يس يعلم أن رجاله سوف يخوضون غمار معارك شتى لنشر دعوتهم ، شيد رباطاً يأوى إليه أصحابه ليتفرغوا للعبادة والجهاد ورأى عبد الله أن يستفيد من فكرة إنشاء الرباط لتخريج جماعة مدربة على الحرب ، متأهبة للتضحية للدفاع عن العقيدة وصد غارات الأعداء . ولمـا استوثق من ثبات مركزه وتوحيد صفوف قبائل الملثمين ، بدأ غزواته لإخضاع قبائل المغرب وأماراته .

المرابطـون (١٠٥٦ — ١١٤٧)

وفى حوالى ١٠٥٤ م كان رجال الرباط (عرفوا فيما بعد بالمرابطين) قد استولوا على أهم مركزين تجـاريين غربى الصحراء الكبرى ، هما : سجلماسة فى الشمال ، وأودغشت فى الجنوب ، وهى المركز الأمامى لغانة .

ثم فتح درعه وأغمات . وتوفى فى أثناء تلك المعارك يحي بن عمر اللمتونى (١٠٥٦) فى معركة بتغريلة ، فعين مكانه أخوه أبو بكر بن عمر .

وسرعان ما اختار أبو بكر ابن عمه يوسف بن تاشفين قائداً لمقدمة جيشه وكان ذلك على أثر ما أظهره يوسف من ضروب الشجاعة وإحكام التدبير فى المعارك القبلية . واتفق بعد ذلك أن قتل عبد الله بن يس فى أثناء مقاتلة برغواطة (١٠٥٩) ، فخلفه أبو بكر بن عمر وتابع حروبه . ومنذ ذلك الحين عرف التاريخ اسم يوسف بن تاشفين (١٠٦١ — ١١٠٦) مؤسساً لدولة المرابطين .

ورأى أبو بكر بن عمر أن يختار موقعاً مناسباً يشيد فيه عاصمة جديدة للملك ، وأعجبه موقع فى بسيط حافل بالزرع والماء ، فأقام فيه القصور والدور ، وأطلق على المدينة الجديدة اسم « مراكش » . وكان تأسيسها فى أوائل عام ٤٥٤ هـ (١٠٦٢ م) ثم جاءت الأنباء من الجنوب عن نشوب حرب بين قبيلتى لمتونة وجدالة ، وكان هذا الصراع ينطوى على تهديد خطير لحركة المرابطين فى الوقت الذى كانوا يتحفزون فيه لمنازلة أعدائهم ومد نفوذهم فى الشمال حتى يبلغ شواطىء البحر المتوسط ، فلم يجد الأمير أبو بكر بداً من المسارعة إلى العودة إلى الجنوب ، لتأمين مؤخرته ، وللإبقاء على التضامن بين القبيلتين . ولما أراد أن يستخلف أحد رجاله قبل ارتحاله لم يجد خيراً من ابن عمه يوسف ، فعقد له على المغرب ، وفوض إليه الأمر ، وأمره بالمضى فى محاربة قبائل البربر من زناتة ومغرادة وبنى يفرم خصوم صنهاجة .

كان اختيار يوسف للقيام بهذه المهمة اختياراً موفقاً ، فقد كان الموقف عصيباً ، وقد أحدقت الأخطار بالدولة الناشئة ، وبينما كان الملثمون

يقاتلون فى الجنوب ويحاولون جمع شملهم ، كانت قبيلة زناتة وأحلافها يستنهضون الهمم ويؤلبون الناس للوقوف فى وجه الملثمين . وكان الموقف يستلزم الحزم وحشد القوى لخوض غمار المعارك الحامية القادمة . ولا غرو أن يصبح يوسف سيد الموقف ، وأن يقود رجاله إلى النصر ، فقد نجح فى جميع غزواته ، وفتح مدينة فاس ، وأخضع المغرب الأقصى .

وفى تلك الأثناء أخضع الأمير أبو بكر العصاة فى الجنوب ، وأعاد الوفاق بين القبيلتين . وصارع ملوك الزنوج ثم عاد إلى المغرب الأقصى فى عام ٤٦٥ هـ (١٠٧٢ م) ، ولما رأى حسن بلاء يوسف وتقدير المرابطين له ، أحضر شيوخ لمتونة وكبار رجال الدولة ، واستدعى الشهود والكتاب والخاصة والعامة ، وأقر بالتخلى ليوسف عن الأمر فى المغرب . وقد ظلت له السيادة الاسمية حتى أدركته الوفاة سنة ٤٨٠هـ (١٠٨٧م) بعد أن تم له غزو غانة (١٠٧٦) والانتصار عليها .

ثم أخذ يوسف فى تنظيم جيشه وأدخل فيه فرقاً من زناتة والقبائل الأخرى ، وزاد عدده ، وأقام سلسلة من الحصون امتدت من مراكش فى الجنوب إلى فارس فى الشمال ، ومن تلمسان إلى أنجة فى المغرب . وباختصار ، استطاع يوسف بحكمته أن ينشر الأمن والطمأنينة فى بلاده فذاعت شهرته فى العالم الإسلامى .

المرابطون والقضاء على غانة

يعتبر القضاء على غانة خاتمة تلك الفترة الطويلة التى سادت خلالها تلك الدولة على السودان الغربى ، وأدى سقوطها إلى انتصار الإسلام السياسى فى المنطقة الساحلية بين نهرى سنغال والنيجر مما أجبر أسرة السوننكة الغانية على اعتناق الإسلام . ليس هذا فقط ، بل إنهم عملوا أيضاً على نشر الإسلام

بين الأهالى الذين كانو الايزالون يحكمونهم . وأدى نجاح قوات المرابطين فى تلك الأنحاء إلى تحرك هجرات قبلية فانتشر السوننكة فى عدة ديار فسيحة ، وهاجر (السيرور) إلى تكرور (فوتاتورو) وعبر السنغال إلى جهات شتى .

لما مات أبو بكر (١٠٧٨) انتهى حلف صنهاجة واختفى نفوذه وسيادته على السنغال والنيجر . واستمرت جدالة فى احتلالها المناطق المطالة على شواطىء الأطلنطى ، وبقيت لمتونة فى أدرار وتاجنت ، وتمسكت مسوفة بمنطقة الحوض فى الصحراء . وقد امتاز تاريخها بعد تلك الفترة بالمعارك المستمرة .

وهنا يجب أن نقف قليلا لنقرر حقيقه تاريخية ، وهى أن بعض المؤرخين بالغوا فى وصف الجهد الذى اضطلع به المرابطون فى نشـــر الإسلام بين أهل السودان الغربى ، وقالوا إنه بفضلهم وحدهم تم دخول الإسلام ، وفات أن الإسلام تسرب فى هدوء بصحبة تجار قوافل الصحراء من الشمال إلى الجنوب قبل أيام حركة المرابطين فى أثناء القرنين التاسع والعاشر . وكان هؤلاء التجار يمنحون كامل الحرية فى مزاولة تجارتهم وتأديه واجباتهم الدينية ، بل والدعوة إلى دينهم أيضاً فى حرية مطلقة .

ومما يؤيد هذا وجود مدن إسلامية وأحياء يسكنها المسلمون فى المدن الوثنية ، ثم اعتناق زعماء التكرور الدين الإسلامى ، فضلا عن اعتناق كثير من سكان الإمارات السودانية الدين الحنيف .

والواقع أن المرابطين عملوا على الإسراع فى مهمة تحويل الزنوج إلى الإسلام بدلا من سيرها ببطء تدريجى . وبعد سقوط غانة تسلمت راية الإسلام دولة مالى الإسلامية التى سرعان ما أصبحت أعظم الدول الزنجية الإسلامية فى غرب أفريقيا .

واستمر الإسلام ينتشر عن طريق الوسائل السلمية أي الدعوة الهادئة ، وكان لقبائل السوننكى فى غانة الفضل العظيم فى الدعوة له . وقبول الإسلام بين سكان الساحل الغربى الأفريقى بإقليم ما سينا يرجع إلى السوننكى ، وكان لا تصالهم التجارى برجال مالى الفضل فى إيصال الإسلام إلى حافة منطقة الغابات الكثيفة عند خط الاستواء .

وفى خلال خمسين سنة عقب وفاة عبد الله بن يس ، كان التجار المسلمون وصلوا إلى جنوب منطقة السفاناه السودانية وعلى وشك اختراقهم الغابات . بل إن بعض أهالى مالى (ماندى ديولا) اخترقوا الغابات بحثاً عن تجار جوز الكولا . وقد اجتذبت المدن التجارية الإسلام ، ومن تلك ملك مدينة جنى الذى اعتنق الإسلام فى مستهل القرن الثالث عشر ، وسرعان ما اقتدى به رعاياه ، فأصبحت جنى مركزاً إسلامياً هاماً فى السودان الغربى كذلك تمبكتو التى قامت بهمة الطوارق حوالى عام ١٠٩٦ / ٩٧ ، فسرعان ما أصبحت عند القرن الثالث عشر مديــنة تجارية ، ومركزاً إسلامياً يضىء الصحراء .

هكذا رأينا الإسلام ينتشر فى مناطق الساحل الغربى بين موريتانيا فى الشمال ، والسنغال وغينيا وغانا فى مرحلته الانطلاقية الأولى . ثم كان لقبائل الفولة الفضل فى نشره فى منطقة السنغال فى القرن ١٦ / ١٧ . وقد تحمس المسلمون لدينهم لدرجة واضحة فيما بين ١٧٧٦ و ١٨٩٠ . وفى القرن التاسع عشر أسلم كثير من أفراد قبائل الولوف والليبوس .

وفى القرن السابع عشر انتشر أتباع الطريقة القادرية فى غينيا ، ولا سيما بين قبائل الفولة .

وانتشر الإسلام فى مالى (السودان الغربى) فى أخريات القرن ١٣ أو ما قبل ذلك ، كما تسربت الطريقة القادرية التى تفرعت منها القادرية البكائية

وكان ذلك بهمة الشيخ عمر البكاى ، ومن ثم كثرت المراكز الإسلامية والمعاهد .

ودخل الإسلام المنطقة التى تحتلها اليوم جمهورية ساحل العاج ، ولا سيما فى الشمال ، بفضل الجماعة الإسلامية الأولى التى اعتنقته فى القرن ١٣ فى أثناء سطوة دولة مالى ، وكانت أهم مراكز المسلمين فى توبة وكونج واندوكو وجويلة ، ولكن نلاحظ أن المد الإسلامى قد تراجع هناك بعد اضمحلال نفوذ مالى حوالى القرن ١٥ ، ثم استرد مكانته فى النصف الأول من القرن ١٩ حينما نهض الزعيم الروحى عمرتال بدعوته فى السودان الغربى وانبثق نور الإسلام فى داهومى ، ولاسيما فى مناطقها الساحلية ، فيما بين عامى ١٧٠٠ و ١٧٢٠ بوساطة التجار القادمين من كانو (شمال نيجيريا) الذين عرفوا باسم المعلمين . وقد وفدت هجرة إسلامية قوية بزعامة مشايخ القادرية من الشمال الشرقى منذ القرن ١٧ ، ثم انتشرت التيجانية بعد عام ١٨٧٠ ، كما نشط مسلمو مدينة « بورتو نوفو » وعملوا بهمة فى سبيل الدعوة وأقاموا المدارس الدينية كما شيدوا المساجد .

والمعروف أن الإسلام انتشر فى شمال نيجيريا بفضل الإمبراطوريات الإسلامية التى ضمت هذه البلاد إليها ، وهى مالى وسنغاى وبرنو ، ومنذ ذلك الحين سادتها فى فترات كثيرة روح إسلامية قوية ، ومن أهمها تلك الحركة المباركة التى نهض بها الشيخ عثمان بن فوديو والشيخ محمد الأمين الكانمى منافسه القوى فى برنو خلال القرن التاسع عشر

الفصل الأول

غانة (٣٠٠ م — ١٢٤٠)

غانة فى مؤلفات العرب :

يرجع أول نص عربى صريح عن السودان الغربى إلى المؤرخ ابن عبد الحكم (٨٠٣ — ٨٧٠) ، عندما تحدث عن الحمله التى جردت إلى السوس جنوب المغرب والسودان سنة ٧٣٤ م ، فقال : « وغزا عبيدالله ابن عبيدة الفهرى السوس وأرض السودان ، فظفر بهما ظفراً لم ير مثله من ذهب ، وكان فيما أصاب جارية أو جاريتان من جنس تسميه البربر « أجان » (١)

وفى أقل من عشرين سنة بعد ذلك نظم عبد الرحمن بن حبيب طريق القوافل بين جنوبى المغرب الأقصى وأودغشت على حافة الصحراء الجنوبية وذلك بأن حفر عدة آبار مياه جديدة (٢) ، وقد تكلم عن هذه الطريق مؤلف كتاب الاستبصار حوالى ١١٩٢ ، قائلا : إنه يخرج من نهر درعة إلى غانة وكان أول من ذكر غانة من العرب : الفزارى الفلكى الذى ذكر قبيل عام ٨٠٠ م عدة بلاد أفريقية منها إقليم بلاد التبر ، ثم الخوارزمى

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح أفريقية والأندلس ، نشر النص العربى والترجمة الفرنسية البرت جاتو عام ١٩٤٨ ص ١٢٢ .

(٢) أبو عبيد البكرى : المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب طبعة عام ١٩١٣ ص ٢٩٦ — ٢٩٨ .

الجغرافى قبيل عام ٨٣٣ الذى حدد موقع غانة فى خريطته التى نقلها عن بطليموس (١). وذكر اليعقوبى الجغرافى (عام ٨٧٢) «ملك غانة عظيم وفى أرضه معادن التبر. وهو صاحب عدة ممالك كثيرة». ثم كتب ابن حوقل الجغرافى (ح ٩٧٧) - وكان قد زار أوغشت - فقال إن الملوك هذه المدينة صلات بملك غانة أغنى ممالك العالم ذهبا. ثم جاء البكرى (١٠٦٧م) فزودنا بأوفى المراجع عن السودان الغربى فى العصور الوسطى، فذكر موقع غانة ووصف أحوال الشعب وملوكها (٢).

أما ابن بطوطة الرحالة المغربى (حوالى ١٣٥٣/ ٥٤)، فقد كان ثانى المؤلفين العرب الذين زاروا السودان الغربى، وأولهم ابن حوقل؛ ونلاحظ أن ابن بطوطة لم يذكر غانة لأنها لم تكن قائمة، كدولة كبرى فى أثناء رحلته، ولكنه وصف أحوال وعادات الشعب الذى كان يسكن أرضها.

وهناك اثنـــان من المؤرخين السودانيين، كتبا عن تاريخ بلادهم بعد مؤرخى العرب، وقد زودانا بمعلومات طيبة وفيرة عن غانة ومالى وسنغاى أولهما محمود كعت الذى كتب «تاريخ الفتاش فى أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس» فيما بين ١٥١٩ و ١٦٦٥ (٣)، وثانيهما عبد الرحمن السعدى

---

(١) يوسف كمال: الأطلس الجغرافى الكبير ج ٣ لوحة ١ ص ٥١٠ عام ١٩٣٠، و ص ٥٤٠ و ٥٤١.

(٢) البكرى، المرجع المذكور فى ص ٣٢٧ — ٣٣١.

(٣) نشره وترجمه المستشرقان هوداس وديلافوس، باريس ١٩١٣، وقد أعيد نشره عام ١٩٦٤.

قبيل عام ١٦٥٥ الذى ألف تاريخ السودان الذى يعتبر من المراجع الأصلية (١) .

* * * *

اقتبست «غانة» اسمها من المدينة التى كانت حاضرة الدولة قبل أن تصبح إمبراطورية ، وتتفق كلمة المؤرخين على أن مملكة غانة تأسست حوالى عام ٣٠٠ م ، ثم نمت واتسعت رقعتها ، فامتدت من نهر نيجر إلى ساحل الأطلنطى غربا وشمالا عند حافة الصحراء الكبرى ، وكانت تشغل فى مراحلها الأولى أراضى البلاد التى كانت تعرف باسم السودان الفرنسى (جمهورية مالى اليوم) .

ثم تحولت «غانة» على مر الزمن من مملكة إلى إمبراطورية ، قبل ازدهار دولة المرابطين بمائة سنة تقريبا ، حتى بلغت أسمى مكانة فى تاريخها خلال السنوات الخمسين التى سبقت عصر المرابطين الذهبى .

ولقد استطاع شعب غانة أن يقيم دولته الفتية ، ولا يدل هذا الاسم على الشعب ، ولكنه أطلق على الطبقة الحاكمة أحيانا ، أوعلى الحاضرة كما ذكرنا ، وكان أول ملوكهم «كاز» فاتخذ قرب « تنكبت » عاصمة له وتمكنت هذه الدولة - أو بعبارة صحيحة الأسرة الأولى التى تألفت من أربعة وأربعين ملكا فى المدة الممتدة من القرن الرابع حتى القرن الثامن الميلادى — أن تبسط حكمها بين أوكار وحوض الصحراء الكبرى ، واستطاع فى آخر هذا القرن أحد شعوب الماندى ، وهو السوننكة ، أن يرث دوله غانة واستولى على الحكم سنة ٧٧٠ م .

ويمدنا الإدريسى الجغرافى العربى بصورة لمجتمع غانة وأسلوب معيشة الشعب وحكامه ، إذ قال : إن عمارة القصر الملكى كانت تزينها التماثيل والرسوم المنقوشة ولوحات الصور وتتخللها النوافذ الزجاجية .

كما يصف «محمود كعت» مؤلف تاريخ الفتاش جانباً واحداً من البذخ

(١) نشره وعلق عليه هوداس ، باريس ١٨٩٨ .

الذى كان يتسم به بلاط كانيسا أى أحد ملوك غانة فى نهاية القرن السابع ، فيقول فى وصف الاسطبلات الملكية :

« لم يكن هناك جواد واحد من جياد الملك الألف لا ينام إلا إذا فرشت تحته طنفسة ، وكانت الجياد توثق برباط من الحرير المجدول حول العنق وفى القدمين ، وكان لكل جواد ثلاثة أشخاص لخدمته يأخذون أماكنهم فى جواره ، ويعنى أحدهم بطعامه ، وثانيهم بسقيه ، وثالثهم بما يخرج منه » .

ويذكر مرة أخرى مؤلف تاريخ الفتاش أن الملك كان فى كل ليلة يجلس على عرش من الذهب الأحمر ، ويحيط به حاملو الشعلات النارية ، على حين يشاهد عشرة آلاف من رعاياه وهم يتناولون طعام العشاء من مطابخ القصر .

تلك هى إحدى صور البذخ التى كان يعيش فيها أباطرة غانة ، فقد كان الملك يتوسط دائماً أبهة بلاطه الرائع ، تلك الأبهة التى تعكس دون مبالغة بذخ دولته وفرط ثروتها . كان يتخذ مجلسه فى إيوان الملك ، وقد رصعت ملابسه بالجواهر ، ويضع على رأسه ما يشبه التاج الذهبى ويحف به طاقم من الجياد المطعمة بالحلى الذهبية ، ويقف خلفه عشرة من الغلمان الوصفاء يمسكون الدرقات والسيوف المذهبة ، وإلى اليمين يقف آباء الأمراء التابعين لسلطانه ، وهم مرتدون الملابس الجميلة ، وقد رصعوا شعورهم برقائق الحلى ويجلس الوزراء أمام الملك ويقف حاكم المدينة عند قدميه ، وتحرس كلاب الصيد الإيوان الملكى ، وحول رقابها الأطواق والأجراس الذهبية والفضية ، وتلك كانت تتبع الملك دواماً أينما ذهب .

وكانت تقرع الطبول الملكية عند بداية أى حفل يشترك فيه الملك ، وكانت تعرف « بالدبسا » أما أتباعه الوثنيون فيركعون أمامه ثم يأخذون التراب من الأرض ويضعونه على رءوسهم ، ويبدى المسلمون من رعاياه الاحترام بالتصفيق له .

فإذا مات الملك وضعت جثته على الطنافس والوسائد تحت قبة من الخشب وتوضع الأثواب وألوان الطعام والشراب إلى جانبها ، وكان يدفن معه المقربون من الخدم والأتباع الذين يشرفون على خدمته الخاصة فى أثناء حياته ، ثم تغطى المقبرة بالحصير ، ويشترك الجمع المحتشد بإلقاء التراب على القبة حتى تصير كومة عالية ، ثم يحيطونها بخندق .

وقد احتوت الخزانة الملكية فى غانة على سبيكة ضخمة من الذهب كانت رمز الملكية ، اشتهر أمرها فى العالم المعروف إذ ذاك ، وقدر بعض الخبراء زنتها بثلاثين رطلا ، وذكر ابن خلدون أنه بعد أن سقطت مدينة غانة فى قبضة المرابطين (١٠٧٦ م) وبعد ثلثمائة سنة بيعت تلك السبيكة إلى أحد التجار فى مصر وقدر زنتها طناً .

وكانت صلات غانة التجارية مع العالم الخارجى من الأهمية بمكان ويرجع ذلك إلى توسط موقعها ، فقد كانت تشغل رقعة الأرض التى تقع عند الطرف الجنوبى لطريق القوافل الغربية عبر الصحراء الكبرى التى امتدت بين سجلماسة فى بلاد المغرب مارة بتغازة التى اشتهرت بمناجم الملح .

وكانت « غانة » تستورد القماش والمنسوجات الحريرية والنحاس والملح وتصدر تراب الذهب وربما الجلود أيضاً .

ولم يكن معظم ذهب « غانة » يعثر عليه فيها ، لكن كانت « ونجارة » أهم المصادر التى أمدتها به ، وكان شعب الونجارة يقطن بقعة فسيحة امتدت ثلثمائة ميل طولا وخمسين عرضاً فى جنوب منطقة نهر سنغال . وليس من اليسير أن تعرف بالدقة موقع الذهب فى ديار « ونجارة » .

وقد ذكر ابن حوقل الجغرافى العربى (حوالى عام ٩٧٥ م) أنه شاهد فى « أودغشت » على حافة الصحراء (وكانت على مسيرة خمسة عشر يوماً إلى غربى مدينة غانة) صكا قيمته ٤٢٠٠٠ دينار كتب على ذمة تاجر فى سجلماسة ،

مدينة غانة أو كومبى

ومدينة غانة أو « كومبى » كما أسماها شعب غانة هى عاصمة الإمبراطورية السوداء تألفت من قسمين هامين ، يقع كل قسم منهما على تل ، وتمتد نحو الوادى على رقعة سهل فسيحة ، وكان كل قسم يبعد عن الآخر نحو ٦ أميال يقطن المسلمون أحدهما ، ويسكن الوثنيون القسم الآخر ، وقد أطلق المسلمون على ذلك القسم « الغابة » ، لأن الأحراش كانت تحيط بها من كل جانب . وهى موضع تقديس الأهالى ، وبها المقابر الملكية ، ويعيش الكهنة والسحرة وعباد الأوثان فى الأحراش ، كما أقيم فيها سجن عتيد ليقضى فيه المحكوم عليهم بالموت أيامهم الأخيرة .

كان فى المدينة الإسلامية اثنا عشر مسجداً ، وقد عاش فيها كثير من العلماء ورجال الدين والأدب والطلاب وكانت اللغة العربية لغة التدريس ليس عند المسلمين فحسب ، بل فى جميع أنحاء الإمبراطورية .

وكان فى المدينة الوثنية مسجد واحد يؤدى فيه ضيوف الملك من المسلمين الصلاة ، يقع إلى جوار دار القضاء .

كان يشغل مناصب الدولة المسلمون والوثنيون على السواء ، ويذكر المؤرخ البكرى أن غالبية الوزراء كانوا من المسلمين ، وأن القائم بشئون الترجمة فى بلاط الملك ووزير الخزانة كانا من المسلمين أيضاً .

كان قسما المدينـــة « أى كومبى » مشيدين بعناية ، بنى بعض دورها بالحجارة وبعضها باللبن .

وقد ذكر ابن خالدون أن عدد سكانها كان كبيراً وأنها ـ أى المدينة ـ كانت من أكبر مدن العالم وأكثرها ازدحاماً بالسكان ، وكان أهلها يرتدون الملابس الصوفية والقطنية والحريرية والمخملة ، كما ازدهرت فيها صناعات نسج الأقمشة ، وزراعة التمر ، وصناعة النحاس والأحجار الكريمة والدروع والأسلحة المطعمة بالذهب والفضة .

وقــد استمد البكرى وصف كومبى حاضرة غانة من المعلومات التى كان يحصل عليها من تجار البربر الذين عرفوا المدينة جيداً ، وتتحدث معظم هذه المعلومات عن رخاء كومبى ونشاطها التجارى وروعة القصر الملكى .

تلك هى نظرة شاملة لما كانت عليه أحوال غانة ومجتمعها فى الشطر الأول من تاريخها الوسيط ، وننتقل الآن إلى التحدث عن تاريخها وأهم الأحداث التى مرت بتلك الإمبراطورية السوداء .

الطوارق (الملثمون) :

كان لإسلام قبائل الطوارق (الملثمين) فى القرن التاسع الميلادى أثر فى تطور الأحداث الهامة فى المغرب الأفريقى والسودان ، ولاسيما بعد أن قام حلف لجمع شمل الملثمين بزعامة اللمونى «تيولان بن تيكلان» الذى اعتنق الإسلام ، وكان من أهداف الحلف ، التوسع نحو الجنوب لنشر الإسلام بين القبائل الزنجية بالسودان الغربى، ولذلك كان لا بد أن يصطدموا بغانة التى كانت قد وصلت إذ ذاك إلى أوج مجدها وتوسعها ، حتى لقد وصفها ابن خــلدون بقوله : «كانوا أعظم أمة وأضخم ملك» (١) ، وامتدت منطقة نفوذهم من ثنية نهر نيجر جنوباً حتى مدينة أركى فى الشمال ، وتقع على مسيرة سبعة أيام من مضارب قبيلة لمتونة غرب وادى نون ، ولكن كان من حسن طالع حلف الملثمين الصنهاجى أن دبت عوامــل الضعف فى هذه الدولة الزنجية الكبيرة فى ذلك الوقت بالذات .

ولقد زحف الملثمون بجيوشهم حتى استولوا على أودغشت واتخذوها حاضرة لهم ، وفرضوا الجزية على المغلوبين ، وقد انتهز شعب صوصو فرصة هذا الاعتداء على جارته غانة ، فضربها من الجنوب .

---

(١) ابن خلدون : «العبر» جـ ٦ ص ١٩٩ .

ثم تفككت روابط الحلف بين قبائل الملثمين عام ٣٠٦ هـ (٩١٨ م) فانتهزت غانة أحوال تفرق الحلف وبسطت ظلها على ما حول مدينة أودغشت مرة أخرى ، ولكنها لم تستطع استرداد أملاكها السابقة بعد استقرار الملثمين فيها . ويبدو أن غانة قنعت بالسيطرة على أودغشت ، لأن ذلك معناه التحكم فى طريق التجارة بين بلاد السودان وسجلماسة والمغرب ، وفى ذلك ربح طائل لاقتصادياتها ، ومن ثم وقفت غانة ثانية على قدميها طوال السنوات الخمسين التالية قوة عظيمة فى السودان الغربى .

لعل أهم آثار الاحتكاك أن تسرب الإسلام إلى غانة للمرة الأولى ، بفضل ما خلقته العلاقات التجارية بين بربر الشمال وزنوج السودان .

ثم بدت عوامل جديدة أثرت على العلاقات بين قبائل الملثمين : فاتفقت كلمتهم على إعادة الوحدة والحلف مرة ثانية ، فكروا على غانة ثانية واستولوا على أودغشت ، ويحتمل أن يكون ذلك قد تم حوالى عام ٣٥٠ هـ (٩٦٠ م) فإن ابن حوقل (المسالك ص ٧١) طوف بديار الملثمين فى ذلك الوقت تقريباً ، ودخل أودغشت ، ووصف قوة ذلك الحلف الجديد .

عادت صنهاجة لبسط ظلها من جديد على الديار الممتدة من جبال دون فى الشمال إلى ثنية النيجر فى الجنوب ، ولم تهدأ ثائرة النضال ، واستردت أودغشت ، وتفرقت كلمة الملثمين ، وعمتهم الفرقة من جديد فى أوائل القرن العاشر ، وانتظروا فرصة مقبلة .

ولم تنته أحداث الملثمين عند هذا الحد . كانت المعارك الأولى نقطة البداية ، حتى انطلقت دعوة دينية انبثقت فى صفوفهم ، تلك الدعوة التى وحدت صفوفهم وأذكت فى نفوسهم الرغبة فى الجهاد .

قبل أن نتحدث عن آثار تلك الدعوة فى مهاجمة غانة نقول : إن قبائل صنهاجة فى الجنوب لم تستطع العيش فى ظل الفرقة بين قبائلها ، فقد

كانت أحلاف زناتة والمصامدة فى الشمال لا تزال تسد مسالك المغرب والمحيط وكانت غانة تهدد تجارة السودان، وهى مصدر رزق لقبائل صنهاجة الضاربة فى الصحراء، فكان لزاماً أن يتحدوا ليقووا، وقد تم فعلا نوع من التحالف بين قبائل لمتونة وجدالة ومسوفة، بفضل الجهود التى بذلتها لمتونة (١).

ويبدو أن أهداف هذا الحلف الجديد كانت الهجوم على ملك غانة، والسيطرة على طريق التجارة، واسترداد ما فقده الحلف من مصالح تجارية وربما كان هذا الحلف قد تم حوالى عام ٤٢٤ هـ (١٠٣٢ م) بزعامة أبى عبد الله بن تارشت اللمتونى (٢).

ولكن لم يكتب لهذا الحلف أن تطول مدته، فقد قتل زعيمه وهو يقاتل ملك غانة. وهزمت لمتونة وأخفقت فى استعادة أودغشت والسيطرة على مصادر ثروة السودان (٣).

وكان من نتائج تلك الهزيمة أن تخلت لمتونة عن زعامة قبائل الملثمين، ويرجع بعض أسباب هزيمتها إلى أن مضارب رجالها كانت فى أقاصى الشمال قرب حدود المغرب الأقصى، وكان انتقالها إلى الجنوب وتخطيها حوض نهر سنغال للهجوم على السودان يتطلب الجهود والأموال، فلم تستطع أن تمضى فى هذا الجهاد حتى تبلغ هدفه.

وآلت زعامة الملثمين إلى قبيلة «جدالة» فأسرعت إلى المعركة التى كانت لاتزال مستمرة إذ أنها لو تخلت عن القيادة لذهبت قوة الملثمين. وعادت غانة تتسرب إلى الشمال، وتقضى على الجهود التى بذلت فى نشر

---

(١) الدكتور حسن محمود، قيام دولة المرابطين، ص ١٠١

(٢) القلقشندى، صبح الأعشى، جـ ٥ ص ٨٩.

(٣) البكرى، المغرب، ص ١٧٥.

الإسلام ، وكانت جدالة أقدر على كفاح السودان لقرب ديارها من مملكة غانة ، وأعرف بأحوال البلاد وطباع أهلها ، ولغتها أيضاً ، وكان « زعيم » جدالة فى ذلك الوقت يحيى بن إبراهيم الذى كانت تربطه بأبى عبد الله صلة القرابة .

* * *

فى يوم من الأيام كان الزعيم الطارقى يحيى بن إبراهيم مارا بالقيروان عقب عودته من تأديته فريضة الحج ، فالتقى بابن عمران الفقيه الفاسى الذى دهش حينما علم بجهل يحيى وأتباعه بشئون الإسلام ، فلمس حاجتهم إلى من يثقفهم ويهديهم إلى السبيل المستقيم ، ورأى أن يبحث عن مرشد صالح ليمكن الإسلام القويم فى نفوس رجال يحيى ، فوقع اختياره (١) بعد زمن على عبد الله ابن يس السجلماسى ، وكان من آثار هذا الاختيار الموفق ابتداء الامتداد لنفوذ مذهب مالك من القيروان إلى المغرب الأقصى ، وتخطيه تخوم هذه الديار نحو الجنوب وانتشاره فيما بعد فى بلاد السودان الغربى .

رحل ابن يس وأخذ يمهد للوحدة السياسية إلى جانب التمسك بأهداف الإسلام ، لكنه لم يوفق كما أراد ، فاتبع طريقة أخرى .

رأى أن يهاجر نحو الجنوب مع بعض رفاقه إلى جزيرة تقع عند مصب نهر سنغال الأدنى ، واتبع حياة التصوف والزهد والمرابطة ، وبدأ الناس يجتمعون حوله وينتمون لرباطه ، واتخذوا اسم المرابطين . والحق يقال إنه وقع على كاهل ابن يس أن ينشىء جيلا جديداً من المسلمين ، ويهيئهم للون من حياة الجهاد ، ويعدهم للقتال ، ويغرس فى صدورهم فى

(١) دله ابن عمران أولا على تلميذه « وجاج بن زللوى اللمتونى فقيه السوس » وهذا أرشد إلى تلميذه الصنهاجى عبد الله بن يس السجلماسى .

الوقت نفسه مبادىء الإسلام الصحيح . حتى إذا ما زاد عدد أنصاره من هؤلاء المرابطين خرج من رباطه ليحقق أهداف السياسة التى رسمها ، وسار على رأس مجاهديه الشبان إلى السودان ، فاتجه إلى الشرق نحو ثنية النيجر ، وذخل مدينة أودغشت عام ١٠٥٤ ، وانتزعها من ملك غانة الذى كان قد استردها من الملثمين بعد سقوط الحلف الصنهاجى - ثم حمل أهل غانة على اعتناق الإسلام فدانت به غالبيتهم .

كانت المعارك بين الجانبين مريرة جداً . . هـذا يدافع عن عقيدته ، وذاك يدافع عن أرضه . . وفقد فى هذه المعارك مئات القتلى .

واستشهد فى إحـدى المعـارك يحيى بن عمر (١٠٥٦) ، ثم أوغل المرابطون فى تقدمهم إلى الجنوب ، وحالفوا زعيم التكرير فخاض غمار الحرب إلى جانبهم .

كان من نتائج هذا النجاح أن انضمت قبيلة لمتونة إلى المرابطين ، ثم عاد ابن يس إلى الشمال ووحد عدة قبائل أخرى انضمت تحت زعامته .

سوف لا نذكر هنا أعمال ابن يس وأتباعه فى المغرب الأقصى بعد انتصاراته وفتوحه فى الأندلس ، فهى كثيرة ومتشعبة . ومما يؤسف له أنه مات فى أشد اللحظات حرجا . إذ استشهد فى قتال برغواطة (عام ١٠٥٧)م، وبموته فقد المسلمون زعيما ومجاهدا أفريقيا من كبار المناضلين فى نشر الدعوة ، فقـد أقام دولة واحدة تحت لواء المرابطين والأقاليم الشمالية الخصبة التى تضم السوس وأغمات وسجلماسة وتوابعها ، وفضلا عن ذلك كان قد انتهى من دعم أسس ثابتة لإمبراطورية كبيرة تقع حدودها فى خارج أفريقية .

اختار المرابطون خليفة لابن يس ، ولم يعش طويلا ، آل الأمر إلى أبى بكر بن عمر الذى جعل مقر حكمه فى أغمات ، فى المكان الذى قامت

عليه فيما بعد مراكش الحالية ، واستطاع أبو بكر بعد جهاد دام أكثر من خمس عشرة سنة أن يهزم مملكة السوننكة الخاضعين لغانة ، ويضم بلادهم إلى دولة المرابطين ، وانكمش سلطان غانة وتفككت ممالكها واستقلت بعض أقاليمها .

كانت غانة مع ذلك تنتهز الفرصة للانتقام من المرابطين ، وتهدد طريق سيادتهم بين كل حين وآخر . أو ليست الصحراء ميدانا فسيحا لقتال الكر و الفر ؟ ولذلك كان القضاء على غانة هدف الجماعات المتحمسة بين المرابطين ، ولا سيما فى خطة أبى بكر حينما قلد قيادة الجيش الشمالى من قواته عام ١٠٦٣ إلى يوسف بن تاشفين ، وعاد إلى حرب الصحراء .

وجاء تنفيذ تلك الخطة بعد أربع عشرة سنة ، فتمكن بمساعدة تكرور (١) من الاستيلاء على كومبى ، وفرض الإسلام على جميع البلاد وقد تم له هذا النصر على إمبراطورية غانة عام ١٠٧٦ م ، ومن ثم صارت إليه وإلى رجاله مواطن الذهب الغنية ، وهى أهم مصادر الثروة السودانية فى ذلك الحين .

نهاية إمبراطورية غانة :

لم يكن لسقوط غانة الآثار البعيدة المدى المنتظرة التى كان يتوقعها الزعماء الأفريقيون فى ذلك الحين . ذلك لأن انهيار المرابطين كان سريعا فى الجنوب ، بل أسرع من نهايتهم فى الشمال ، فقد عادت من جديد الخلافات التى كانت دواما سبب ضعفهم وفشلهم ، وذلك لأن بعض قبائلهم - ومن بينها مسوفة ولمتة - رفضتا العمل معا تحت زعامة لمتونة ، تلك القبيلة

(١) موطن قبائل التوكولور ، وتقع غرب غانة ، ويعرفون باسم التكارير . وكانوا يؤلفون شعباً تجارياً نشطاً أخضعتهم فى القرن الحادى عشر .

التى كانت بمثابة العمود الفقرى للمرابطين ، فى حين ظلت جدالة واقفة بعيدة عنهما .

وآل الأمر إلى يوسف بن تاشفين بعد موت أبى بكر عام ١٠٨٧ م ، ولم يكن سيد شمال أفريقية فحسب ، بل صاحب الكلمة فى الأندلس ، حينما انتصر على الملك ألفونسو السادس فى معركة الزلاقة (٢٣ أكتوبر سنة ١٠٨٦) .

وفى خلال عشرة أعوام بعد هزيمة غانة ، كان المرابطون قد أسسوا إمبراطورية امتدت من السنغال غربى أفريقية إلى نهر الإبرو فى الأندلس ؛ وقد دامت تلك الإمبراطورية حوالى مائة عام إلى أن قامت فى أعقابها دولة الموحدين .

وفى أثناء تفكك المرابطين وانشغالهم بدولتهم فى الأندلس ، استطاع السوننكة إحدى ممالك غانة أن يستعيدوا استقلالهم ؛ ولكنهم كانوا كالمرابطين تعوزهم الوحدة وتسودهم الروح القبلية ، فإنهم لم يستفيدوا بمزايا الظروف والأحداث المعاصرة ، فعاد الشقاق إلى صفوفهم ، ورغب كل إقليم فى أن يستقبل ببلده ولم يعملوا فى سبيل وحدتهم للثبات فى وجه عدوهم المشترك فى الشمال .

وفى عام ١٢٠٣ م استولى سونجروا ، ملك الصوصو ، أقوى ممالك غانة على حاضرة البلاد ، وكانت عواقب هذا الاستيلاء خطيرة جداً كما سنرى . كان من أهمها خروج بعض التجار المسلمين والسوننكة الأغنياء إلى الصحراء ، ثم شيدوا بلدة جديدة فى الصحراء تقع على بعد بضع مئات من الأميال إلى شمال كومبى (١) على قطعة من الأرض كانت تستخدمها

(١) أشار أبو الفداء وابن خلدون فى القرن الرابع عشر إلى كومبى التى يبدو أنها كانت لاتزال باقية إلى ذلك التاريخ . ولا شك أنه التبس عليهما الأمر وخلطاها بولاته . كما أثبت ذلك أحد الرواة الأجانب .

القوافل . كان اسمها « ولاته » . ثم نمت البلدة على مر الأيام وأصبحت من أهم الأسواق فى الصحراء الكبرى ، أما كومبى فقـــد محى أثرهـا من التـاريخ .

فى تلك الأيام كانت « مالى » الصغيرة دولة تمر فى مرحلة الانطلاق ، وخشى سو منجرو أن يعلو شأنها يوماً من الأيام فتهدد دولته،ولذلك قرر أن يضربها قبل أن تقوى عليه . فوجه ضربة نحو جيشها ، وانتصر عليه ، وأخرى نحو بيتها المـالك فذبح أحد عشر شقيقاً كان سيئول إليهم حكم «مالى» ولم يذبح شقيقهم الثانى عشر لأنه كان كسيحاً لا أمل فيه . ولم يكن هذا الشاب الكسيح سوى « سوندياته » الذى آل إليه حكم «مالى» فيما بعد وشيد إمبراطوريتهـا ، وقضى على غانة قضاء تاماً وضمها إلى ملكه .



الفصل الثانى

مالى (١٢٣٨ — ١٤٨٨)

مالى فى مؤلفات العرب :

ربما يكون أبو عبيد الله البكرى (القرن الحادى عشر) أول مؤلفى العرب الذين ذكروا « مالى » وملكها المسلم فى مؤلفاتهم . ومع ذلك فإنه يلاحظ أنه ذكر « مالل » وليس مالى (١) . وقد رجع البكرى فيما كتبه إلى الإدريسي الجغرافى الأندلسى الذى توفى حوالى عام ٩٧٣ .

وذكر الإدريسى (حوالى ٩٥٤) مالى أيضاً . وقال إنها تقع فى بلاد لملم ، وكان ابن فضل الله العمرى أغزر الكتاب العرب الذين تناولوا مالى (١٣٤٢ - ٩) كتب عنها عدة صفحات فى كتابه المعروف « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » . وقد ذكر العمرى أن « مالى تعرف عند العامة بتكرور ، ويطلق على سلطانهم فى مصر سلطان التكرور ، والواقع أنه لو سمع هذا لأنف منه ، لأن التكرور إنما هو إقليم فى مملكته ، والأحب اليه أن يقال (صاحب ملى) لأنه الإقليم الأكبر ، وهو به أشهر وليس بمالى من يطلق عليه اسم ملك إلا صاحب غانه دون غيره ، لعدم انتزاعها منه والاستيلاء عليها استيلاء تاماً » (٢) . والمعروف أن العمرى

(١) البكرى « وصف بلاد أفريقية » نشره دى سلين . ط ثانية عام ١٩١١ ص ١٧٨ .

(٢) راجع أيضاً صبح الأعشى للقلقشندى ج ٥ ص ٢٨٢ ـ ٢٨٦ وقد نقل عن العمرى .

تناول مالى فيا كتبه أثناء حكم ملكها منسا سليمان ، وذكر جملة الأقاليم التى اشتملت عليها مالى حينذاك ، وهى : غانة وزاجون وتورونكا وتكرور وسنغانة وبانبوغو وزرقطبانة وبترة ودامور وزاغة وكبارة وبرغورى وكوكو . يضاف إليها بعض الأقاليم الصحراوية التى كان يؤلف سكانها غالبية من البربر .

ويقول ابن خلدون إنه لما قابل الشيخ عثمان مفتى غانة فى عام ١٣٩٣ ذكر له أن برمندانه كان أول ملوك مالى الذين اعتنقوا الإسلام . وقد تناول ابن خلدون مالى فى كتابه « العبر » فقال عنها إنها اشتملت على خمس ممالك ، وإن كل إقليم منها مملكة بذاتها . وهى :

١) مالى ، ٢) صوصو ، ٣) غانة ، ٤) كوكو ، ٥) تكرور . وهذه الممالك تؤلف أربعة عشر إقليما .

ومن أهم الرحالة العرب الذين كتبوا عن مالى فى أهم عصورها ابن بطوطة ، زارها فى أيام منسا سليمان (١٣٥٢ — ١٣٥٩) ، ووصف لنا أهم مدنها وأحوالها وعاداتها وطعام أهلها وتقاليدها . . وقد أمدنا بصورة حية من مجتمع شعب مالى ، لم يصل إلينا مثله ، وسيأتى الكلام عن هذه الرحلة فيما بعد ، ونضيف إلى هؤلاء ، أحمد أبا العباس القلقشندى (القرن ١٥) صاحب صبح الاعشى .

* * *

شق الإسلام طريقه إلى الأسرة الحاكمة فى مالى فى منتصف القرن الحادى عشر . وكان هذا حينما غزا المرابطون بقيادة عبد الله بن يس ديار غانة

الخارجية (١٠٥٠) ، ونلتقى فى نفس تلك السنة للمرة الأولى باسم «برمنداناه» ملك مالى الذى اعتنق الإسلام ثم أدى فريضة الحج .

ولم تصل إلينا تفصيلات من تاريخ مالى فى القرنين التاليين حتى عام ١٢٤٠ ، وهى السنة التى تغلب فيها سندياته على « سومانجورو » ملك صوصو ، ومن ثم بدأ يشيد مجد دولته الفتية بفضل جيشه المنظم ، فتم له إخضاع الدول المجاورة فى خمس سنوات ، وخرب ما تبقى من عاصمة غانة (١٢٤٠) ثم نقل حاضرة مملكته فى جريبة إلى مدينة أطلق عليها نيانى أو مالى ، وذلك لكى تتوسط دولته ، وسرعان ما اجتذبت إليها تجار المغرب فاتخذوا منها مقاما لنشاطهم واحتلت مكانة عاصمة غانة .

سندياته (١٢٣٠ - ١٢٥٥)

يتسم عصر سندياته (مارى جاطة) مؤسس إمبراطورية مالى بالحروب المتعاقبة ، فلما جلس على العرش لم يكن يتنبأ له أحد بما وفق إليه من الأعمال المجيدة ، ولم يكن محبوبا عند رعاياه ، فخشوا بأسه وبطشه ، ولكنه كان على أى حال بناء دولة .

أحاطت به الأخطار فى بداية حكمه ، فالتجأ إلى بعض شجعان الرماة فى بلاده ونصبهم حراسا له . وقد رأبناه يقضى على صوصه ، ويوجه ضرباته ضد الممالك المجاورة . ومنها البلاد التى كان يحكمها عمه ، فأرغمه على أن يقدم ولاءه له ونصبه قائدا فى جيشه الجديد ، ثم اتجه الى الغرب وغزا لبى التى تقع فى إقليم فوتاجالون ، ثم سار إلى الشرق عابرا النيجر ، وأخضع القبائل التى اعترضته فى طريقه اليها ، وبعد قتال استمر عدة أعوام عاد الى جريبة حاضرة مملكته الأولى على رأس جيشه الظافر (١٢٣٤) .

وفى العام التالى تم انتصاره على صوصو ، ثم دأب على تنظيم شئون دولته الفنية . واتجه سندياته (١٢٤٠) إلى عاصمة غانة القديمة وجرى بهما

تماما ، لكنه استبقى ملكها الذى رضى بالخضوع له ، وسمح له بالاحتفاظ بلقب « ملك غانة » ، وحرم على جميع حكام الأقاليم استعمال الألقاب الملكية .

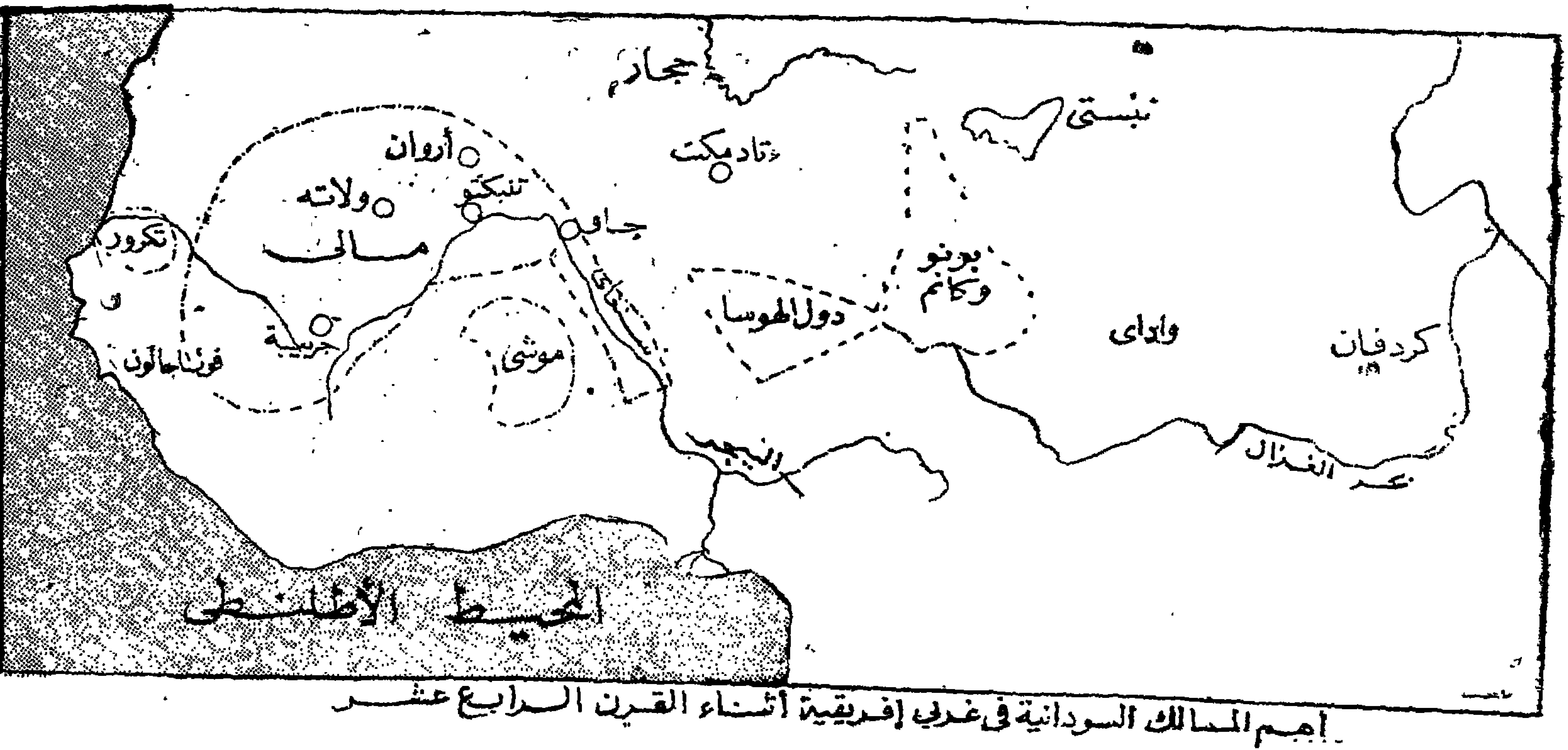
ولم يمتشق سندياته الحسام مرة أخرى ، ولكن انتشرت حاميات جيشه بين ساحل الأطلسى إلى كانو وكتسينة وزارية فى الشرق ، وإلى قلب الأدغال فى الجنوب ، وأوغلت شمالا فى الصحراء ، وأصبحت مالى أقوى دولة فى السودان الغربى لها بأس وسيادة ، ونظم إدارية ، فضلا عما كانت تملكه من مناجم الذهب فى ونقاره . وعلى ذكر هذا المعدن النفيس ، فقد حاول سندياته أن يحول قبائل ونقاره عن الوثنية إلى الإسلام ، ولكنهم لم يستسلموا وأوقفوا العمل فى الذهب ، فاضطر إلى مهادنتهم وتركهم لعباداتهم وتقاليدهم ، فاستأنفوا أعمالهم ، واستمرت أحوال دولته محتفظة بازدهارها التجارى .

كان سندياته قاهر غانة المؤسس لمجد وعظمة مالى فى القرن الثالث عشر وفى سبيل ذلك لم يتبع سياسة نشيطة حربية من أجل النهوض بمملكته الصغيرة ، والعمل على رفعها إلى مستوى الدولة القوية فحسب ، لكنه عمل جاهداً على دعم نظم الإدارة فى بلاده وتشجيع الزراعة ولاسيما زراعة القطن. ومات سندياته عام ١٢٥٥ م بعد حكم استمر خمساً وعشرين سنة .

منسا على — ولى (١) ١٢٥٥ — ١٢٧٠

جلس على عرش مالى بعد موت سندياته ابنه منسا ولى ، وكان من أعظم حكام بلاده ، ومحبا للسلم ، قام بتأدية فريضة الحج على عادة برمندانة عام ١٠٥٠ م. وقد أشار القلقشندى لخروج منسا ولى للحج فى

(١) تذكرة المراجع العربية « منسا ولى » ومعنى منسا بلغة مالى السلطان ، ومعنى ولى على



أهم الممالك السودانية في غربي إفريقية أثناء القرن الرابع عشر

أيام السلطان بيبرس فى قافلة كبيرة اجتازت الدرب الصحراوى المعروف بطريق غات والذى يمتد من هذه المدينة وينتهى عند أهرام مصر. وكان لهذا الحجيج صدى فى أنحاء أفريقية وبعض بقاع العالم العربى.

جنح منساولى إلى السلم، ولكن قادته لم يشاركوه فى سياسته، ورأوا أنه لم يبق لهم عمل فى ظل راية الهدوء، ولذلك قاد بعضهم جيوشه وغزوا أقاليم أخرى، فضم أحدهم بامبوك (١) وقام آخرون بغزو كونكودوجو وجنجران، وونقارة.

لم يقف أحد من المؤرخين على أحوال مالى فى أيام هذا السلطان، ولكنهم يتفقون على أنه فيما بين ١٢٧٠ م و ١٣٠٧ تولى حكم البلاد ما لا يقل عن سبعة من الملوك، نذكر منهم والى شقيق ولى، ثم خليفة، وكان يغلب عليه الحمق، يرمى الناس بالسهام فيقتلهم، فوثب عليه أهل مملكته فقتلوه، وملك بعده سبط من أسباط « مارى جاطة » اسمه أبو بكر، ثم تغلب على الملك مولى من مواليهم اسمه ساكبورة (١٢٨٥) فاغتصب العرش، ومد حدود دولته على حساب جيرانه، فغزا تكرور فى الغرب، وونقاره وجاو (٢) عاصمة سنغاى فى الشرق، وكان نجمها بدأ يسطع بين الممالك الأفريقية، فقوى سلطانه بين شعوب السودان، ورحل إليه التجار من المغرب.

وفى ظل هذا الإمبراطور انتشر الرخاء فى مالى، وحافظت البلاد على رفعتها، وعمها الهدوء وشملها الرقى. وفى عام ١٣٠٠ عزم ساكبورة على الحج إلى بيت الله، وكان ذلك فى أيام السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون فى مصر. ولما أدى الفريضة قرر أن يتبع طريق أكسوم فى الحبشة والسودان الشرقى، ولا ندرى سبب ذلك، وعلى أى حال فإنه لما ترك

---

(١) بامبوك إقليم اشتهر بالذهب وقد ذكره العرب وونقارة فى مؤلفاتهم.

(٢) جاو أو جاغ عاصمة سنغاى. وقد ازدهرت كمدينة إسلامية. وكانت من أشهر أسواق الملح وفاقت معظم البلدان المجاورة.

سفينته ووطئت قدماه البر الأفريقي هجم عليه بعض أهالي الدنا كل عند ساحل تاجورة في الصومال وقتلوه، وكانت مدة حكمه ١٥ سنة .

وتولى الحكم في أعقابه ثلاثة ملوك خلال سبع سنوات ، كانوا ضعافاً نذكر منهم « قو بن السلطان ماري جته » و « محمد بن قو » ثم انتقل الملك من ولد ماري جاطه إلى ولد أخيه أبي بكر والد منسا موسى العظيم .

منسا موسى (١٣٠٧ — ١٣٣٢)

تولى عرش مالي عام ١٣٠٧ م . ودوى اسمه في القارات الثلاث . ولم يتول حكم تلك الامبراطورية من يدانيه في القدر وعلو الهمة . فقد جاهد لإعلاء شأن بلاده ، وكان مصلحاً كبيراً .

سأله ابن أمير حاجب والي مصر في أيام الناصر محمد بن قلاوون (١٣٢٤ — ١٣٢٥) في أثناء مروره بالقاهرة للحج عن سبب انتقال الملك إليه فقال :

« إن الذي قبلي كان يظن أن البحر المحيط له غاية تدرك . فجهز مئين من السفن وشحنها بالرجال والأزواد التي تكفيهم سنين . وأمر من فيها ألا يرجعوا حتى يبلغوا نهايته أو تنفد أزوادهم ، فغابوا مدة طويلة ، ثم عادت سفينة واحدة وحضر مقدمها ، فسأله عن أمرهم فقال : سارت السفن زماناً طويلا حتى عرض لها في البحر في وسط اللجة وادله جرية عظيمة فابتلع تلك المراكب ، وكنت آخر القوم فرجعت بسفينتين ، فلم يصدقه ، فجهز ألفي سفينة ، ألفاً للرجال ، وألفاً للأزواد ، واستخلفني ، وسافر بنفسه ليعلم حقيقة ذلك ، فكان آخر العهد به وبمن معه » . وهكذا آل الحكم إليه .

سياسة الفتح :

استولى جيشه فى مستهل أيام حكمه على ولاته وتنبكتو ، ووصلت قواته إلى جاو فى منطقة النيجر الأوسط ، وامتدت دولته فى آخر حكمه إلى تكرور غرباً وإلى دندى شرقاً ، وبلغ نفوذه إلى قلب الصحراء حيث أروان وتادمكت (١) . وأوغلت سيادته حتى فوتاجالون جنوباً . ونلاحظ أن منسا موسى لم يعتد على استقلال ديارجنى المجاورة له ، وممالك موصى التى كانت تشغل حوض الفولتا فى جنوب إمبراطورية مالى .

نبدأ الكلام على زيارته إلى مصر فى أثناء مروره بها فى رحلته الطويلة إلى بيت الله (١٣٢٤ م) لما تركته من الانطباعات الطريفة فى أنحاء العالم الإسلامى ، بل وفى أوروبا أيضاً .

منسا موسى فى مصر :

تعتبر قافلة الحج التى مرت بمصر بصحبة السلطان منسا موسى من أروع مظاهر ثراء هذا العاهل الأفريقى . كان ذلك فى العام السابع عشر من حكمه (١٣٢٤) ، وقد رافق السلطان حشداً كبيراً من الوزراء والعلماء والأتباع وقدر بعض المؤرخين عددهم بحوالى ١٢٫٠٠٠ .

مر بولته وتوات ورجا ورجله فسرته على شاطىء البحر المتوسط فى برقة ، واتجه منها بإزاء الساحل إلى القاهرة ، وهى فى ذلك الحين مركز الحياة الإسلامية وكعبة العلماء ورجال الآداب ، ولما وصل إليها استقبله الأمير أبو العباس أحمد بن الحاكى المهمندار ، الذى ندبه السلطان الناصر محمد بن قلاوون للإشراف على ضيافة السلطان ، ثم قدم الناصر محمد هدايا شتى منها حمل كبير من الذهب الخام ، ولم يدع أميراً أو رب وظيفة إلا نفحه من هذا الذهب .

(١) تادمكت مدينة بصحراء المغرب على مسيرة خمسين يوما من غانة إلى الشرق (البكرى ٨) .

استقبل الأهالي منساموسى أينما سار بكل مظاهر الحفاوة التي تليق بمقام ضيف جليل ، وكان يرى ممتطياً ظهر جواد ، يسبقه خمسمائة من العبيد ، يحمل كل منهم قضيباً من الذهب ، زنة الواحد خمسمائة مثقال (١) ، وكان العاهل سخياً خيراً يتدفق المال من يديه ، ويهب المنح إلى كل من يتصل به ، وكأنه لم يبتغ من وراء ذلك إلا الظهور بمظهر السلطان الكبير الذي يحكم دولة عظمى.

ثم حدثت أزمة لكنها مرت بسلام ، فقد وجد رجاله صعوبة في إقناعه بزيارة سلطان مصر ، وفازوا أخيراً بتنفيذ رغبتهم ، وتقابل العاهلان ، وقد عمل الناصر محمد كل ما في وسعه لراحة ضيفه وحاشيته طوال مدة إقامتهم ضيوفاً في بلاده .

ويمدنا القلقشندي (٢) بأخبار مفصلة لتلك الزيارة نقلها عن المهمندار الذي رافق السلطان .

ذكر ابن أمير حاجب والي مصر « أنه كان معه مائة حمل ذهباً انفقها في سفريته على من بطريقه إلى مصر من القبائل ، ثم بمصر ، ثم من مصر إلى الحجاز توجهاً وعوداً ، حتى احتاج إلى القرض فاستدان على ذمته من تجار مصر بما لهم عليه ، ولما عاد إلى بلاده بعث إليهم بما استدانه منهم.

تألفت قافلة منساموسى من مائة جمل على كل منها حوالي ثلثمائه من الأرطال التي اشتملت على الهدايا النفيسة ، وكان السلطان يدفع لما يشتريه من العروض المصرية أضعاف ثمنها ، وأقبل على شراء الرقيق من النساء ، والأقمشة الحريرية . وفي أثناء إقامة منساموسى في مصر هبط سعر الذهب عن ثمنه العادي لوفرة ما وجد منه ، وظل منخفضاً مدة طويلة . وابتاع السلطان جملة من الكتب الدينية ليوفر لأهل بلاده مناهل الثقافة

---

(١) المثقال ثمن أوقية من الذهب .

(٢) القلقشندي : ج ٤ ص ٢٧٩ — ٣٠٠

الإسلامية . وظل الناس فى مصر يذكرون ما أحاط بتلك الزيارة كأنها حدث من الأحداث العالمية ، ويتناقلون أخبارها سنين طويلة .

وقد تكررت مظاهر الكرم فى الحجاز فى أثناء الحج ، وأنفق المال بسعة فى كل مكان ذهب إليه . وفى أثناء إقامة منسا موسى فى مكة اتصل به « الساحلى » الشاعر الأندلسى (١) فالتحق بخدمة السلطان ، وقد اشتهر هذا الأديب بكفاءته فى فن البناء ، فطلب إليه السلطان أن يشيد مسجداً كبيراً فى مدينة جاو . وقد بقى هذا المسجد حوالى ثلثمائة سنة ، وكان مشيداً بالآجر .

وفى أيام منسا موسى انتعشت التجارة والعلوم فى تمبكتو ، وسرعان ما أصبحت أهم أسواق السودان الغربى ، ولا سيما بعد انتقال سوق الذهب إليها ، كما اجتذبت التجار من درعة وسوس وسجلماسة وفزان ومن مصر أيضاً .

مات منسا موسى عام ١٣٣٢ تاركا إمبراطورية مهيبة الجانب متقدمة على دول أفريقية الزنجية ، فى اتساع رقعتها ، وفى أحوالها الاقتصادية والثقافية ، بل فى نظمها الاجتماعية .

ويمكن أن نقول بحق إن منسا موسى كان رائداً لفكرة إنشاء اتحاد أفريقية الغربية . كان المالى فى أيامه لا يشعر بالغربة ، سواء أقام فيما يعرف اليوم بغامبيا أو سيير اليون أو غانة ، كان لا يعرف إلا مواطناً يعيش فى مالى . ولكن لم يكتب لهذا الاتحاد أن يعيش طويلا بعد وفاة منسا موسى ، فقد عادت القبائل تحن إلى نظمها وأساليب حياتها القبلية الأصلية ، فنهض شعب موصى (Mossi) (١) فى باتنجا فى إقليم فولتا العلوى يغير على مالى ،

---

(١) توفى فى تمبكتو عام ١٣٤٦ .

(١) تؤلف قبائل موصى شطراً كبيراً من أهالى أفريقية الفرنسية (سابقاً) حيث يتركز توزيعهم حول واجد وجو ويصل إلى الأطراف الشمالية من ساحل غانه . وقبائل موصى زراعيون .

وكان على عرشها ابن منسا الصغير ، ثم تدفقت غاراته الوحشية على تمبكتو واصطدم بحاميتها وحرق دورها . ومهد هذا الحاكم الضعيف لأحداث هامة .

ومما يثير الدهشة أن هذا الحاكم كان قد منح لأميرين من سنغاي ، وهما على كولن ، وسلمن نار حريتهما ، وأطلق سراحهما ، وكانا فى بلاط مالى على عادة أولاد الملوك الذين فى طاعتها للخدمة وكان على كولن لبيباً وفطنا ، فأضمر الهروب إلى جاو حيث أعلن نفسه ملكا على بلاده سنغاى (١٣٣٥ م) واتخذ لقب (سنى) ومعناها « المحرر » .

خلف « مغان » عمه سليمان (١٣٣٧) شقيق منسا موسى ، فبدأ حكمه بالعمل على إصلاح ما فسد من شئون الدولة وإعادة الأحوال الى ما كانت عليه قبل اعتلاء مغان العرش. ومع أنه فشل فى استعادة جاو ، فقد استطاع أن يعيد سيادته إلى معظم البقاع التى خرجت عن طاعة مالى ، وفى عام ١٣٥١ سافر ليؤدى فريضة الحج ، ومر بعدة بلاد أكد فيها سيادته ، ومنها تكدا (١) احدى مدن القوافل التابعة لسلطان الطوارق فى الصحراء، وقيل إنه كان يمر بها كل سنة قوافل يقدر عددها باثنى عشر ألف قافلة قادمة من نيانى (مالى) تقصد القاهرة ، وكان بالقرب منها مناجم النحاس تمد المغرب ومصر ومالى وبلاد الهوسا وبرنو بحاجاتها منه .

منسا سليمان (١٣٥٢ - ١٣٥٩)

تولى الحكم بعده منسا سليمان شقيق منسا موسى ، وقد اجتمع له ما فتحه أخوه من بلاد السودان وأضافه الى سلطان الإسلام ، وشيد المساجد والمدارس ، وجلب الى بلاده الفقهاء من مذهب الإمام مالك .

---

(١) مر ابن بطوطة بتكدا فى أثناء رحلته، وكانت من أكبر مدن الطوارق ، خضع سلطانها اسميا لمالى .

وفى أيام منسا سليمان زار الرحالة المغربى ابن بطوطة دولة مالى ، وتنقل بين مدنها الكبرى ، وقابل السلطان ، والتقى بطائفة كبيرة من العلماء والتجار ، وقد حدثنا عن تلك البلاد وأحوالها المختلفة التى لم يصفها مثله أحد من المؤرخين أو الجغرافيين العرب الذين عنوا بدول السودان الإسلامية .

بدأ ابن بطوطة رحلته من مسوفة (٧٥٣ هـ — ١٣٥٣) بعد مغادرته أيو الاتن ، ومر بزاغواى ، ثم وصل إلى نهر النيجر وعليه بلدة أكارسخو حيث ينحدر منها النهر إلى كابرة وزاغة ، وكلها مدن إسلامية ، ولما وصل إلى نهر صنصرة ، وهو على نحو عشرة أميال من مالى ، ركب قارباً إلى مدينة مالى ، فنزل عند مقبرتها ، ثم قصد إلى محلة السكان البيض حيث كان فى انتظاره السيد محمد بن الفقيه الجازولى ،وكان قد استاجر له داراً فتوجه إليها وجاءه صهر الفقيه بشمعة وطعام .

وسنترك الكلام بعد ذلك لابن بطوطة ليحدثنا حديث الملم بأحوال مالى غاية الإلمام (١) ، وسيبدأ حديثه بوصف مقابلته لمنسا سليمان .

كان السلطان منسا سليمان (منسا معناها السلطان) هو الذى يحكم مالى فى ذلك الحين ، وهو ملك بخيل لا يرجى منه كبير عطاء .

تقدمت فسلمت على منسا سليمان ، وأعلمه القاضى والخطيب وابن الفقيه بحالى ، فأجابهم بلسانهم . فقالوا لى : يقول لك السلطان اشكر الله فقلت : الحمد لله والشكر على كل حال .

ولما انصرفت بعد ذلك إلى الضيافة توجهت إلى دار القاضى . وبعث القاضى بها مع رجاله إلى دار ابن الفقيه ، فخرج ابن الفقيه من داره مسرعا حافى

---

(١) مهذب رحلة ابن بطوطة المسماة « تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » ص ٣٠٢ — ٣٠٨ .

القدمين ، فدخل على وقال : قم ، جاءك « قماش » السلطان وهديته ، فقمت وظننت أنها الخلع والأموال ، فإذا هي ثلاثة أقراص من الخبز ، وقطعة لحم بقري مقلوة بالفرتى (الدهن) وقرعة فيها لبن رائب ، فعندما رأيتها ضحكت وطال تعجبي من ضعف عقولهم وتعظيمهم للشيء الحقير .

وأقمت بعد بعث هذه الضيافة شهرين لم يصل إلى فيهما شيء من قبل السلطان ، ودخل شهر رمضان ، وكنت خلال ذلك أتردد إلى « المشور » وأسلم عليه وأقعد مع القاضي والخطيب ، فتكلمت مع دوغا الترجمان ، فقال : تكلم عنده وأنا أعبر عنك بما يجب ، فجلس في أوائل رمضان وقمت بين يديه وقلت له :

« إني سافرت في بلاد الدنيا ولقيت ملوكها ، ولي ببلادك أربعة أشهر ولم تضفني ولا أعطيتني شيئا ، فماذا أقول عنك عند السلاطين ؟ فقال : إني لم أرك ولا علمت بك . فقام القاضي وابن الفقيه فردا عليه ، وقالا : إنه قد سلم عليك وبعثت إليه الطعام ، فأمر لي عند ذلك بدار أنزل بها ، ونفقة تجرى على ، ثم أعطى القاضي والخطيب والفقهاء مالا ليلة سبع وعشرين من رمضان ، يسمونه الزكاة ، وأعطاني معهم ثلاثة وثلاثين مثقالا وثلثا ، وأحسن إلى عند سفري بمائة مثقال ذهباً .

وصف جلوس السلطان بقبته :

قال ابن بطوطة : للسلطان قبة مرتفعة بأبها بداخل داره ، يقعد فيها أكثر الأوقات ، ولها من جهة المشور « طيقان » ثلاثة من الخشب مغشاة بصفائح الفضة ، وتحتها ثلاثة منشأة بصفائح الذهب ، أو هي فضة مذهبة وعليها ستور « ملف » ، فإذا كان يوم جلوسه بالقبة رفعت الستور فعلم أن يجلس ، فإذا جلس أخرج من شباك أحد الطيقان (شرابه) حرير قد ربط فيها منديل مصرى مرقوم ، فإذا رأى الناس المنديل ضربت الأطبال

والأبواق ، ثم يخرج من باب القصر نحو ثلثمائة من العبيد فى أيدى بعضهم القسى ، وفى أيدى بعضهم الرماح الصغار والدرق ، فيقف أصحاب الرماح منهم ميمنة وميسرة . ويجلس أصحاب القسى كذلك ، ثم يؤتى بفرسين مسرجين ملجمين ، ومعهما كبشان يذكرون أنهما ينفعان من العين ، وعند جلوسه يخرج ثلاثة من عبيده مسرعين فيدعون نائبه قنجاموسى ، وتأتى الفرارية ، وهم الأمراء ويأتى الخطيب والفقهاء فيقعدون أمام السلحدارية يمنة ويسرة فى المشور . ويقف دوغا الترجمان على باب المشور وعليه الثياب الفاخرة وعلى رأسه عمامة ذات حواش لهم فى تعميمها صنعة بديعة ، وهو متقلد سيفاً غمده من الذهب ، وفى رجليه الخلف والمهاميز ، ولا يلبس أحد ذلك اليوم خفاً غيره ، ويكون فى يده رمحان صغيران أحدهما من ذهب والآخر من فضة وسنانان من الحديد .

وقال ابن بطوطة إن أهل السودان كانوا يكرهون منسا سليمان لبخله ، وكان قبله منساموسى وكان كريماً فاضلا يحب البيض ويحسن إليهم وهو الذى أعطى أبا إسحق الساحلى فى يوم واحد أربعة آلاف مثقال ، وأخبرنى بعض الثقات أنه أعطى مدرك بن فقوص ثلاثة آلاف مثقال فى يوم واحد .

نظام مملكة مالى

يزودنا القلقشندى بصورة جلية للتنظيم الإدارى فى هذه البلاد فيقول : « وكان بهذه المملكة : الوزراء والقضاة والكتاب والدواوين . وإن السلطان لا يكتب شيئاً فى الغالب بل يكل كل أمر إلى صاحب وظيفته من هؤلاء ، فيفعله ، وكتابتهم بالخط العربى على طريقة المغاربة » .

أما مقدار العساكر فقد ذكر الشيخ سعيد الدخالى :

« إن مقدار عسكره مائة ألف نفر ، منهم خيالة نحـــو عشرة آلاف فارس ، وباقيهم رجالة لا خيل لهم » .

أما الإقطاعات لأمراء هذا السلطان وجنده والإنعامات عليهم فإن من أكابرهم من يبلغ جملة ماله من الملك فى كل سنة خمسين ألف مثقال من الذهب ، وأنه يتفقدهم مع ذلك بالخيل والقماش ، وأن همته كلها فى تجميل زيهم وتمصير مدنهم .

أمدنا ابن بطوطة بمعلومات طيبـــة عن مجتمع مالى ، فقال إن من أفعالهم الحسنة قلة الظلم فهم أبعد الناس عنه ، وسلطانهم لا يسامح أحداً فى شيء منه ، ومنها شمول الأمن فى بلادهم ، فلا يخاف المسافر فيهم ولا المقيم سارقاً ولا غاصباً ، ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيض ، ولو كان القناطير المقنطرة ، وإنما يتركونه بيد ثقة من البيض حتى يأخذه مستحقه ، ومنها مواظبتهم على الصلوات وملازمتهم لها فى الجماعات وضربهم أولادهم عليها ، وإذا كان يوم الجمعة ولم يبكر الإنسان إلى المسجد لم يجد أين يصلى لكثرة الزحام ، ومن عادتهم أن يبعث كل إنسان غلامه بسجادته فيبسطها له بموقع يستحق به حتى يذهب إلى المسجد ، وسجاداتهم من سعف شجر يشبه النخل ، ولا ثمر له ومنها لباسهم الثياب البيض الحسان ليوم الجمعة ، ولو لم يكن لأحدهم إلا قميص خلق غسله ونظفه وشهد به الجمعة .

ومنها عنايتهم بحفظ القرآن العظيم ، وهم يجعلون لأولادهم القيود إذا ظهر فى حقهم التقصير فى حفظه ، فلا تفك عنهم حتى يحفظوه ، ولقد دخلت على القاضى يوم العيد وأولاده مقيدون ، فقلت ألا تسرحهم ؟ فقال لا أفعل حتى يحفظوا القرآن ، ومرت يوماً بشاب منهم حسن الصورة عليه ثياب فاخرة وفى رجليه قيد ثقيل فقلت لمن كان معي : ما فعل هذا أقتل ؟ ففهم عنى الشاب وضحك وقيل لى : إنما قيد حتى يحفظ القرآن » .

وذكر ابن بطوطة أن من مساوئ أفعالهم أن الخدم والجوارى والبنات الصغار يظهرون للناس عرايا ، ولقد رأى فى رمضان كثيراً منهن على تلك الصورة . فإن عادة الفرارية : « أن يفطروا بدار السلطان ، ويأتى كل واحد منهم بطعامه تحمله العشرون فمن فوقهن من جواريه وهن عرايا ، ومنهم جعلتهم التراب والرماد على رءوسهم تأدباً ، ومنهم من يأكلون الجيف والكلاب والحمير » .

ويظهر أن ابن بطوطة قد طابت له الأحوال فى مالى (نيانى) بدليل أنه مكث فيها ثمانية أشهر ، ثم عقد النية على مغادرتها إلى تمبكتو فى نهاية فبراير عام ١٣٥٣ . فامتطى جملا لأنه لم يكن معه مائة مثقال من الذهب يشترى بها جواداً . ولم يذكر لنا الرحالة شيئاً كثيراً عن تمبكتو سوى أنه شاهد مقبرة الساحلى الشاعر والمهندس الأندلسى ، ثم ركب قارباً صغيراً انحدر به فى النيجر ، ومر بعدة قرى صغيرة لأهل سنغاى ، ومر بمدينة جاو التى قال عنها إنها مدينة حسنة المنظر ، ولم يذكر شيئاً أكثر من ذلك وبعد ما قام مدة شهر حول جاو وتركها بصحبة قافلة من تجار غدامس فى طريقها إلى تكدا المشهورة بمناجم النحاس .

علاقة مصر بمالى

كان لمالى صلة قوية بمصر فى أيام المماليك الشراكسة ، وكان للتكاروة (نسبة إلى تكرور أى مالى) جالية كبيرة فى مصر منذ العهد الفاطمى ، وعرفت مدينة « بولاق التكرور » نسبة إلى أحد الصلحاء التكاروة هو الشيخ أبو محمد يوسف بن عبد الله التكرورى ، وكان يعاصر الخليفة العزيز الفاطمى ، فلما توفى بنى له قبة ومسجداً عرف باسم جامع التكرورى وجدد هذا المسجد ووسع على عهد المماليك البحرية عام ٧٤٣هـ / ١٣٤٢م (١) وخصص فى الأزهر رواق من أروقته للتكاروة عرف باسمهم .

(١) جدده ووسعه الأمير محسن الشهابى مقدم المماليك .

وهناك صيغ خاصة وألقاب معينة فى الدواوين المملوكية لمخاطبة ملوك التكارورة ، ورغم قوة ملك التكارورة ، ورغم أن مملكته ، كما ينعتها المعاصرون أعظم ممالك السودان ، ورغم اعتداده بنفسه وإسلامه ، فإنه لم يستطع إلا أن يقبل الأرض لسلطان المماليك نزولا على العروف السائد . ومن التكارورة من خدم الجيش المملوكى وترقى حتى وصل إلى الرتب العالية ، مثل عنبر التكرورى الذى رقاه قايتباى فى عام ٩٠١ هـ / ١٤٩٥ م إلى نائب مقدم المماليك ثم صار مقدماً فى عام ٩٠٥ هـ / ١٤٩٩ .

نهاية مالى

ولى الحكم بعد وفاة منسا سليمان ابنه قنبتا ، ومات لتسعة أشهر من ملكه ، وربما قتله منافسه ابن مغا ، وجاء بعده مارى جاطه الثانى بن منسا مغا ، بن منساموسى ، فأقام أربع عشرة سنة (١٣٥٩ — ١٣٧٣) أساء فيها السيرة ، وأتلف ما أقامه أسلافه بسرفه وتبذيره ، حتى انتهى به الحال فى الإسراف أنه كان بخزائنه حجر ذهب زنته عشرون قنطاراً من غير سبك ولا علاج بالنار ، فباعه إلى أحد التجار المترددين عليه بأبخس ثمن ، وأنفق ذلك كله فى الفسق ، ومع ذلك فإن عهده يتسم بإحياء الصداقة بين بلاده وسلطان المغرب الأقصى من ناحية ، وتعزيزه المودة بسلطان مصر من ناحية أخرى ، وكان آخر أمره أن أصابته علة النوم حتى لا يكاد يفيق ، فمرض به عامين حتى مات عام (٧٧٥ هـ — ١٣٧٣ / ٧٤ م) .

وملك بعده ابنه موسى فنكب عن طريق والده ، وأقبل على العدل وحسن السيرة ، وتغلب عليه وزيره فجره وقام بتدبير الدولة ، وكان له فيها أحسن تدبير .

وحاول خلفاء مار جاطة أن يحكموا دولتهم ويعيدوا إليها سطوتها ، ولكن كان كل ذلك عبثاً فقد استقلت جاو وسقطت أروان وولاته وتمبكتو

ومعظم الأقاليم الشمالية فى قبضة الطوارق ، أما التوكولور والولوف فهاجموا مالى بوحشية لا توصف من الجنوب الغربى ، وانتهزت الفرصة قبائل موصى من الجنوب ، فالتهمت قطعة كبيرة ضمتها إلى بلادها .

ظلت تمبكتو تحت حكم مالى المباشر إلى عام ١٤٣٣ ، وفى ذلك الحين تركها سكانها من الطوارق بزعامة عقيل اجملوال ، ميممين شطر الصحراء الطلقة . وخلفوها تحت رعاية حاكمها الصنهاجى محمد نادى الذى كان يشرف على إدارتها منذ أيام مالى ، وكان هذا الحاكم يجمع الضرائب ويحتفظ بثلثها ، أما ثلثاها فكان يبعثه إلى عقيل اجملوال .

ومات محمد نادى وخلفه ابنه عمر ، فاستمر على عادة أبيه فى علاقته بالطوارق . حتى فاجأه عقيل الذى صمم على جمع الضرائب بنفسه ، وبدأ رجاله يعبثون فى دور الأهالى ويعتدون على النساء ، الأمر الذى من أجله حقد عمر عليهم ، ومن أجله أرسل رسالة سرية إلى « سنى على » ملك سنغاى فى جاو ، فحشد جيشاً كبيراً وقاده إلى تمبكتو ، فلما اقترب منها وضح حقيقة الموت أمام عقيل وعمر أما عمر فقد حنق لما سببه بنفسه ، ورأى أنه كان داعيا لسنى على غزو البلاد فانضم إلى قوات عقيل الفارة ، ولاذ الاثنان بالهرب متجهين إلى ولاته ، وأخذا معهما حشداً من العلماء ورجال الدين الذين كانوا يعملون فى عهد سنكورة .

دخل سنى على تمبكتو فى يناير سنة ١٤٦٨ وذبح جنوده آلاف الأهالى الذين تعاونوا مع الطوارق ، وهم أعداء سنغاى الذين كانوا ينتهزون الفرص دواما للاعتداء عليهم .

وخيم ضباب كثيف فى خلال الأعوام الأخيرة فى تاريخ مالى ، ففى نهاية القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر كان حكام مالى قد تسربت

إليهم الخيبة والفشل ، أعداؤهم يحيطون بهم من كل جانب ، مما جعلهم يستنجدون بالحاميات البرتغالية التي نزلت على الشاطىء الغربي من أفريقية ولكن ذهبت نداءاتهم سدى ، فقد كانت قبضة سنغاي على بلادهم قوية ، ولم يستطع البرتغاليون التوغل في قلب السودان لأنهم كانوا مشغولين بدعم مراكزهم الجديدة على السواحل الغربية .

وفي القرن السابع عشر عاد حكام مالي ثانية إلى المكان القديم الذي نشئوا فيه منذ قرون . إلى دولتهم المتواضعة في كنجابة .

ودارت عجلة الزمن فنهضت مالي مرة أخرى عام ١٩٦٠ بين أسرة الدول الحديثة ، دولة مستقلة ومسلمة تدعم الدين الحنيف .



الفصل الثالث

سنغاى (١٤٦٤ — ١٥٩١)

السنغاى مجموعة من القبائل الزنجية ، موطنها اليوم على امتداد شاطىء النيجر الأوسط العلوى ، ابتداء من موقع بلدة بوسة فى نيجيريا اليوم إلى جنوبى مدينة جاغ عند الجزء الشمالى من ثنية النيجر . وكان موطنهم قبل ذلك فى دندى مقدمة (١) .

وقد عرف المؤرخون العرب ورحالتهم أيضاً مملكة سنغاى باسم كوكو ، وكانت هذه أشهر مدنهم قبل تأسيسهم دولتهم سنغاى الكبرى .

كوكو فى مؤلفات العرب

كانت كوكو بلدة تجارية هامة ، تقع فى شمال كانكو التى ذكرها الجغرافى الخوارزمى ، وكانت ملتقى عدة طرق للقوافل إلى المغرب ومصر وكانم .

وقد ذكر المؤلفون العرب أنه كان يقطن الشاطىء الأيمن لثنية النيجر ، قبائل من السودان المزارعين ،أما عند الشاطىء الأيسر شمالا فكانت تعيش فيه غالبية من البربر الرحل ممن اعتنقوا الإسلام ، وبعض قرى صغيرة كان يقطنها بعض السود الذين يعملون فى صيد السمك أو فى الزراعة .

ويعتبر اليعقوبى (٨٧٢ م) كوكو أهم الدول السوداء على أيامه ،

---

(١) يطلق لفظ سنغاى على المنطقة التى تقطنها قبائل سنغاى أو على الشعب نفسه .

ويقول إنها مطلق أيضاً على عاصمة الدولة . وكانت تخضع لها عدة ممالك تدين لكوكو بالولاء والسيادة . وكانت لأهميتها التجــارية أن ارتبطت بعلاقات مع التجار المسلمين، والمعروف أن أبو يزيد مخلد بن قيداد الثائر الخارجي التونسي ولد بكوكو (حوالى ٨٧٤ م) حيــنما كان يعمل بها أبوه بالتجارة .

لا نستفيد كثيراً مما ذكره البكرى (حوالى ١٠٥٠) والإدريسى (حوالى ١١٥٠) وابن خلدون (١٣٣٢ — ١٤٠٦) أما المقريزى (حوالى ١٤٢٠) فقد ذكر فى مخطوط له كلمة جوجو عندما تكلم عن قوافل حجيج سلاطين الملوك السود (١) .

وقد تكلم الحسن بن محمد الفاسى المعروف بليون الأفريقى (حوالى ١٥٢٦) كثيراً عن سنغاى وجاغ ، ولم يشر إلى كوكو .

وهكذا تكون مراجعنا الأساسية فى تاريخ سنغاى هى ما كتبه المؤرخون السودانيون وفى طليعتهم أحمد بابا عالم تمبكتو (النصف الثانى فى القرن ١٦)، وذلك فى كتابه «تكملة الديباج»(٢)، والمؤرخ عبدالرحمن السعدى (حوالى ١٦٥٥) فى كتابه المعروف « تاريخ السودان » (٣) ، والمؤرخ محمود كعت (١٥٢٠ ، ١٥٩٩) فى كتابه «تاريخ الفتاش فى أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس » (٤) وأخيراً كتاب «تذكرة النسيان

---

(١) Maeriol : DescriPtion des races des noirs et pelerinages des Sultans du Tekrur

ترجمة جودفرى ديمومبينس عن العمرى ص (١٤٣٥)

(٢ أحمد بابا : تكملة الديباج الذى نشره A. Cherbonneau بقسطنطينية بعنوان : Essai sur la litterature arabe au Souden dapres le Tekmtle ted Dibadj

(٣) عبد الرحمن السعدى — تاريخ السودان الذى نشره وترجمه O Houdas فى باريس عام ١٨٩٨ .

(٤) محمود كعت — ترجمة هوداس ودلافو ، باريس ١٩١٣ .

فى أخبار ملوك السودان ، لمؤرخ مجهول الاسم (حوالى ١٧٥٠) ، ويعتبر تكملة لكتاب السعدى (١) .

الإسلام فى سنغاى

المعروف أن زا - كوسوى (Za-Kosoi) كان أول ملوك سنغاى الذين اعتنقوا الإسلام حوالى ١٠٠٩ ، وكان أول عمل له أنه نقل عاصمة بلاده من كوكيا (وربما كوكو) إلى جاو (جاغ) لكى تتوسط مملكته ولتكون قريبة من طرق التجارة الممتدة عبر الصحراء إلى الشمال ، وفى ذلك الحين اعتنق الإسلام حكام سنغاى ،وظل الشعب وثنياً . ولا يعرف سوى القليل من تاريخ مملكة سنغاى فيما بين القرنين الحادى عشر والثالث عشر ، باستثناء أسماء ملوكها القدامى ، وقد أثبتها المؤرخ السعدى فى كتابه «تاريخ السودان»

جاء تحرير سنغاى من سيادة مالى بفضل الشقيقين «على كولن وسلمان نار» ، وهما أخان ولدا فى ليلة واحدة ،وكانت أم كل منهما شقيقتين وولدتا كذلك فى ليلة واحدة (يقول البعض إنهما توأم) ، فلما بلغا عمر الاستخدام أخذهما سلطان مالى فى طاعته للخدمة على عادة أولاد الملوك ، واعتاد على كولن أن يغيب فى بعض الأحيان ثم يعود . وبقى يزيد فى الغياب فترة حتى عرف مسالك سنغاى ، فأضمر الهروب إلى بلده ، فاستعد لذلك بالأسلحة والأزودة ، وخبأها فى مكامن متفرقة فى الطريق ، ثم فطن أخاه وأطلعه على سره . وذات يوم خرج الأخوان وتوجها إلى سنغاى ، فلما فطن سلطان مالى أرسل فى أثرهما بعض رجاله ليقتلوهما ، ولكنهم فشلوا بالرغم من تكرر القتال بين الطرفين ، وأخيراً وصلا إلى بلدهما . فكان على كولن سلطاناً على أهل سنغاى وتسمى بس (سنى) اى المحرر ، وقطع

(١) تذكرة النسيان — ترجمة هوداس ، باريس ١٩٠١

م ٤ التاريخ

صلة بلاده بسلطان مالى ، وقد كان ذلك فى حوالى عام ١٢٧٥ .

ولم تطل مدة استقلال سنغاى بعد تولى سلمان نار الملك عقب وفاة أخيه ، فقد استطاعت مالى أن تعيدها إلى سيادتها (ولو اسمياً) أى أنها كانت مملكة تابعة لمالى . ويدل على ذلك ما ذكره ابن خلدون (ج١ص٢٦٤) وما ذكره ابن بطوطة الذى كان قد مر بكوكو وأقام فيها شهراً (١٣٥٣) وقال إنها كانت تابعة لمالى . وكان العمرى أيضاً (١٣٤٢) قد ذكرها ضمن ممالك مالى التابعة لها .

وفى أيام منسا موسى الثانى (١٣٧٣ — ١٣٨٧) بدأ إشراف مالى على سنغاى يضعف ، وبخاصة فى المنطقة الشمالية لثنية النيجر حيث توجد طرق القوافل التجارية ، ولذلك أوفد موسى حملة بقيادة وزيره الشجاع « مارى جاطة » ليخضع قبائل تلك المنطقة عند كوكو ، وكذلك قبائل الطوارق بالقرب من تادمكت . ولم تطل آثار تلك الحملة ، ففى حوالى ١٤٢٠ نهض مادوجو (محمد داعو) ملك سنغاى بحملة تخريبية ضد مالى ، وأخضع قبائل الببارة ، وتمكن من تثبيت دعائم حكمه ، وتخلص من سيادة مالى ، وهكذا فعل من خلفه فى الملك ، حتى تولى حكم سنغاى ابن محمد داعو ، وهو المعروف باسم سنى على ، وكان ذلك فى عام ١٤٦٤ / ٦٥ .

سنى على (١٤٦٤ — ١٤٩٢)

يعتبر مؤسس إمبراطورية سنغاى ، وكان أول ما أقدم عليه أن استولى على تمبكتو (١٤٦٨) وطرد منها الطوارق ، وفى سبيل ذلك أحرق معظمها وقتل الآلاف من سكانها ، واستمر رجاله ينهبون المدينة وما جاورها مدة طويلة إلى أن طهر المنطقة كلها ، وأصبح سيد الأراضى التى تحيط بثنية النيجر ، ولذلك يلقبه بعض المؤرخين بإمبراطور النيجر .

وفى ١٤٧٠ ـ أخضع منطقة ثنية النيجر كلها ، ثم استولى على جنى (جنة)

وغيرها ، وباتنجا هي موطن قبائل الموشي الباسلة .

وفي ١٤٨٠ وصل جيش سني علي إلى بلاد الموشي (Mossi) بعد أن غزا شمالها ، وكانوا قد هددوا سنغاي ونهب عاصمة الموشي التي احتوت على المقر الملكي (١٤٨٢) ولكنه فشل في إخضاع الموشي نهائياً ، وظلوا شوكة في مؤخرة بلاده .

واستمر حكم سني حوالي ٢٨ سنة ، حول فيها دولته الصغيرة إلى إمبراطورية قوية ، ولولا ما اتصف به من الأخلاق الحازمة والصرامة لما حقق آماله ، وفي ١٤٩٢ توفي وخلفه ابنه أبو بكر داعو .

وكان محمد بن أبي بكر الطوري، من كبار قادة سني علي ، قد دبر مؤامرة ضد الملك ، فثار عليه وهزم جيشه وانتصر أبو بكر الطوري ، ومن حسن طالعه أن مات الملك وبذلك انتهت أسرة زا بعد أن حكمت سنغاي حوالي ١٨ قرناً .

وتلقب محمد بن أبي بكر بلقب اسكيا بعد أن تولى حكم البلاد في ١٤٩٣ .

أسكيا محمد الكبير

(١٤٩٣ - ١٥٢٨)

منشئ أسرة أسكيا الجليلة التي بلغت سنغاي في أيامها أوج الازدهار تحلى بصفات الحاكم الجليل ، وأقام جهازاً إدارياً منظماً ، وألف جيشاً مدرباً بدلاً من قوات سني علي غير النظامية ، وعني بالشئون الإسلامية .

١٤٩٥ - ١٤٩٧ : أدى أسكيا محمد فريضة الحج ، وخرج في قافلة كبيرة اتسمت بمظاهر الأبهة ، وكان بصحبته المؤرخ محمود كعت ، وقد مر بمصر وتعرف على العالم المصري جلال الدين السيوطي . وكان من أهم رجال العلم في أيامه محمد المغيلي الذي عاش في تمبكتو أهم المراكز الإسلامية في سنغاي ، وكان فيها المساجد الكثيرة ومعهد سنكوري الديني ، كما أنه شيد في جني جامع معاهد العلم فاجتذبت العلماء من المغرب والبلدان المجاورة

وأطلق عليه صديق العلم والعلماء . وفى تمبكتو ازدهرت تجارة الكتب على أيامه بالرغم من غلاء ثمنها ، وكانت لديه خزانة كتب جليلة يستعين بها أهل العلوم والآداب فى بحوثهم .

١٤٩٨ - ١٥١٥ : ويطلق على هذه الفترة : فترة التوسع ، قام فى أثنائها بعدة حملات عسكرية لتوسيع رقعة بلاده ، ونشر الإسلام بين الوثنيين الماندنجو والغولة فى الغرب ، والبربر الطوارق فى الشمال ، والموشى فى الجنوب « الإقليم الصحراوى » ، وقبائل الهوسا فى الشرق ، وأجبرهم على دفع الجزية . وقد لقى مقاومة عنيفة من قبائل الموشى . وفى الغرب خضعت له مالى وامتدت حدود سنغاى إلى حدود تكرور القديمة . وقد وصلت سيادته فى الشمال إلى تغازة ، وفى الشمال الشرقى إلى أجاديس البربرية .

خاتمة حياة أسكيا :

كانت خاتمة حياته مليئة بالمآسى، فقد ثار عليه ثلاثة من أبنائه بزعامة موسى أكبرهم ، فاستنجد أسكيا بشقيقه ، وسرعان ما قتله أبناء أسكيا . ثم ساروا إلى جاغ وأجبروا والدهم على التخلى عن العرش لابنه موسى ، ثم نفوه إلى جزيرة نائية (١٥٢٨) فى نهر النيجر ، وبعد مرور أعوام أعاده ابنه إسماعيل إلى جاغ حيث عاش بقية حياته بعد أن كف بصره وقاسى خلالها الألم واليأس ، ثم مات فى عام ١٥٤٢ تاركا دولة فسيحة .

خلفاء أسكيا الكبير :

اسكيا موسى (١٥٢٨ - ١٥٣١) اغتيل .
اسكيا محمد بنكن (١٥٣١ - ١٥٣٧) عزله اخوته .
اسكيا إسماعيل (١٥٣٧ - ١٥٣٩) اشتهر بشجاعته .

اسكيا إسحق (١٥٤٣ — ١٥٤٩) :

كان من أجل ملوك سنغاى ؛ وفى أيامه بدأت الغيوم تتلبد فى سماء العلاقات بين المغرب وسنغاى ، وقدم إليه سلطان المغرب عدة طلبات فرضها .

اسكيا داود (١٥٤٩ — ١٥٨٢) :

تولى بعد وفاة أخيه إسحق ، فواصل حملاته ضد قبائل الموشى والفولة فى ماسينا ، وكانت مالى قد خرجت عن طاعته ، فأرسل إليها حملة تغلبت عليها . أخذت العلاقات تسوء من جديد بين المغرب وسنغاى ، ومع ذلك كان يبدو فى الظاهر أن كل شىء على مايرام ، ثم توفى .

اسكيا الحاج محمد الثانى (١٥٨٢ — ١٥٨٦) :

فى أوائل توليه الحكم أرسل السلطان أحمد المنصور سلطان المغرب رسوله يحمل إليه الهدايا ويهنئه بالسلطنة ، وتبادل الملكان الهدايا . وفى الواقع لم يكن غرض هذا الرسول ومن معه من أعضاء السفارة سوى الوقوف على أحوال سنغاى وقوتها ، وكان المنصور قد دبر خطة لغزو السودان (سنغاى) وأعد ترتيبات الحملة العسكرية بكل دقة . وقد حدثت مناوشات عنيفة بين البلدين طالب المنصور فى خلالها أن يستولى على مناجم الملح فى تغازة وبنصيب كبير من الذهب .

تحالف الإخوة ضد شقيقهم فخلعوه وولوا مكانه محمد بن اسكيا داود .

اسكيا محمد بانى (١٥٨٦ — ١٥٨٨) : حكم حوالى ثلاث سنوات .

سنغاى والمغرب

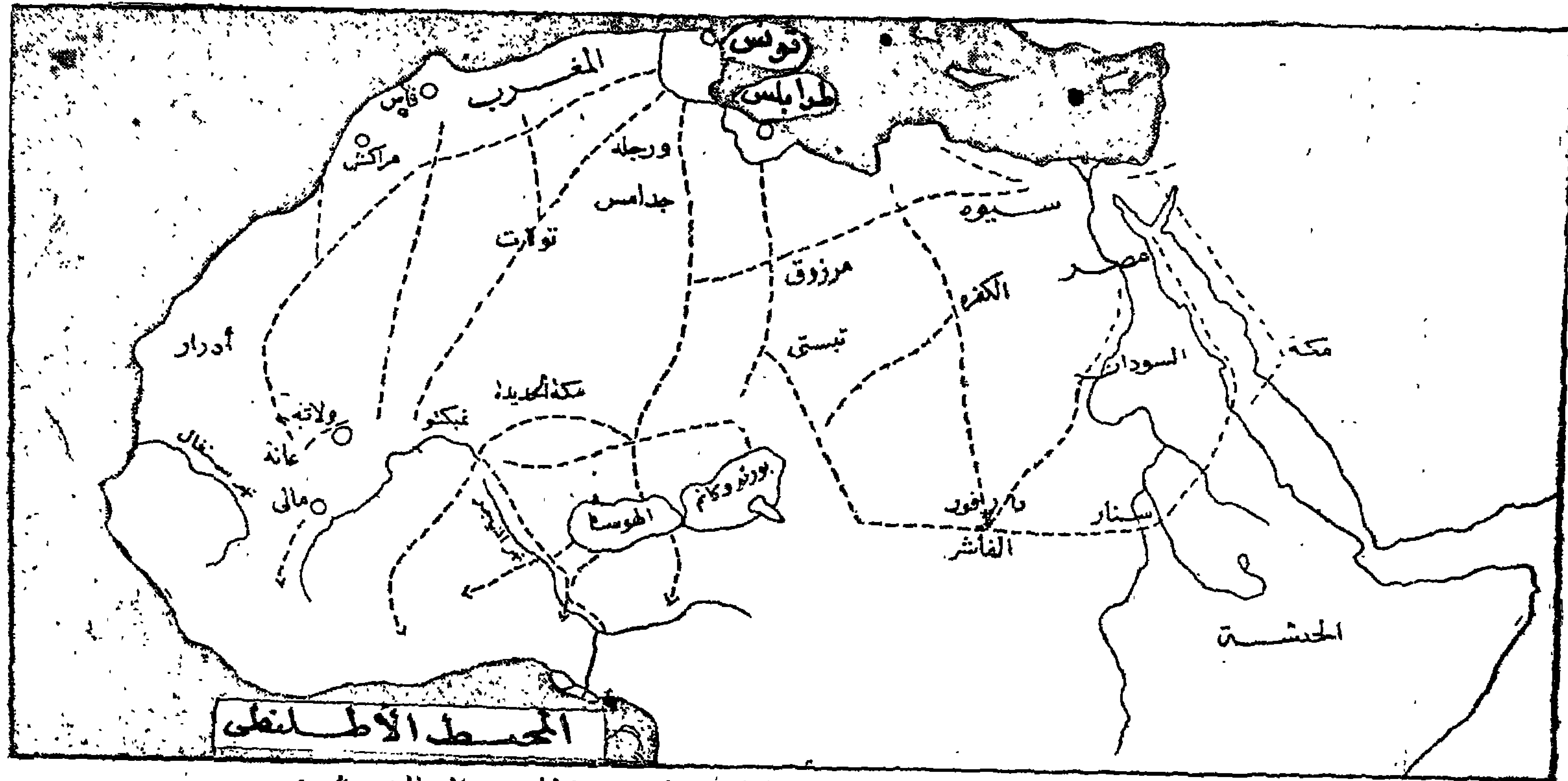
اسكيا اسحق الثانى (١٥٨٨ — ١٥٩١) :

اشتد الجفاء فى أيامه بين بلاده والمغرب ووجه أحمد المنصور الذهبى حملة عسكرية كبيرة لفتح سنغاى وللاستيلاء على موارد الذهب فى ونقارة . . وفيما يلى نورد موجزاً الأحداث :

١٦ أكتوبر ١٥٩٠ : سارت الحملة المغربية بقيادة جودر ، وكانت تضم خيرة المقاتلين فى المغرب من حملة الأسلحة النارية والفرسان ، وكانت تشتمل على بعض قطع المدفعية . وبالرغم من خسائر الحملة فى الطريق فقد وصلت إلى بمبــا فى منتصف الطريق بين تنبكتو وجاغ ، وكان زعماء سنغاى يظنون أن الحملة ستتبع طريق الغرب ولكن فوجئوا بوصول الحملة المغربيـــة من طريق شمالى عبر قلب الصحراء الكبرى ، ولذلك فوجئت سنغاى ، ولم تستطع حشد جيوشها إلا فى آخر وقت ، ووزعتها فى أماكن غير مناسبة للدفاع عن البلاد ، وكان الجند مسلحين بالرماح والسيوف والسهام أمام بنادق المغاربة ومدافعهم ، التى كانت تحصدهم حصداً وتجعلهم يفرون فى غير نظام .

معركة شنديبى بالقرب من جاغ (أبريل ١٥٩١) :

قبل أن تبدأ المعركة الحاسمة ألقى سكيا بين صفوف المقاومة مئات الماشية والغنم لنشر الفوضى بينهم ، ولكن سرعان مافتح الجنود صفوفهم ومرت القطعان بأمان ، وبدأت المعركة الدموية بين صفوف المقاتلين ، وبعد قليل بدأت قوات سنغاى فى الفرار مسرعين إلى ركوب النهر ، ولم يستطع المغاربة مطاردتهم لأنهم كانوا يملكون القوارب التى تسهل لهم مطاردة أعدائهم ، واكتفوا باحتلال جاغ حيث لقوا الترحيب من التجار وبعض المعلمين ، وكانت غالبية هؤلاء من المغاربة ، ثم ذاب هذا



سبل الاتصال بين شمالى إفريقية ودول غربي إفريقية فيما بين القرنين الخامس والثالث عشر

الترحاب حينما شاهد المغاربة أن المدينة التى استولوا عليها لا تستحق هـذا العناء المرير والكوارث التى لحقت بهم فى اثناء الطريق .

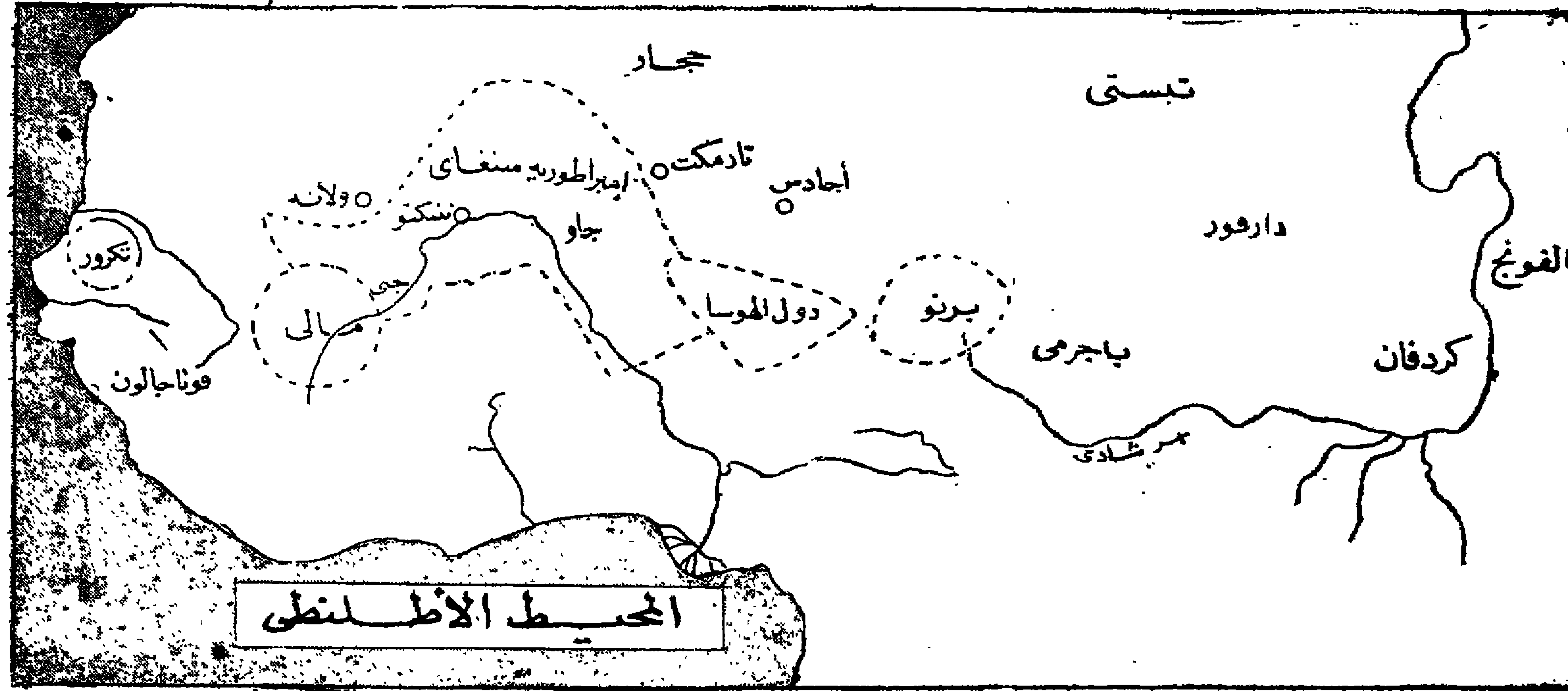
ذابت مقاومـــة سنغاى العسكرية ، وفتح باب المفاوضات ، وعرض الصلح على ملك سنغاى . وكان الجانبان يتوقان لإنهاء الحرب ، ولكن كان على القائد جودر ان يتصل بالمغرب للاستئذان فى الموافقة على الخطوات التى ينبغى عليه ان يتخـذها وفى خـــلال تلك الفترة قصد جودر مدينـة تنبكتو ، وكان أهلها قد فروا إلى الصحراء وبقى بعضهم بزعامة القاضى ابو حفص عمر .

لم يوافق المنصور على شروط الصلح التى قدمها أسكيا فرفضها وأنب جودر لأنه لم يترك حامية قوية فى جاغ ولم يأخـــذ رهائن ، ثم أمر بأن يتسلم محمود بن زرقون قيادة الجيش المغربى ، وان يقصر جودر أعماله على الواجبات الإدارية (حاكم إدارى) وشرع القائد الجديد فى بناء السفن النهرية ، وكانت المنطقة الجنوبية من سنغاى قد سادتها الفوضى .

استأنف محمود العمليات الحربية ، وبدأ رجاله يتصيدون رجال سنغاى ثم حلت الهزيمة بجيش سنغاى فانقلب الشعب على إمبراطوره ، وحاول بعض قادته ان يقتلوه ، ولكنه أفلت منهم بأعجوبة ، وحاول مع أتباعه الوصول إلى كبو بالقرب من تشاد ، ولكن الظروف أجبرته ان يضع نفسه تحت رحمة بعض القبائل ، لكنهم لم يرحموه فى محنته القاسية ، وذبحوه مع ابنه وبعض رجاله ، فخلفه رئيس ديوانه محمد جاغ .

محمد جاغ (١٥٩١ — ١٥٩٢) :

نصب نفسه إمبراطوراً ، ولكن بعض الزعماء لم يرضوا به وانضموا مع رجالهم إلى المغاربة ، فلم يكن منه إلا ان اتصل بابن زرقون وعرض عليه ان يمد جنوده بالطعام علامة على صدق نواياه ، فطلب إليه القائد



الدول السودانية في غرب إفريقية في القرن السادس عشر

أن يتقدم بالولاء إلى معسكره فرضى بذلك وتقدم مع رجاله ، ثم دعاهم إلى تناول الطعام فقبض عليهم وجردهم من سلاحهم ، ولما أدرك ذلك من كان وراء المعسكر هربوا ، وفى الحال نصب ابن زرقون حاكما واتخذ لقب اسكيا ليحكم تنبكتو نائباً عن أحمد المنصور ، ولكن رفض أهل سنغاى فى الجنوب هـذا الحل (ولم تكن المنطقة الجنوبية قد أخضعت للمغاربة) واختاروا منهم ملكا ونصبوه عليهم ، ولذلك كان هناك ملكان : أحدهما فى الشمال بزعامة الحكومة العسكرية المغربية ، وثانيهما فى الجنوب لا يعترف بسيادة المغاربة ، وكان ملك الجنوب هو الزعيم نوح الذى أصبح بعد اختياره ملكا على بلاده ، وقد استطاع أن يشن حرباً متقطعة ضد ابن زرقون فأضعف قواته .

اسكيا نوح (١٥٩٢) :

فى تلك الظروف الحالكة التى مرت بسنغاى، بث نوح روح الوطنية والمقاومة فى صدور أبناء البلاد ، وألف جيشاً سادته الحماسة لاستعادة الوطن ، ولجأ إلى حرب العصابات مستفيداً بميزات بلاده واستطاع خلال أربعة أعوام أن يكبد الأعداء الأقوياء المسلحين خسائر فادحة . وفى ذات مرة تشابك الطرفان فى دندى ، وكسب نوح نصراً معنوياً ، وأخطأ ابن زرقون فقـد تبعه ، فلحقت به الخسائر الجسيمة ، واستمر الحال هكذا حوالى عامين قاسى فى أثنائهما جيش المغرب كثيراً ، وكانت الإمدادات لا تصله بسهولة . وأدرك أخيراً أنه أصبح فى نفس الموقف الذى مر بالقائد جودر، ومع ذلك تمكنت أخيراً بعض الإمدادات من الوصول إليه، فقرر أن يسحب قواته بانتظام (١٥٩٣) إلى الشاطىء المقابل للنيجر (الأيسر) ، ويقصد تنبكتو بعد أن يترك حامية فى جاغ .

واستمر وصول الإمداد من المغرب ، وكان المنصور يستبدل القواد

ولما وصل هذا إلى تنبكتو أسرع بقيادة حملة إلى منطقة أمبوري الجبلية التي اشتهرت بيأس رجالها والتقى باسكيا نوح ، فغلبه المنصور وهرب مع جيشه وقيل أنه مات (١٥٩٥) وبموته انتهت المقاومة الوطنية في سنغاي بعد حرب دامت أربع سنوات .

وفي عام ١٥٩٨ أمر السلطان القائدجودر رجاله بالعودة إليه ، فكتب إليه أن يبعث من يقوم بإدارة البلاد ، فبعث القائد المصطفى الفيل ، وفي عام ١٥٩٩ عاد جودر إلى المغرب .

* * *

ثار شعب مالي ولكن تمكن القائد عمار من كبح الثورة . . وفي أعقاب ذلك كانت البلاد في حالة غليان مستمرة ، فثارت الطوارق والفولة وقبائل سنغاي ، ثار هؤلاء ضد قوات المغرب المحتلة ، وحل الانقسام والشقاق بين قادة وحكام الجيش ، ثم ثار أحد الضباط وطرد القائدالعسكري محمود .

وفي عام ١٦١٢ اشتبكت قوات المغرب وسنغاي فيما بين دوري وأمبوري ، وتجنب الجيشان المعركة ، وأشيع أن قائد سنغاي قد ارتشى فأمر اسكيا أن تفحص جيداً ملابس هذا القادة ، فعثر الباحثون على قدر من الذهب أخفاها القائد الخائن ، فحكم عليه بالموت ثم استؤنف القتال .

وأخيراً ضعفت الإدارة المغربية إلى حد أن القادة الباشوات اضطروا إلى دفع الجزية للملوك سيجو الوثنيين ، ثم استقلت حامية جاغ وجني وغيرهما ولم يبق للباشوات إلا تنبكتو .

ولما ساءت الحال ، قرر مولاي زيدان أن يتخلى نهائياً عن سنغاي (١٦١٨) ، وأن يدفن حلم والده المنصور الذي ذهب ضحيته ٢٣٠٠٠ نفس من خيار جيش المغرب ، لم يرجع منهم سوى قرابة خمسمائة جندي . . فقد ماتوا جميعاً في السودان (الغربي) .

بين حين وآخر ،ومع ذلك لم يستطع هؤلاء أن يفعلوا شيئاً . لقد سيطروا على المدن ولكنهم لم يسيطروا على غالبية المناطق ، وعمت الفوضى فى كل مكان ، واستمر الطوارق يغزون المراكز الصحراوية بالقرب من النيجر ويخربونها بعد نهبها ، فقضى على الأمن والهدوء ، ولم يكن الجند المغاربة أقل من الطوارق فى العبث والفساد .

ولذلك اتفق علماء وأعيان تنبكتو على إرسال وفد يمثلهم بصحبة أفراد أسرهم ومعهم ممتلكاتهم الخفيفة فساروا عبر الصحراء القاسية حتى وصلوا إلى مراكش بعد ما أصابهم من الإعياء والأمراض فى أثناء حبسهم فى السجون ، وكان بينهم السيد ابو العباس أحمد بابا فقيه تنبكتو وعالمها الكبير ، وفى أثناء الطريق سقط عن الجمل الذى كان يركبه فانكسرت رجله . فلما وصل دخل على المنصور فى قصره ، ووجده قد اتخذ حجاباً بينه وبين الناس وهو من وراء الستار يتكلم ، فقال الشيخ أحمد بابا :

قال الله تعالى : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب وأنت تشبهت برب الأرباب ، وإن كانت لك حاجة فى الكلام معنا فانزل إلينا وارفع الحجاب عنا ، فنزل السلطان ، فقال له الشيخ : « أى حاجة لك فى نهب متاعى وتصفيدى من تنبكتو إلى هنا ، حتى سقطت من على ظهر الجمل وانكسرت رجلى فقال له السلطان : « أردنا كى تجتمع الكلمة » فقال له الشيخ : « هلا جمعتها بتملك الترك تلسان . « وكانت قد سقطت فى يد الترك » .

وعلى أية حال فقد أساء حكام المغرب إلى سنغاى وأذلوا كبارها وصغارها ، مما جعل ضباط ابن زرقون (١) يشمئزون من ذلك الحال ، وتبرم كثير منهم ، ولذلك قرر السلطان أن يبدل زرقون بالقائد منصور ،

(١) استشهد فى إحدى المعارك قبل وصول خلفه القائد منصور .

تفككت أوصال سنغاى ، وآل الحكم إلى رجال القبائل ، وتفشت الدسائس ، وعم الظلم البلاد ، وانتشرت المجاعة بصورة مروعة ، وفتك الموت بالأهالى إثر مجاعة فى عام ١٧١٦ دامت خمس سنوات .

* * *

رأينا الغزو المغربى يقضى على إمبراطورية سنغاى الإسلامية وأمنها ، ولم يستطع المغاربة بالرغم من الإدارة الصارمة أن يمدوا نفوذهم إلى ماوراء المدن الرئيسية ، تنبكتو وجاغ وجنى . ولم يضعوا أيديهم على ثروة سنغاى .. لاشىء من هذا ، فقد خسروا عدة آلاف من خيرة بنيهم ، وفقدوا عنادهم الحربى ، وتركوا مرارة وحسرة فى صدور أهل السودان ، مما كان له أسوأ الأثر خلال الأعوام التالية .. وهكذا أسدل الستار على أقسى ما تعرض له السودان من الغزو الذى جاء من الشمال .. ثم استعد لغزو أجنبى آخر ، قدم هذه المرة من سواحل المحيط الأطلسى ومن الجنوب .. هو الغزو الأوربى .



الفصل الرابع

كانم (٨٠٠ — ١٤٣٢)

تسرد الأساطير أحداث التاريخ القديم لكانو ، وتتحدث بعضها عن قدوم هجرات متعاقبة أتت من الشرق والشمال الشرقى ، متبعة الطرق القديمة المؤدية من وادى النيل ، وربما جاء بعضها هاربين فى أعقاب الحروب وأحداث الدمار التى تلت سقوط دولة كوش فى سودان وادى النيل وغزوات أكسوم (الحبشة) وفتوح العرب . عرف هؤلاء الأقوام بشعب ساو ، وقد عاش فى الإقليم المحيط ببحيرة شاد فى شرقها وغربها ، فشيدوا عدة مدن ، وأجادوا صناعة الفخاريات وأتقنوا عمل التماثيل البرونزية ، وقد أثبت علماء الآثار أنه كان لهذا الشعب حضارة قديمة ، وهناك من قال بانتساب هذا الشعب إلى الهكسوس الذين غزوا مصر ، وهناك من يقول بأنهم من مهاجرى مملكة مرو القديمة التى نشأت فى السودان .

وعلى أى حال فإننا نلاحظ وجود ثغرة كبيرة بين العصر الذى استقر فيه شعب الساو والعصر الذى نهضت فيه كانم الوثنية حينما تألف شعب منسجم مستقر أتيح له أن يشيد حكومة ودولة فى القرن الثامن الميلادى ولم يكن فى هذه البلاد التبر الذى كان من أهم ثروة غانا ومالى ، ولذلك لم يكن شعب كانم هدفا لغزوات أهل الصحراء أو المغاربة ، فانفرد بالسيادة

على طرق القوافل المارة بفزان فى شرق الصحراء الكبرى وبين البحر المتوسط وتشاد وكذلك بوادى النيل . .

كانم الإسلامية

وفى الفترة الواقعة بين عامى ٨٠٠ و ١٢٥٠ م هاجر قوم عرفوا باسم « الزغاوة » ، وهم شعب جمع بين الخصائص الزنجية والحامية وانتشروا فى بقعة رحبة امتدت من دار فور (غربى سودان وادى النيل) حتى بحيرة شاد ، وهى المنطقة التى عرفت باسم كانم منذ القرن التاسع ، وقد أشار إلى الزغاوة أهل كانم المؤرخ العربى اليعقوبى الذى كتب تاريخه حوالى عام ٨٩٠ (١) وقال إنهم يعيشون فى أكواخ من القصب (الغاب) ولم تكن لهم مدن , ويطلق على ملكهم « كاكازا » .

ونقابل الإشارة العربية الثانية إلى الزغاوة فى كتاب أبى عبيدالله البكرى المعروف باسم وصف أفريقية (٢) ، وهو يقول عنهم : وعلى بعد رحلة أربعين يوماً فى ترويلة (فزان) بالصحراء الكبرى تقع بلاد كانم وشعبها من الزنوج الذين يعبدون الأوثان ومن الصعب أن تزور بلادهم ... ويقال إن فى بلادهم بعض سلالة الأيوبيين الذين لجئوا إلى كانم فى أعقاب اضطهاد العباسيين . هؤلاء ما زالوا يحتفظون بأنماط أزيائهم وعاداتهم العربية .

وقد أشار إلى بلادهم الرحالة ابن بطوطة وابن خلدون (تاريخ البربر القرن الخامس عشر) وكان الإسلام قد ساد كانم كلها .

وفى بداية القرن الثانى عشر تعرض الزغاوة لهجرة من الطوارق

---

(١) أحمد بن واضح اليعقوبى — التاريخ نشره المستشرق هو تسما بليدن ، ص ٢١٩ .

(٢) البكرى جغرافى عربى عاش فى القرن الحادى عشر الميلادى (١٠٤٠ — ١٠٩٤) قرطبة ، وقد ترجم كتابه المستشرق دوسلين (باريس عام ١٨٩٠) ، أنظر ص ٨ — ٣٠ من هذه الترجمة ، واسم الكتاب الأصلى « المسالك والممالك » .

(الملثمون) ومثلها من التبو (سكان هضبة تبستى) والتيدا ، ولم تكن هجرة شاملة بل كانت على هيئة أرستقراطية حاكمة استطاعت أن تخضع شعب الزغاوة لسلطانها ، وكان الزغاوة قد دخلوا فى الإسلام حوالى النصف الأول من القرن الحادى عشر (١) ثم أنجبت هذه الأرستقراطية أول أسرة مالكة سيطرت على المنطقة الواقعة شرقى بحيرة شاد وأسست سلطنة كانم ، وأطلقت الأسرة الزغاوية على نفسها اسم بنى سيف (السيفية) (٢) .

وقد اتسم حكم كانم فى أيام السيفية بالإقطاع القبلى ، وكان فيها مجلس للشورى يتألف من اثنى عشر شخصاً يشرفون على تنفيذ أوامر الامبراطور ، وكان هؤلاء جميعاً ينتمون إلى الأسرة الحاكمة ويعملون فى مجلس الشورى مدى الحياة ، ولما اتسعت أطراف إمبراطورية كانم ونمت مصادر ثروتها اشتد الخصام بين هؤلاء ، وتحول إلى معارك حامية ، فانصرفوا إلى القتال من أجل المحافظة على حقوقهم بالرغم عن أن تلك الحقوق كانت هبة من الإمبراطور .

كان السيفية رعاة من البدو الرحل غزوا وامتصوا بعض قبائل التبو فى الشمال والبربر والكانمبو (شعب كانم) ثم أسسوا كما قلنا دولتهم فى كانم وجعلوا قاعدتها فى نجمى .

إن ما وصلنا من المعلومات عن الملوك الأول من السيفية مجرد أساطير ، والمعروف أن الفرع الرئيسى من أسرة سيف الأولى انقرض بموت من يسمى « سلمعة » (٣) ثم انتقل إلى فرع آخر من الأسرة نفسها استمر

( ) جاء فى بعض المراجع العربية الأخرى أن الاسلام دخل بلاد كانم عام ٥٠٠ هـ ١١١٦ - ١١١٧ م .

(٢) حسن محمود : الاسلام والثقافة العربية فى أفريقية ص ٢٣١ ، أنظر أيضاً :
Urvoy. Y. Histoire de l. Empire du Bornu. Paris 1949

(٣) غزا سيلمة هذا منطقة فزان حوالى ١١٩٤ - ١٢٢١ .

الحكم فى قبضته حوالى ألف عام . وكان السلطان منذ أيام الوثنية يلقب ماى .

* * *

تتفق كلمة غالبية المؤرخين وفى مقدمتهم أورفوى على أن أول حكام كانم الذين اعتنقوا الإسلام هو ماى هوميه المعروف أيضاً باسم هوميه جيلمه الذى حكم البلاد فيما بين ١٠٨٥ — ١٠٩٧ (١) وبعد أن اعتنق أهل كانم الإسلام فى ذلك القرن (الحادى عشر) اكتسبت دولتهم أهمية كبرى وبسطت سلطانها على بعض قبائل السودان الشرقى إلى حدود مصر الجنوبيه الغربية والنوبة . وقد ذكر البكرى الذى عاش فى القرن الحادى عشر أن كانم فى زمنه امتدت حتى نهر النيجر غرباً ، وأنها كانت تضم بقعة من بلاد الهوسا (شمال غربى نيجيريا) واستطاع أهلها أن يضموا أو يخضعوا جزءاً كبيراً من الصحراء فى نهاية القرن الثانى عشر .

وتولى الحكم بعد هوميه جيلمه ابنه دونمة دبلمة (١٠٩٨ — ١١٥٠) وكان أول من حج من ملوك كانم ، حج مرتين وفى المرة الثالثة غرق بالقرب من المياه المصرية « السويس » . وكان دونمة طموحاً جداً دفع حدود بلاده الشرقية إلى شواطىء النيل الوسطى ، وكان له الإشراف المطلق على مسالك التجارة إلى الشمال حتى فزان . وفى أيامه تأزمت روابط الأسرة الحاكمة ، وبدأ التفكك ، فشبت حرب أهلية أشعلها أبناؤه ، فانسحب كل منهم إلى إقليمه ، وبالرغم من ذلك انتصر دونمة دبلمة عليهم . وخلفه ابنه برى الأول (١١٥٠ — ١١٧٦) وكان ضعيفاً أودعته أمه السجن ، وتولى بعده ، بكورو (١١٧٦ — ١١٩٣) ويعرف أحياناً باسم عبدالله بن بكورو. وجاء بعده السلطان عبد الجليل (١١٩٣ — ١٢١٠) الذى لقب بسلمة

(١) دائرة المعارف الاسلامية ــ مادة برنو .

م ٥ - التاريخ

« مسلمة أحياناً » لشدة سواده ، فأخضع القبائل المجاورة بعد أن دعم قواعد دولته على أسس قوية . وبعد وفاته حكم البلاد عدد كبير من السلاطين ، وكان الضعف قد تطرق إلى البلاد قبل نهاية القرن ١٤ ، ولا سيما بعد أن تعددت هجمات قبائل البولا لا عليها . وكان من نتائج ضعف كانم تغلب أهل فزان عليها . ويعتبر إدريس بن إبراهيم الذى حكم حوالى ٢٥ سنة من أقوى سلاطين كانم . تغلب على شعب ساو ، وقاتل البولالا دون أن يحرز نتيجة ، والسلطان عثمان بن إدريس الذى مات فى عاصمته نيجى وهو يقاتل البولالا . وفى عهده توثقت العلاقات بين كانم (وبرنو) ومصر أيام المماليك . ويشهد على ذلك رسالة تبودلت بين السلطان عام ١٣٩١ والسلطان برقوق (١) .

استمر البولالا سنين طويلة يضايقون ويعتدون على كانم حتى اضطر سيف إلى الالتجاء إلى الأراضى التى تعمها المستنقعات فى إقليم السو ، واستمروا يغيرون مقر حكمهم أمام مطاردات أعدائهم . وانقسمت الدولة إلى عدة دويلات صغيرة تتابع على حكم كل منها حكام ضعاف ، ولكن حدثت صحوة مؤقتة على أيام السلطان على جاجى « غازى » الذى تولى حكم البلاد فيما بين ١٤٧٢ و ١٥٠٤ ، فشيد عاصمة جديدة أسماها « برنى نجازا وجامو و » غربى بحيرة شاد واستطاع ابنه ماى إدريس أن يهزم البولالا ويستعيد عاصمة كانم الأولى « نيجمى » .

ولكن انتهت فترة الصحوة القصيرة ، ففى القرن الخامس عشر نهضت دويلات للهوسا وبدأ مركز الثقل يحول إليها ولا سيما فى برنو .

ويمكن القول بأن كانم قد أفل نجمها فى القرن السادس عشر ومنذ ذلك الحين أصبحت جزءاً من برنو ، وليس برنو جزءاً من كانم ،

---

(١) المرجع السابق ص ٢٢٦ — ٢٢٧ .

وفى الوقت نفسه بدأ نجم برنو يسطع فى وسط أفريقيا حتى وصلت إلى مكانة إمبراطورية زاهرة .

وقد ذكر القلقشندى (١) أن الكانميين اتبعوا مذهب ابن مالك ، وشيدوا مدرسة للمالكية اتخذوها مركزاً للثقافة الإسلامية ، وكانوا يرسلون أبناءهم إلى الأزهر للتفقه فى شئون الدين . وقد برع أهل كانم فى التجارة ، وكانت لهم مراكز تجارية فى مصر والسودان وثغور البحر الأحمر .

---

(١) صبح الأعشى جـ ٥ ص ٢٨٠ - ٢٨١

الفصل الخامس

بجرمى وواداى حتى القرن التاسع عشر

يعتبر بجرمى أحد بلاد السودان الوسطى ، ويقع فى شرقى بحيرة شاد ، وبجرمى بلاد خصبة ويطرأ عليها الجفاف أحياناً ، ويزرع فيها الدخان والفول وينبت الأرز فى المستنقعات ويندر فيها القمح . وتكثر فيها المراعى الصالحة لتربية الماشية ، وينمو فى بجرمى تمر الهند واللوز والقطن والنيلة ، وفيها يعيش الفيل والزرافة والفهد وفرس البحر ، وتتكاثر على ضفاف الأنهار أو فى جوارها .

ويتألف أهالى بجرمى من العناصر الآتية :

١ ـ الباجرميون ، وقد نشئوا من اختلاط السكان الأصليين بالفاتحين.

٢ ـ الكانورى ، ويعيشون فى مختلف بقاع البلاد .

٣ ـ العرب . ويعيشون فى القرى .

٤ ـ الفولة ، وغالبيتهم رعاة .

٥ ـ القبائل السوداء ، ومعظمهم وثنيون .

نشأت بجرمى فى القرن السادس عشر على يد المغامرين الذين أتو من الشرق ، وهزم هؤلاء القادمون شعب البلالة ثم اندمجوا فيهم ، وتمكنوا بواسطتهم من بسط سلطانهم على قبائل الفولة وعلى جماعات العرب ، وفرض الفاتحون الجزية على هؤلاء جميعاً ثم اعتنقوا دينهم [1] . وتقول الروايات الوطنية : إن زعيم الفاتحين « دوكنج » أو

---

(١) لم يخضع أهل بجرمى لسكانهم أو شعب البلالة ولسكنهم كانوا يدفعون إليهم الجزية أحياناً .

والسلطان « برنى بسى » هو الذى أسس مدينة ماسينيا حوالى عام ١٥١٣ . وكان « برنى بسى » أول سلطان لبجرمى ، حكم ما بين ١٥٢٢ ، و ١٥٣٦ ، ولقب أحد خلفائه مالو (١٥٤٨ — ١٥٦٨) نفسه بلقب سبانج وخلف مالو ابنه عبد الله (١٥٦٨ — ١٦٠٨) ، وهو الذى أدخل الإسلام إلى البلاد ، ومع ذلك ظل الشعب على الوثنية ، وعلى أيامه امتد نفوذ حكومته إلى البلاد المجاورة ،

ومن خلفائه برجمنده (١٧٢٤) ، وكان محارباً عظيما قاد حملة ضد البوركو (واداى) والكاوار ، كما أنه هزم بعض القبائل المجاورة التى كانت تهدد البلاد . ثم خلفه علوى (١٧٣٩ — ١٧٤١) ، وقد هزمه إمبراطور برنو ، وأصبحت بجرمى تحت سيادته الاسمية . ومع ذلك فقد تمكن السلطان محمد الأمين (١٧٥١ — ١٧٨٥) من خلع تلك السيادة ، فاستعادت بجرمى نفوذها الماضى . وحج الأمين ، وفى أيامه تغلغل الإسلام فى البلاد .

وفى أيام السلطان عبد الرحمن جوارنج الأول (١٧٨٥ — ١٨٠٦) تجدد النضال بين بجرمى وسلطان واداى ، واسمه سابون ، فخربت البلاد ، وتمكن قائد جيش السلطان عبد الرحمن من قتل مولاه ، ودب الخلاف عقب موته بين أولاده ، واضطربت الفتن فى البلاد مما دعا إلى تدخل واداى فى شئون بجرمى ، ثم اعتلى عثمان بن برجمنده (١٨٠٧ — ١٨٤٤) أكبر أبناء عبد الرحمن العرش آخر الأمر ، غير أنه اضطر إلى أن يدين بالولاء لسلطان واداى ، وأن يدفع له الجزية ، وأصبحت بجرمى على أيامه ميدان تنافس شديد بين واداى فى الشرق وبرنو فى الغرب ، فازداد خراب البلاد ومما زاد الطين بلة تلك الغارات المتتالية التى كان يشنها عليها قناصو الرقيق من فزان . وبالرغم من تلك المصائب المتلاحقة استطاع عثمان أن يثبت أمام تلك العواصف العدائية ، وكان حاكما مقتدراً لا يرعى قانونا أو عرفا ، يسلب أصدقاءه وأعداءه على السواء .

وتولى ابنه عبد القادر (١٨٤٦ — ١٨٥٨) حكم بجرمى، وقد حاول العيش بسلام مع جيرانه، وقصر همه على شن الغارات على القبائل الوثنية وفى أيامه ظهر داعية دينى اسمه إبراهيم شرف الدين، مالبث أن التف حوله كثير من أهل البلاد، فلما خشى عبد القادر العواقب خرج على رأس جنده لقتال الداعية، ولكن الجند لم يستجيبوا لأوامر السلطان، ورفضوا إطلاق النيران عليه، وقتل عبد القادر فى تلك المناوشة.

وعاد أهل واداى إلى غزو بجرمى ثانية (١٨٦٠ — ١٨٧٧) فى عهد السلطان أبى سكين، وفتحوا ماسينيا، وطردوا السلطان وأقاموا مكانه واحداً من أبناء عمومته، وتمكن أبو سكين من استعادة عرشه عام ١٨٨٢، وظل يحكم حتى وفاته عام ١٨٩٤. وفى أيامه ساءت أحوال البلاد وأقفرت أرضها من الزراعة. وتولى بعده «جورانج» (الثانى) الذى وقف ليصد غارات عدو جديد اسمه رباح، الذى كان قد وطد سلطانه فى برنو وأصبح قادراً على تهديد سلامة بجرمى، بل تمكن أن يطاوعها ويغلبها على أمرها (١٨٩٢ — ١٨٩٧)، فلم يكن أمام جورانج إلى أن يقبل الاعتراف بالحماية الفرنسية، وأثار هذا الاتفاق حنق رباح فهاجم جورانج، ولما لم يستطع هذا رد الهجوم عمد إلى ماسينية وأشعل فيها النار، وهزم الحاكم برتونيه الذى أرسل لنجدته، ولكن قوات القائد الفرنسى لامى تمكنت من هزيمة رباح وقتله عند «كسورى» فى ٢٢ أبريل ١٩٠٠ ثم أعيد الأمن إلى بجرمى، ومنذ ذلك الحين دخلت فى نطاق إقليم شاد الحربى. وبجرمى اليوم تضمها جمهورية شاد التى يقدر عدد سكانها بحوالى ٢٦٠٠٠٠٠، وعاصمتها فورت لامى. وقد نالت استقلالها منذ ١٩٥٨، أما منطقة بجرمى فلا يزيد عدد سكانها على ٧٦ ألف نسمة.

ماسينية:

كانت ماسينية حاضرة بجرمى أهم مدينـــة فى البلاد إلى منتصف القرن

التاسع عشر ، وقد شيدت شمال بحر أرجج ، وأحيطت بأســوار محيطها سبعة أميال ، وكانت دورها من الطين فيما عد اقصر السلطان ومسجداً بنى من الحجر . وخرب أهل واداى جزءاً منها عام ١٨٧٠ ، وهجرها أهلها بعد غزوة رباح ؛ وهى الآن تلى بوقومان فى الأهمية ؛ وتقع على الضفة اليسرى لنهر شارى ، ويقيم السلطان فيها .

الإسلام فى واداى

واداى اليوم إحدى مناطق جمهورية شاد المستقلة ، وهى تقع فى غربى دارفور بالسودان وشرقى بحيرة شاد . وعاصمة واداى أبشر ، وقد احتل الفرنسيون بعض أجزاء واداى عام ١٨٩٩ ، ثم أعلنوا الحمــاية عليها وأخضعوها لنفوذهم . وواداى من الناحية التاريخية تتصل اتصالا وثيقاً بتاريخ دارفور وكانم وبرنو وبجرمى . وبالرغم من ذلك فلم يعتنق شعبها الدين الحنيف إلا بعد تلك البلاد .

جاء ذكر واداى فيما كتبه الرحالة ابن سعيد المغربى عنـــد كلامه عن منطقة بركامى (بوركو) ، وشعب الزغاوة القديم ، هذا الشعب الذى يحتمل أن تكون أراضيه قد وقفت مانعاً فى وجه الدعاة القادمين من الشرق (وادى النيل) .

وسكان واداى خليط من شعوب متعدده ، بالرغم من أنهم ينتمون إلى مجموعة عرقية « جنسية » واحـــدة ، ويتكلمون اللغات ذت اللهجات المتقاربة . ومن الصعب الاهتداء بسهولة إلى تاريخ واداى القديم . ولم يذكر المؤرخ التونسى شيئاً نعتمد عليه ، وإن كان قد عنى بذكر القبائل الخمس الأصلية التى تألف منها سكان واداى . ونقطة البداية ترجع إلى أوائل القرن السادس عشر حينما قدمت قبائل التنجور الوثنية من دارفور معتدية على واداى وقبلت الحكومة ثم جعلت عاصمة البلاد فى كادابة (جنوب غربى أبشر) ،

ويحتمل أن يكون هؤلاء التنجور من النوبيين الذين باتصالهم بالعرب أصبحوا يتحدثون بالعربية (١)، وقد استقروا فى دارفور فى أثناء القرن الخامس عشر واغتصبوا السلطة من أصحابها، وبقوا يحتفظون بسيادتهم حتى استولى عليها سليمان سولونج حوالى عام ١٦٣٠، وأمام الأمر الواقع اضطر التنجور إلى الرحيل عن دارفور، وانتشروا فى واداى فى اتجاه الجنوب إلى حدود بجرمى.

ويلاحظ أنه كان لبعض زعماء التنجور أسماء عربية. وقد اعتنق هؤلاء الإسلام لكنهم لم يفرضوه على القبائل المتعددة لأنهم كانوا يستمدون منها الجزية بانتظام.

ويقال إن أول من دعا إلى الإسلام فى واداى كان رجلا صالحا اسمه صالح أو جامع، وينسبه بعض الرواة إلى قبائل الجعليين فى شندى بالسودان وفى عام ١٦١١ تمكن عبد الكريم من أقارب ذلك الرجل الصالح أن يضم إليه اثنين هما ما بارفردوى: وكانا قد أسلما على يد الصالح، ثم اتسع نطاق هذه الجماعة واتفقوا فيما بينهم على رفع راية الجهاد الإسلامى ضد التنجور فأعلنوا القتال ضدهم وغلبوا زعيمهم داود، وهكذا أصبح عبد الكريم زعيم الجماعة الإسلامية فى واداى، وسرعان ما جعل (دارة)، شمال غرب أبشر، مركزاً للدعوة الإسلامية، وقبضت أسرته على أزمة حكم واداى من عام ١٦٥٥ إلى عام ١٩١١. وكانت واداى فى بعض السنين امتداداً لحكومة دارفور أو برنو، وكانتا تهددانها بإعادة حكومة التنجور إذا تخلت عن هذه أو تلك. وبالرغم من هذا السيف المسلط، حاول بعض سلاطين واداى التخلص من هذا التهديد ولكن دون جدوى، حتى تمكن السلطان محمد جودة (١٧٤٥ - ١٧٩٠) من ذلك، واستطاع أيضاً أن يرسل عدة حملات ضد الوثنيين فى

---

(١) يذكر الرحالة الألمانى بارت أن شعب التنجور قدم من دنقلة، ويؤيده فى ذلك جماعة من المؤرخين (ترمنجهام ص ١٢٩).

جنوبى البلاد ، وفى أخريات القرن الثامن عشر استولى السلطان محمد صالح على منطقة بحيرة فترى ووصل إلى كانم .

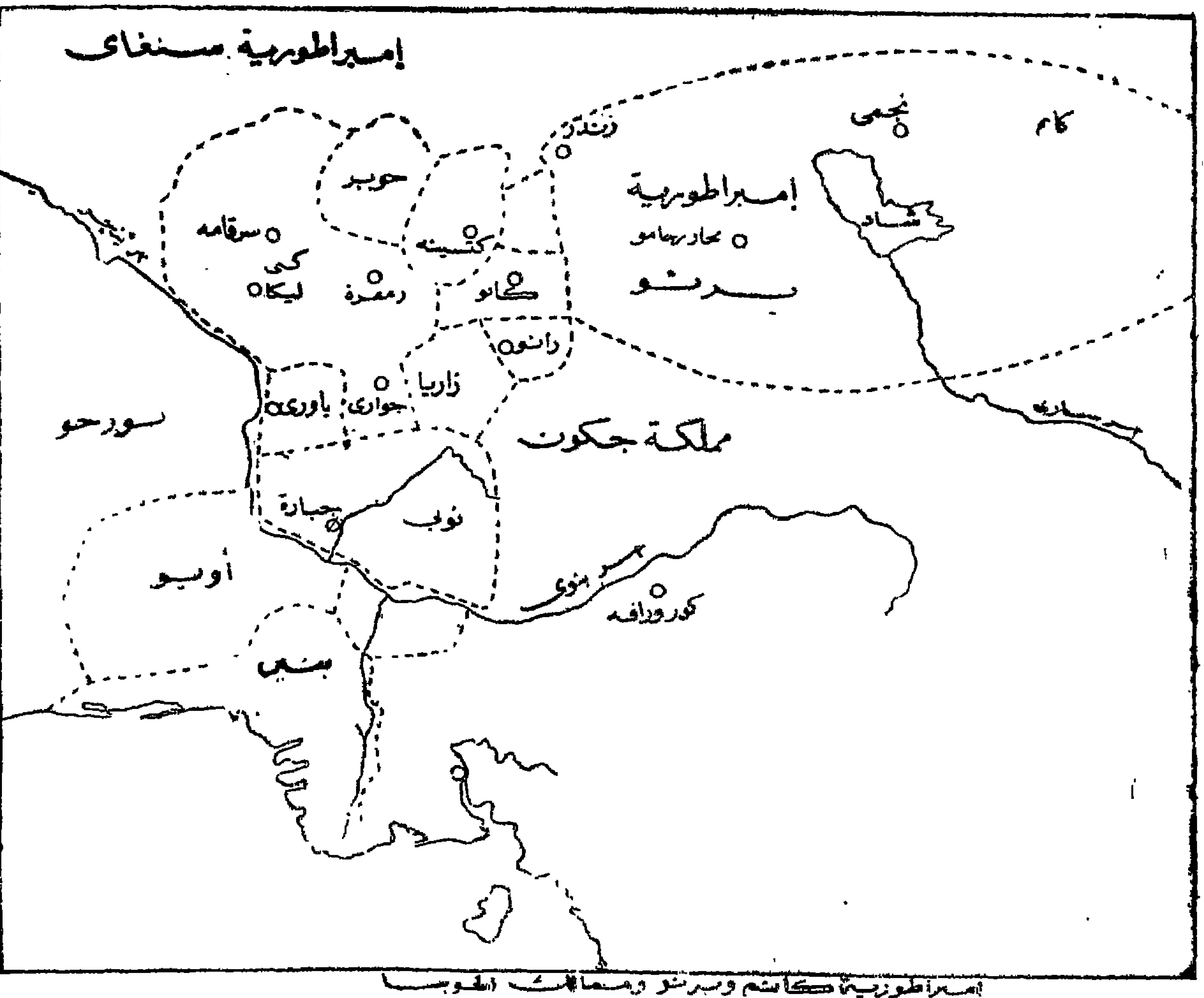
وفى خلال تلك الفترة وفد بعض الفقهاء من مملكة الفونج « سنار » ليعلموا المسلمين فى واداى ، ومن هؤلاء : أبو زيد بن عبد القادر الذى عاصر حكم السلطان يعقوب العروسى (١٦٨١ — ١٧٠٧) ، وأبو سرور الفاضلى الذى قتله بعض أبنائه فى واداى ، وكانت واداى تبعث ببعض طلابها إلى السودان ومصر للتزود من مناهل العلم .

وفى أوائل القرن التاسع عشر تمكن عبد الكريم سابون(١٨٠٣ - ١٣) من خلع أبيه عن العرش وحكم البلاد ، وقد حاول محمد الأمين الكانمى أن يستعين به لتخليص بجرمى من سلطان برنو ، فنجح ذلك وضم بجرمى إلى واداى ، وقد نجح عبد الكريم فى فتح طريق جديد للتجارة عن طريق برقة وطرابلس ومصر ، وشجع التجار الوافدين إلى بلاده (١) .

وخلفه ابنه يوسف (١٨١٤ — ٢٩) وكان قديراً ونشيطاً كأبيه ، ولكنه كان ظالما متعسفاً ، وقد اغتيل . وخلفه محمد عبد العزيز (١٨٣٠-٤٣) ثم محمد شريف صالح (١٨٤٣ - ١٨٥٨) شقيق السلطان سابون الذى جرد حملة ضد برنو وجعل قاعدة حكمة فى أبشر بدلا من داره . وتولى فى أعقابه عدد آخر من السلاطين ، وتولى فى نهاية الأمر السلطان داود مسوره (١٩٠٢ - ١٩١١ ، وفى عام ١٩٠٩ احتل الفرنسيون أبشر . ثم ضموا بقية البلاد إلى نفوذهم فى أعقاب التخلص من إمبراطورية رابح الزبير (٢) .

---

(١) راجع الكلام عن بجرمى لارتباط العلاقة السياسية بينها وبين واداى .
(٢) راجع ما كتب عن رابح الزبير كتاب إمبراطورية رابح الزبير لمؤلفه سعد الدين الزبير ، القاهرة ١٩٥٣ .



امبراطورية كانم وبرنو وممالك الهوسا

الفصل السادس

برنو (١٥٠٧ — ١٨١٩)

برنو واحدة من دول السودان الأوسط الإسلامية ، كانت تحد شمالا بالصحراء الكبرى ، وغربا ببلاد الهوسا ، وجنوباً بأداموة ، وتحد من ناحية الجنوب الشرقى بسلطنة باجرمى ، وشرقا ببحيرة شاد ، وهذه الحدود لم تكن دائماً ثابتة خلال تاريخ برنو ، ولكنها تغيرت وتعدلت كثيراً تبعاً للأحوال والظروف التى مرت بها .

ذكر برنو مؤرخون وجغرافيون من العرب ، كابن سعيد الرحالة المغربى (النصف الثانى من القرن الثالث عشر) ، والمقريزى ، وابن خلدون ، وتكلم عنها بإفاضة الرحالة الحسن بن محمد الوزان (ليون الأفريقى) فى كتابه المشهور (وصف إفريقية) ، وقد استقر الحسن فى تلك البلاد أمداً وجيزاً فى بداية القرن السادس عشر .

تألف سكان برنو من عدة أجناس مختلفة ، أهمها الكنورى ، وكانوا العنصر الغالب فى ناحية العدد و السلطان السياسى . وقد اعتنق هؤلاء الإسلام منذ أمد بعيد ونشروه بين القبائل الوثنية (وربما تنسب إليه كانم الدولة الإسلامية السابقة فى تلك الجهات) . وبين الكانورى : القبائل الوطنية المتميزة عن الكانورى فى اللغة والعادات ، ونذكر منها الكرى ، والكربنة ، والمنكة ، والمندرة أو الوندلة . . الخ ، ثم الأعراب .

ويطلق على العرب الذين استقروا فى برنو اسم شو ، تمييزاً لهم عن التجار العرب الذين كانوا يمكثون فترات قصيرة ، ثم القبائل المختلفة من الطوارق والفلاتة ، وهم الفولة والهوسا الذين اختلطوا بالكنورى .

ويتكلم أهل برنو عدة لغات ، ولغة الكنورى أوسعها انتشاراً وبعض اللغات السودانية . والإسلام هو الدين السائد فى برنو ، وقد دخل فى العصور الوسطى على يد الفاتحين الذين جاءوا من كانم والذين كانوا قد اعتنقوا هذا الدين قبل ذلك بعدة قرون (راجع ما كتب عن كانم) ،فاعتنقه السلطان والأشراف وسكان المدن الكبرى .

وقد دهش الرحالة العرب الذين زاروا برنو من وجود نظام سياسى أرقى بكثير مما كان فى بلاد السودان الأخرى ، بل إنه يشبه من وجوه عـــدة النظام السياسى الذى كان سائداً فى الدول الأوربية فى العصور الوسطى ، وكان سلطان برنو يلقب بماى ، إلى أواسط القرن التاسع عشر ثم قنع السلاطين بعد وفاة آخر الحكام من الأسرة السيفية عام ١٨٤٦ بلقب « شيخ » الذى كان يلقب به محمـــد الكانمى ، وهو رأس الأسرة الجديدة التى تولت الحكم . وقد حكمت الأسرة السيفية « نسبة إلى سيف ابن ذى يزن » إلى منتصف القرن التاسع عشر ، وقد نقلت هـذه الأسـرة مقر الحكم إلى الضفاف الغربية لبحيرة شاد بعـــد أن حكمت فى كانم عدة قرون .

ويعتبر القرن السادس عشر أزهى العصور فى تاريخ برنو ، ولا سيما الأعوام التى حكم فيها السلطان إدريس علومه . وسنستعرض بإيجاز تاريخ هذه البلاد منذ أن وليها إدريس .

السلطان إدريس علومة (١٥٧ — ١٦٠٢)

ندين كثيراً للإمام المؤرخ أحمد بن فرتوة ، فقـــد زودنا بكتابين :

ونلاحظ أن ما كتبه الإمام أنه لم يرتب مضمون كتابه حسب السنين ويحدثنا قائلا :

كان أول ما أقدم عليه السلطان تأدية فريضة الحج ، ولما عاد عرج على برنو ، فلما وصل براق (برعق) أمر بنقل جميع محاربيها ليضعف شأن ديارهم ، وكان الفضل لانتصاره عليهم تسلح جنوده بالبنادق ، ثم انتصر على أهالى امساكه وانتقم منهم . وأصلح مادمروه ، وأرغمهم على أن يتبعوا أصول الدين ، وأن يجعلوا العدل نبراساً لهم . وأن يضعوا أمورهم فى ذمة العلماء لا الزعماء وأن يتصفوا بالتسامح والإخاء وليس بالتنافر والعداء .

ثم انتقم مما ارتكبته قبيلة نيجزيم وشعب مجولم وجزان وغيرهم ضد بلاده ، لحرق قراهم وأخضعهم لسلطانه ، ثم أرغمهم على استعمال المكاييل والموازين المعترف بها لكى لا يبتزوا أموال الأهالى أو يرهقوهم ، وشجع القوم على زراعة أراضيهم لكى لا تصيبهم المجاعة التى هددت بلادهم عدة سنين .

وتناول المؤرخ بعد ذلك حروب السلطان ضد قبائل ســـو وانتصاره عليهم بفضل مواهبه الحربية وما اتصف به من حدة الذكاء والمقدرة . حشد رجاله لمهاجمة قبائل سو بخفاتا ، ومن أجل ذلك شيد بلدة كبيرة على مقربة من دامسك ، ونصب عليها قائده شتيمه بيرى وابنه عجيمة جسمه ، وكان لها أربعة أبواب جعل على كل باب حارساً كبيراً ، وخصها بحامية قوية ، وطلب إلى كل الزعماء الأقوياء أن يمدوه بالرجال ليشيدوا بيوتهم وأن يقيموا فيها مخازن للسلاح وإسطبلات للخيول .

وبعد أن تم بناء المدينة أطلق عليها اسم « سنسنه الكبير » ، وشحنها بالمجاهدين الذين كانوا ينطلقون كل حين لاقتفاء أثر الأعداء ، ويتخلصون منهم ، وشيد السلطان حصوناً أخرى فى أنحاء البلاد ، وشحنها بالجنود ،

أولها تاريخ مفصل لمولاه السلطان بن على « علومه » خلال الاثنى عشرة سنة الأولى من حكمة «١٥٧١ — ١٥٨٣» ، وثانيهما حروب هذا السلطان مع البلالة الذين دأبوا على غزو مملكته عدة سنوات .

وقد عثر على مخطوطة الكتاب الأول الرحالة الدكتور هنريخ بارث فى كوكاوة عاصمة شيوخ برنو فى كانم حوالى سنة ١٨١٣ ، وقد أعطاها له الحاج بشير وزير برنو فى ذلك الحين ، فأرسلها بارت إلى وزارة الخارجية البريطانية ، وانتقلت بطريقة مجهولة إلى ألمانيا ، ثم صورت منها نسخ عديدة لخدمة الباحثين ، وكان بارث هو الذى أطلق على المخطوطة المذكورة العنوان الذى عرفت به منذ ذلك الحين (١) .

تشتمل المخطوطة على أخبار الحملات الحربية التى شنها هذا العاهل من عام ١٥٧١ لما تبوأ عرش بلاده إلى عام ١٥٨٣ ، ما عدا حملاته فى كانم شرق شاد التى أفرد لها كتابه الثانى . ومن المحتمل أن يكون المؤلف الإمام أحمد قد كتبها حوالى ٩٩٠ / ٩٩١ هـ - ١٥٨٢ / ٨٣ م، وتمدنا هذه المخطوطة بصورة حية لما كانت عليه حالة المجتمع فى برنو أثناء أزهى عصورها التاريخية فى القرن السادس عشر ، حينما وقع معظم أقطار الشرق العربى تحت السيادة العثمانية .

يقول الإمام أحمد بن فرتوه فى مقدمة مخطوطته إنه ألف هذا الكتاب يقتدى بالشيخ مسفرمة عمر بن عثمان الذى دون تاريخ مولاه المجاهد إدريس على بن أحمد بن عثمان بن إدريس ، ويذكر أحمد بن فرتوه أنه من قبيلة محمد بن مان (معن؟) ، وأنه بدأ مؤلفه يوم الأحد فى الثالث من رجب فى مدينة برنى حاضرة برنو .

(١) نشر هذا الكتابان فى اللغة العربيـة فى مطبعة أمير كانو بنيجوريا عام ١٩٢٠ (انظر أيضاً ترجمة الكتاب الأول باللغة الإنجليزية التى قام بها المؤرخ البريطانى هـ . بالمر ، بعنوان :

History of the Twelve years of mai Idris Alooma of Bornu (1571. 1583) .

وأمر بقطع الأشجار التى كان يختفى وراءها جنود الأعداء . واشترك فى هذا العمل الكهول والنسوة والمرضى ، ومعهم طوائف الراقصين والمغنين والطبالين ، ولما انتهى السلطان من تحصين المواقع الهامة حشد المجاهدين، وعرض قواته وهم فى ملابس القتال ، وكان الفرسان ممتطين الجياد المغطاة بالزرد والدروع ، ثم تشب القتال واستمر فترة طويلة انتهت بانتصار السلطان ومطاردة الأعداء ، وتمكن من تطهير برنو من قبائل سو .

ونقرأ فى المخطوط أخبار حملة السلطان ضد جدامة والهجوم عليها من جوانبها وانتصاره على رجالها ، ثم تطالع أخبار هجومه على كانو وسيره نحو سهول سنسنة فانتقم من العدو فقطع عليهم خط انسحابهم، وأحاط بهم من كل جانب وأبادهم ، فلم يستطيعوا العودة إلى برنو .

وبعد أن أدى فريضة الحج استمد حاجته من السلاح النارى من العثمانيين وقد أفلحت سياسته الحربية كما مر بنا ، فقد كان جندياً موهوباً مدركا أسباب المنعة، فنهض ببلاده ودعم علاقته بالدول الشمالية والشرقية . فعل كل هذا بالرغم عن الأعوام الكثيرة التى قضاها فى مقاتلة أعدائه .

ومع ذلك فإنه لقى صعوبات كثيرة للسيطرة على طرق الصحراء حتى تم له احتلال واحة كوار فى طريق فزان ، وكانت غنية بمناجم الملح والنطرون .

وكان إدريس ملكا شهما أنجد عمومته شعب سنذاى وهم فى محنتهم ، فى أثناء دفاعهم عن بلادهم ضد الغزو المغربى . ويؤثر عنه أنه هدم جميع المساجد فى برنى ، وكانت مشيدة من القش وبناها باللبن ، كما دعم الروح الإسلامية فى أنحاء البلاد .

خلفاء إدريس علومة

أخذ الاضمحلال يدب فى أوصال برنو فى القرن السابع عشر ، فقد

كان عصر إدريس علومة شبيهاً بالصحوة التى توقظ الشعوب من نومها ، ولم يكن لخلفائه شأن هام ما خلا ماى على بن الحاج عمر رابع السلاطين بعد إدريس .

خلف إدريس ابنه محمد ، وكانت أيامه هادئة نسبياً ، ومات بعد أن حكم ١٦ سنة ونصف سنة ، ثم تبعه إبراهيم فالسلطان الحاج عمر بن قسام ، وكان هؤلاء الثلاثة أبناء السلطان إدريس ، وقد اتصفت أيام حكمهم بالأمن والهدوء .

ثم اعتلى العرش السلطان على بن الحاج عمر (١٦٤٥ — ١٦٨٥) وكان محارباً قديراً ، أدى فريضة الحج ثلاث مرات ، ثم قاتل سلطان أغاديس قتالا شديداً ، وحاصره الطوارق والكورارافة فى عاصمه ، ولكنه نجح فى بث الفرقة بين أعدائه حين طرد الطوارق إلى الصحراء ، كما طرد الآخرين وقد حكم بلاده أربعين سنة .

وجاء بعده خلفاؤه : إدريس بن على ، ودونمه بن على ، والحاج حمدون ابن دونمه ، وقد عرف هذا بالشغف بالمطالعة ومات عام ١٧٣٨ .

وتولى بعده السلطان دونمة بن الحاج حمدون وقد فشت المجاعة فى زمانه ثم السلطان على بن الحاج دونمة ، وكان عادلا محبوباً بين الناس ، وكان يقرب العلماء إليه . وتولى بعده أحمد بن على ، فشارك العلماء فى دراساتهم وكان ديناً تقياً يخشى الله ، ولكنه غفل عن المغيرين على بلاده ، فتركهم يفعلون مايبغونه ، كما ترك الأهالى نهباً لقطاع الطرق،فأهملوا فلاحة الأرض وفتكت بهم المجاعة عدة سنوات .

وفى بداية القرن التاسع عشر عجزت برنو عن صد أعدائها الذين شنوا الغارات عليها ، وكان الأعداء الجدد شعب الفلبة (الفولة — الفلانى) ، وقد وقعت غارة هؤلاء فى أيام السلطان أحمد بن على ، فتمكن الفولة من إخضاع أقاليم الهوسة التابعة لبرنو .

أنقذت برنو في هذا الوقت العصيب بتدخل رجل أجنبي عن البلاد ، هو محمد الأمين الكانمي ، وأصله من فزان ، واشتهر بحكمته وورعه . وقد رفض مغادرة البلاد عند اقتراب الفولة ، وجهز فرقة صغيرة من الكانميين وعاق تقدم الغزاة عند شرق بحيرة شاد ، ونجح آخر الأمر في إجلائهم عن الجزء الشرقي من برنو بأكمله بعد انتصاره عليهم في معركة حاسمة عند نكرنو ، فطلب السلطان أحمد عونه وترك له قيادة الجيش ، فأعاده محمد إلى عاصمة ملكه ، وتوفي أحمد بعد ذلك بعام ١٨١٠ .

حاول دونمه بن أحمد أن يستأنف القتال وحده ضد الفولة ، ولكنه هزم وفر من بلدة إلى أخرى ، واضطر إلى الاستعانة بمحمد الكانمي ، وأعطاه في مقابل ذلك نصف الأراضي التي يستعيدها من الأعداء ، وعلى هذا كان لبرنو في ذلك الحين حاكمان ، هما محمد صاحب النفوذ الفعلي ، وقد لقب نفسه بلقب الشيخ وعاش في نكرنو ، وأحمد الذي كان يحكم بالاسم وكان مقره بربروا .

وأخيراً خلع عن العرش ونصب مكانه أحد أعمامه ، وقد رفض هذا أن يخضع لمحمد الأمين فعمل على إنشاء حاضرة جديدة في « برني الجديدة » فجرده محمد من سلطانه وأعاد العرش الى دونمة الذي احتفظ بلقب السلطان الى أن توفي عام ١٨١٨ .

وقبل أن نكمل أحداث برنو في القرن التاسع عشر ، نذكر شيئاً عن جماعتين كبيرتين قدر لهما أن يلعبا أدواراً هامة في تاريخ برنو والسودان الأوسط في تلك الفترة ، وهما الفولة والهوسا .

لقد كتبت مؤلفات كثيرة عن الفولة أو الفولبة أو الفلاتة . . . الخ ، وكل هذه التسميات واحدة ، وهي قبائل مبعثرة في أرجاء غرب أفريقيا من أهالي نهر النيجر حتى نهر سنغال . والفولة إما رعاة مسلمون متنقلون وإما

أنهم يعيشون مستقرين بين شعوب غريبة عنهم كطبقة حاكمة ، حيث يكونون القوة السيسية المتسلطة فى نيجيريا الشمالية . ويبلغ عددهم نحو المليونين ، ويحتشدون بصفة خاصة فى مديريات سكوتو وكانو وأداموة التى كانت تسمى فيما مضى يولا .

أما الهوسا أو الهوصا فهم قوم من السود تقع بلادهم فى البقعة المحصورة بين الصحراء الكبرى فى الشمال، وبرنو فى الشرق وثنية نهر النيجر فى الغرب والربوع الساحلية لخليج غانه وتوجو وداهومى وبنين والكمرن فى الجنوب ويصل تعدادهم الى حولى ٠٠٠ر٠٠٠ر١٥ نسمة .

وفى أقصى مواطن الهوسا فى الشمال نشأ فيهم الزعيم الكبير عثمان بن فوديو قائد ثورة الفولة الكبرى فى القرن التاسع عشر ، وسنتحدث عن زعامته فى فصل تال .



الفصل السابع

دول الهوسا وإمارات النيجر

الهوساوة قوم من السود. تقع بلادهم فى البقعة المحصورة بين الصحراء الكبرى فى الشمال وبرنو فى الشرق، وثنية النيجر فى الغرب، والمناطق الساحلية لخليج غانة المشتملة على توجو وداهومى وبنين والكمرون فى الجنوب. ويصل تعدادهم إلى حوالى ١٥,٠٠٠,٠٠٠ نسمة، وهم يكسبون معاشهم من الزراعة والتجارة والصناعة، وتخترق قوافلهم الصحراء الكبرى ثلاثة أشهر من كل عام، تزود طرابلس وغيرها بمنتجات السودان.

والإسلام دين غالبية الهوسا اليوم، وقد دخل بلادهم فى ختام القرن الرابع عشر وأوائل الخامس عشر بوساطة تجار النيجر الأول، ثم أحرز تقدماً كبيراً فى القرن التاسع عشر عقب غزو الفولة لبلادهم (١).

ويحيط الشك أصول الهوسا، وكان ابن بطوطة أول من ذكر واحدة من دول الهوسا وهى غوبر، وكان الهوسا وثنيين عند زيارة هذا الرحالة لبلاد السودان عام ١٣٥٣ م. ولعل دعوتهم إلى الإسلام قد قويت بفضل تعاليم المرابط التواتى محمد بن عبد القادر المغيلى (١٤٩٣)، ولكن لم يتم إسلامهم، فقد ارتد أهل غوبر عن الإسلام فى القرن الثامن عشر (٢).

وكانت ديارهم مسرحاً للمعارك التى نشبت طويلا بين كبي وبرنو، وقد

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية: مادة حوصة.

(٢) أقصى مواطن الهوسا فى الشمال، نشأ فيها الزعيم عثمان بن فوديو قائد ثورة الفولة الكبرى، وكان الجوبرارة فى وقت ما أصحاب الكلمة فى هوا حنايا (اسبن).

سعى كلاهما للسيادة على هذا الجزء الهام فى السودان الغربى .

وكانت دويلات الهوسا فى غوبر وكانو ورانو وكتسينة وزارية مستقلة بعضها عن بعض الى بداية القرن التاسع ، ثم انضووا تحت لواء الإمبراطورية المترامية الأطراف التى وضع أسسها عام ١٨٠٢ المرابط عثمان دان فوديو ، وفتحت ديار الهوسات فى خمسة عشر عاماً ، فخلع سلاطينهم الوطنيين ونصب مكانهم عمالا يخضعون لسلطان سكوتو ، الحاضرة التى شيدها عثمان ، واندمج القاهرون وفنوا فى المقهورين ، كما انصهر الفولة فى الهوسا ، فنقدوا بهذا الاتصال لغتهم وحضارتهم . وكان من نتائج فتح الفولة البلاد أن حطم الهوسا حدودهم الأصلية من جميع الجهات ، وأدخلوا لغتهم ودينهم الإسلامى إلى الربوع المجاورة مثل توجو وأدموه وبلاد كمرون .

كانت الأقاليم التى يعيش فيها قبائل الهوسا إلى أوائل القرن التاسع عشر خاضعة اسمياً لبرنو ، وكان يتألف منها عدة دويلات من أهمها كانو وكتسينة وزارية وغوبر وزنفرا وكبى ... كان يخيم على بعضها الهدوء والسكينة ، وفى بعض الأحيان تعلن إحداها العصيان ضد سلطان برنو ، ولذلك كان إيفاد الحملات العسكرية لإخمادها أمراً يكاد يكون مستمراً .

أحوال الهوسا فى أوائل القرن التاسع عشر :

احتفظ الجوابروة (سكان جوبر) بسيادتهم فى الشمال الغربى ، كما كان لبرنو السيادة على الشمال الشرقى ، وكانت مملكة جكون قد بسطت كلمتها على شعب الكوارافة ، أما نوبى فى الجنوب فظلت سيدة نفسها بالرغم من ضعفها بسبب المعارك الداخلية ، أما كتسينه وزارية فقد كانتا اسمياً مستقلتين تحت حماية برنو ، وهكذا كان بالاختصار الموقف السياسى لدول الهوسا حينما تدفقت جحافل الفولة عليها بزعامة عثمان دان فوديو

وفى الربع الأخير من القرن التاسع عشر حاول الأوربيون أن يخضعوا

بلاد الهوسا إليهم، فاختصم الإنجليز والفرنسيون على اقتسام النفوذ فى بلاد الهوسا كما اختصموا فى الوقت نفسه على بلاد النيجر الأدنى ، وكان الإنجليز أكثر توفيقاً ، فقد دخلت بلاد الهوسا بأسرها تحت السيادة البريطانية بناء على المعاهدة الإنجليزية الفرنسية المبرمة فى أغسطس سنة ١٨٩٠ والمكملة باتفاقيتى ١٢ يوليو ١٨٩٢ و ١٤ يونيو ١٨٩٨ ، والاتفاق الإنجليزى الألمانى المعقود فى ١٥ نوفمبر سنة ١٨٩٣ .

كانو

كانو أولى دويلات الهوسا ونبين تاريخها منذ دخلها الإسلام. والمعروف أن باجوده (٩٩٩ — ١٠٦٣) أحد أحفاد بايزيدا كان أول ملوكها وأعقبه ثمانية وأربعون من الملوك ، وكانت كانو إذ ذاك تشغل مساحة صغيرة وقد شيدت أسوارها القديمة من اللبن حوالى القرن الثانى عشر فى أثناء حكم ملوكها الثالث والرابع والخامس ، وكانت الكلمة النافذة فى أزمانهم لصناع الحديد ، وكان من التقاليد الدينية التهام جثمان الموتى من الملوك والزعماء لاكتساب بعض خصال المتوفى الطيبة .

وفى الزمن الذى دخل فيه الإسلام برنو حوالى القرن العاشر تمسكت كانو بالوثنية ، واستمرت كذلك ثلاثة قرون أخرى على الأقل ، وكان الإسلام قد دخل إلى بلاد مالى ووادى النيجر قبل ذلك بوقت طويل ، أما دولة غوبر فبفضل موقعها استطاعت مقاومة تسرب الإسلام ناحية الشرق وصمد وثنيو برنو مقاومين انتشار الدين الحنيف إلى الغرب، ولذلك بقيت كانو ودول الهوسا الأخرى على وثنيتها إلى أن نهضت بعض قبائل الونقارة ، وربما كانوا من الفولة الوافدين من مالى وجلبوا معهم عقيدتهم الجديدة ، فاعتنقها أهل كانو فى سلام ، ومع ذلك فقد كانوا يرتدون عنها

فى بعض الظروف ويعودن إلى الوثنية . ويقال إن الزعيم الذى وصل فى زمنه الإسلام الى كانو كان اسمه « ياجى » ومن ثم شيدت المساجد وازداد عدد الذين يعتنقون الإسلام ، وفى حماستهم العقيدية غزا الهوسا الجنوب ، وحملوا السلاح الى نهر بنوى و نيجر ، وكان هذا النجاح قصير الأجل ، فقد أبى المقهورون أن يدفعوا الجزية لهم ، وعادوا إلى دين أجدادهم ، وكان ذلك فى أوائل القرن الخامس عشر .

غزا « ياجى » بعد ذلك زاريا ونجح فيها أصاب وقتل زعيمها وتفرق أتباعه. وفى عهد خلفاء هذا الملك وفد أحد ملوك برنو وبعض أتباعه هاربين والتجأوا إلى كانو خوفاً على حياتهم ، وعلى أثر نشوب الحرب الأهلية فى بلادهم . فرحب بهم الملك داود وخصهم ببعض الدور خارج حاضرته لاجتناب المخاطر .

وسعى حكام كانو الطامعون الى توسيع رقعتهم ، فشنوا الحرب ضد زارية وانتهت بعد اتفاق بين الجانبين ، واتجهوا ثانية نحو الجنوب ، ولما انتصروا على خصومهم عادوا ومعهم مئات الأسرى من العبيد ، فشيدوا عدداً كبيراً من المدن . وفى ذلك العصر عرف الهوسا الجمال فاستخدموها فى قوافلهم عبر الصحراء وبدأت تزدهر تجارتهم .

وفى عهد يعقوب الملك التاسع (١٤٥٢ — ١٤٦٣) نشطت حركة هجرة كبيرة من ونقارة قوامها قبائل من الفولة الآتين من مالى ، وكانت تلك الدولة تسير نحو نهايتها ، واضطر هؤلاء أمام اضطهاد سنغاى أن يتركوا بلادهم إلى الشرق قاصدين برنو ، ولكن اضطر عدد كبير منهم إلى البقاء فى بلاد الهوسا ، جاءوا إليها يحملون متاعهم النفيس ، وكانت الهوسا تتمتع حينذاك بالسكينة والطمأنينة ، فاستقبلتهم ورحبت بهم ، كما جاء إليها طوائف شتى من عرب الشمال . ولجأ كثير من رجال قبائل الصحراء إلى جوبر ، وانتعشت تجارة الملح ، ونما التبادل التجارى بين كانو وديار الجنوب ،

وتصد كانو ، وكتسينه كبار الزائرين وازدهرت العلوم الدينية فى مساجدها .

محمد رنفه :

كان من أشهر ملوك كانو محمد رنفه الذى حكم البلاد حوالى ثلاثين سنة (١٤٦٣ — ١٤٩٩) . وقد أصبحت البلاد فى عهده آمنة مطمئنة ، قرب إليه العلماء ، ووفد إلى البلاد البعوث من مصر . واستقدم رجال الدين ليستعين بهم على إرشاد الناس وهديهم ، وشيد المساجد ، وأزيلت الأحراش ، وأقام الدور مكانها ، وأدخلت تقاليد الحياة الإسلامية ، واستخدم الخصيان فى منازل الأغنياء ، وتمسك المسلمون بالدين بكل إخلاص ، وشيد «رنفه» لنفسه قصراً جديداً بالقرب من دله ، وقسم كانو إلى مناطق رحبة للإشراف على الإدارة ، ثم شيد حول حاضرته سوراً منيعاً ذا ٧ أبواب

وكانت كتسينة فى الشمال قد دخلها الإسلام ، وبدأت تتطور أحوالها فى طريق القوة ، ونشط التنافس بين البلدين كانو وكتسينه ، ولم يدم الإسلام طويلا فقد نشب القتال بينهما واستمر مائة عام سالت الدماء فيها بما فقدته كلتاهما من المحاربين ، وانحطت مرافق التجارة والزراعة ، واستطاعت أخيراً كانو بصعوبة أن تنتزع النصر من كتسينه لكنها لم تصمد ضد برنو .

وكان ممن حكموا كانو محمد كيزوكى (١٥٠٩ — ١٥٦٥) وقد مرت البلاد فى عهده بظروف بعضها حسن وبعضها سيء . غزا السنغاى بلاده بقيادة الملك اسكيا الكبير ، وسقطت كانو فى قبضته بعد حصار طويل كما سقطت زارية وكتسينة ، وبعد إعادة الصفاء بين البلدين تزوج كيزوكى من ابنة اسكيا ، ورضى بدفع الجزية ، ولم تطل أيام السكينة حتى نهض كيزوكى لصد غزو برنو عن بلاده ، وانتصر عليها ، ثم استؤنفت الحرب من جديد بين كانو وكتسينة ، وكان النصر متبادلا بين الجانبين .

وفى أيام الملك محمد زكى (١٥٨٢ — ١٦١٨) بدأت غارات الكواراراقة بعد غزو كاتته . قدم هؤلاء الكوارارافة من وادى بنوى ، وكان هجومهم شديداً وقاسياً مما جعل أهل كانو يفرون على وجوههم الى دورا للالتجاء فيها ، ثم عادوا ثانية فيما بين ١٦٠٠ — ١٧٠٠ ، وغزوا كانو مرتين حينما أرادت أن تنهض وتقف على قدميها . وفى خلال تلك الفترة نشبت المجاعة فقضت على ما تبقى من قوة الشعب ، فلم تستطع كانو أن تستعيد استقلالها فحيناً كانت تقدم الجزية الى الكوار ارافة ، وحيناً آخر تدفعها الى برنو ، وهكذا أنضبت ينابيع الثروة أولا بأول .

وفى أوائل القرن الثامن عشر (١٧٠٠—١٧٧٠) نهضت إمارتا زنفرة وجوبر يشنان الحرب ضد كانو، ثم هزمت غوبر زنفرة ، وتغلبت وحدها على كانو ، وكانت تلك المعارك فى الواقع بين الزعماء وأتباعهم فقط ، فلم تتأثر شعوبهم ، ثم استعادت كانو مكانتها التجارية بعد أن اجتذبتها كتسينا .



الفصل الثامن

إمبراطورية الفولة

حركة الإصلاح الدينية فى غرب أفريقيا

قبل أن نتكلم عن حركات الاصلاح الدينية التى ازدهرت فى أخريات القرن الثامن عشر وفى القرن التاسع عشر بغرب أفريقيا ، نشير اشارة عابرة الى المرحلة الاولى لانطلاق الاسلام فى تلك المنطقة ، حينما وصل رجال القائد العربى عقبه بن نافع عام ٦٦٦ م الى ودان ، والى جهة أخرى فى اتجاه واحة كوار فى الصحراء شمال بحيرة تشاد ، وتسرب الاسلام فى إثر ذلك الى الشعب الحاكم فى دولة كوكو القديمة التى قامت على جانبى النيجر الأوسط فى أوائل القرن العاشر .

وفى منتصف القرن الحادى عشر قضى المرابطون بفضل دعوة عبد الله بن يس المباركة على سيادة دولة غانة القديمة ، وكانت حينذاك أقوى دول غرب أفريقيا ، ثم اعتنق حكامها الاسلام عقب انتشاره فى منطقة موريتانيا . وفى ذلك الحين كان الدين الحنيف يتغلغل فى كانم وبوركو وباجرمى . ثم نهضت برنو كدولة اسلامية كبرى فى أعقاب دولتى مالى وسنغاى الاسلاميتين . وقد ازدهرت الحضارة العربية فى تلك الدول فيما بين القرنين الثانى عشر والسابع عشر ، ونهضت مراكز الإشعاع الإسلامى فى تمبكتو ، وجنى ، وجاغ ، وكانو — واشتهر فيها كثير من علماء الدين والتاريخ والأدب .

ومع ذلك فقد ظل المسلمون الذين يعيشون فى المناطق البعيدة عن المدن الاسلامية يجهلون حقائق الإسلام ، فكانوا فى أشد الحاجة إلى من يرشدهم ويهديهم .. كانوا يخلطون كثيرا من الأباطيل والعقائد الفاسدة التى انطوت عليها أديانهم الأولى ، وكادت الوثنية تعود إلى شأنها القديم ، وكان

يبدو أن المجتمع الاسلامى قد أصابته نكسة . فني منتصف القرن الخامس عشر ، تأثر المسلمون فى وسط القارة وغربيها بدوافع داخلية وخارجية . كان من أهمها نهوض الخلافة الإسلامية فى القسطنطينية ، وقضاء على الدولة المسيحية الكبرى بيزنطية . وصادف ذلك نشاط موفور نهض به دعاة بعض الطرق الدينية الوافدين من المغرب ، وقد أثر هؤلاء تأثيرا ملحوظا فى امارات الهوسا الوثنية شمال نيجيريا ، وكان من أبرز الدعاة الفقيه التقى عبد الكريم المغيلى [1] (ت ١٥٠٣) . الذى كتب رسالة دينية تلبية لرغبة سلطان كانو ، عرض فيها لألوان الفساد التى سادت مجتمع الهوسا ، وانتشار المفاسيد الدينية والدنيوية ، وكان لكتابيه « الدر المنير فى علوم التفسير ، والتعريف فيما يجب على الملوك » أقوى الأثر فى تنوير الأذهان . وكذلك رسالة الإمام جلال الدين السيوطى (١٤٤٥ - ١٥٠٥) الى بعض أمراء الهوسا وقد أشار فيها الى مثل ما كتبه المغيلى . ومع ذلك فلم تستطع امارات الهوسا التى كانت منقسمة على نفسها أن تغلب الوثنية نهائياً .

والجدير بالذكر ، أنه كانت هناك عدة عناصر ساعدت على اليقظة الإسلامية فبمرور الزمن على الفتح العربى (شمال أفريقيا) ، استعربت غالبية من البربر القاطنين فى غرب المغرب ، على عكس البربر أو الطوارق الذين كانوا يقطنون فى الصحراء الكبرى ، فقد حافظوا على استقلالهم

(١) أحد علماء تلمسان الكبار وشهد فى السودان الغربى أثناء القرن ١٥ ، وكان له أثر ملحوظ فى تفكير زعماء الاصلاح الدينى . أنتقل الى كانو وأصبحت له خطوة عند الحاج أسكيا محمد سلطان سنغاى وذلك لما كان يسديه إليه من الآراء الحكيمة فى السياسة والادارة ألف له رسالة أو اثنتين وقد نشر إحداهما ، بلدرين المستشرق البريطانى فى بيروت عام ١٩٣٢ بعنوان التزامات الأمير . Oblig atemir oz per Prine

ولغتهم وعاداتهم ، وكان لا بد من مرور سنوات طويلة حتى يتعمق الاسلام فى صدورهم . ونلاحظ أن هؤلاء الطوارق واصلوا ضغطاً مستمراً على المنطقة الممتدة من نهر النيجر الأوسط الى بحيرة تشاد التى تعرف بالسهل الاوسط دون أن يكون لهم أي أثر اسلامى ملحوظ .

ونهضت فى القرن الخامس عشر والسادس عشر حركة للدعوة ، انبثقت من منطقة الساقية الحمراء (الصحراء الإسبانية) ، وغيرت تماماً من موقف البربر الى الاسلام ، وكانت تهدف هذه الحركة الى تأليف مجموعات من القبائل . تعتمد على التنظيم الدينى ، مما جعلها تعتبر نفسها طبقة ارستقراطية تعويضاً عن فقدانها الحرية السياسية . وأكثر من ذلك ، زادت هذه القبائل بتجنب استخدام الأسلحة ، واعترف بهم كفروع من القبائل العربية . على أنه كانت هناك قبيلة عربية واحدة ، كان لها أثر عظيم فى منطقة جنوب الصحراء ومنطقة النيجر الوسطى على إسلام الزنوج . وتلك هى قبيلة كونتا التى هاجرت فى القرن الخامس عشر من موطنها فى توات (Dwat) إلى أطراف تمبكتو ، ومع مرور الزمن انصهرت هذه القبيلة العربية الأصل وأصبحت قبيلة مغربية تدين اليها الطريقة القادرية بانتشارها فى غرب أفريقيا . ضمت كثيراً من الصالحين الذين أحرزوا شهرة واسعة ، وأصبح لزعمائها مهمة الوساطة بين القوى المتصارعة : الطوارق والفولة والزنوج فى منطقة تمبكتو الاسلامية .

هذا هو العنصر الأول - عنصر القبائل المغربية فى نهضة الروح الاسلامية فى غرب أفريقيا . أضف اليه العنصر الثانى وهو الدور الذى اضطلعت به الطرق الدينية وفى طليعتها القادرية والتيجانية . فقد كان انتشار هاتين الطريقتين ولا سيما التيجانية عظيماً جداً فى مستقبل القرن ١٩ . ومع أن القادرية كانت قد دخلت الى غرب أفريقيا فى القرن ١٥ ، ولكن تدفق نشاطها فى القرن ١٩ ولم يمض عليها زمن طويل حتى برز فقهاؤها وتلاميذهم ينتشرون فى أنحاء السودان الغربى من السنغال الى مصب النيجر يؤدون

واجباتهم على خير وجه ويكسبون المريدين الكثيرين . ثم قامت الطريقة التيجانية منذ القرن ١٨ تناهض الطرق الأخرى ولا سيما القادرية وتميزت بايجابيتها واستخدام القوة فى دعم الدعوة ولم تكتف بوسائل القادرية الهادئة . وعلى العموم فقد أصبح الانتساب الى إحدى الطريقتين ضرورة عند كل مسلم ولا غنى عن إحداهما .

* * *

وما دمنا فى صدد الكلام عن أثر الطرق الدينية فى النهضة الاسلامية ، فى القرن ١٩ ، فلا نستطيع أن ننسى فضل أحمد ابن ادريس (توفى ١٨٣٧) الذى نشطت حركته المباركة فى السودان الشرقى واتجهت غرباً إلى واداى وباجومى وبرنو ، ولما مات ، واصل تلميذ ، محمد بن على السنوسى (١٧٨٧- ١٨٥٩) دعوته التى أثرت تأثيراً مباشراً فى منطقة الصحراء الوسطى ومنطقة النيجر الوسطى حتى دمر الفرنسيين زوايا أتباعه .

ولقد استمدت القادرية نشاطاً غير عادى بفضل الشيخ سيد الكبير (١٧٨٠ - ١٨٦٨) ، وحفيده الشيخ سيد الصغير (١٨٦٢-١٩٢٤) ، وأحمد باميا (توفى ١٩٢٧) الذى أنشأ طريقة المريدية المتفرعة من القادرية وهى تعتبر طريقة أفريقية بحتة ، ضمت اليها فى سنوات قلائل أكثر من نصف مليون من المسلمين ، غالبيتهم من قبائل الوولوف الوثنية (Woolof)

أما العنصر الثالث فى نجاح الحركات الاصلاحية ، فهو ظهور عدد من الزعماء المسلمين حملوا رايات الجهاد ، الواحد بعد الآخر .

يقابلنا فى طليعة هؤلاء زعيمان دينيان من الطراز الأول ، أخذا بيد قبائل الفولة فى منطقة فوتاجلون وهما ابراهيم موسى المعروف باسم كاراموكو أليفا أو اليفابا (Karamoko Aliga Ba) [1] . وثانيهما ابراهيم سورى (sos) وقد انضم اليهما زعماء قبائل الفولة المهاجرون من منطقة ما سينا وجعلوا فو جومبا (Fogonba) مركز النشاط مدارسهم الدينية ، وتعاهدوا فيما بينهم على الجهاد الدينى بين أهالى المناطق المحيطة بهم

فنجحوا عدة سنين حتى دب الشقاق بين الفولة وزعماء سليما (solima) واستمر الصراع حتى عام ١٨٠٥ .

ولما توفى كاراموكو أليفا فى عام ١٧٥١ ، اتفقت كلمة القبائل على أن يتولى زعامة الجهاد — ابراهيم سوري ، وفى أعقاب مناوشات متواصلة ضد منافسيه ، استطاع الانتصار عليهم فى ١٧٧٦ ، وفاز بلقب الامام . وكان أول واجباته حماية المجتمع الاسلامى والعمل على توسيع حدود المسلمين . ولذلك نراه يوزع السلطه بينه وامامين آخرين : تورو عبد القادر فى فوتا وابراهيم سورى فى فوتا جالون وأحمد (Amodo) جاني فى فوتا بوندو . وتم ذلك فى ١٧٧٦ .

وبعد انتصارات ابراهيم سورى وشدة ولاء مجاهديه اليه أصبح صاحب الكلمة العليا بين زميليه . فقام الزعيم مودى مادا (modi mada) وجمع حوله أتباع كاراموكو أليفا ، ثم نادى بالامامة لعبد الله باديمبا ابن كاراموكو . ولكن تمكن ابراهيم من التغلب على مناهضيه واستطاع أن يعتمد على رجال جيشه متجاهلا رجال الدين ، ومن ثم جعل قاعدته فى تيمبو عام ١٧٨٠ بدلا عن فوجومبا ، وتخلص من أعضاء مجلس الشورى وعين آخرين بديلا عنهم ثم واصل الحكم بحزم حتى توالى حوالى عام ١٧٨٤ ، وعادت الفوضى الى أجزاء دولته الاسلامية ، وتغلبت زعامة الامام عبد الله باديمبا ابن كاراموكو أليفا ، وسمى أتباعه الفايا وهم المختصون بالشئون الاسلامية ، الى جانب الحزب العسكرى (سوريا) نسبة الى سورى .

ولكن لم يرض سيد ابن الامام ابراهيم سورى بهذا الوضع وفبدأ النضال شديدا بين أتباع الامامين فى فوتا جالون فيما بين ١٧٨٤ و ١٧٩١ . وفى نهاية الامر اتفقا عام ١٨٣٧ على أن يوحدا كلمتهما من أجل الجهاد النبيل ، ويتناوبا الامامة كل عام .

---

(١) يعرف أيضا باسم سليجو . نهض بدعوته حوالى ١٧٣٠ .

كان «المسجد» هو القاعدة الرئيسية للحكم ، يحيط به مساكن أسرات الزعماء ، ويتزعمها الامام ويعاونه مجلس مؤلف من رءوس الاسرات . ويلى ذلك القسم ويشرف على جمع الضرائب ويرأسه حاكم ، ويعلو القسم — المديرية — ويحكمها حاكم سياسى يعينه الامام ، وكان لكل حاكم مجلس للشورى، وعلى رأس تلك الدولة الإسلامية ، إمامان يتناوبان الحكم على فترات ، وكان يعين الإمام مجلس انتخابى (electoral college) يتألف من أربعة أعضاء يمثل كل واحد منهم سلالة من سلالات الصحابة الاول : كاراموكو وابراهيم سورى . وبعد أن ينال المرشح للامامة موافقة المجلس العام لقبائل الفولة يصبح اماما . وكان يجرى كل هذا فى تيمبو العاصمة السياسية ، أما فوجومبا فكانت العاصمة الدينية للدولة . وكان للامام مجلس من الكبار يهيمن أعضاؤه على جميع الشئون السياسية والقضائية والدينية . وكان لهذا المجلس سلطة خلع الامام . ويبدو أن هذا اقتصر على الناحية الشكلية فقط ، لان الامام كان هو القائد الاعلى للجيش .

وهكذا رأينا أن النظام الجمهورى ، قد عملت به دول أفريقيا الغربية فى الوقت الذى طبقته فرنسا ، ان لم يكن من قبل . . هذا النظام السياسى الذى دعمته الروح الاسلامية دعما قويا . ولولا الغزو الاستعمارى للقارة الافريقية لكننا قد رأينا قيام جمهوريات عدة تسودها الحرية والعدالة الاجتماعية . .

وهناك زعيم دينى آخر ، نهض فى منطقتى فوتا السنغالية وبوندو (Bondu) فى أعقاب الحركة الاصلاحية التى قامت فى منطقة فوتا جلون . وقد تزعم هذه الحركة « تييرنو سليمان بال » (tienno Bal) على رأس شعب التوكولور المسلم الذى كان يعيش فى منطقة امتدت من السنغال حيث تنغ ديمباكينى (Dempu kene) بالقرب من باكل (Bakal) الى دجانة (Dag ana) بيد أن الوثنيين من قبائل الفولة ، كانت لهم السيادة على قبائل التوكولور . . وكان هذا شيئا لا يرضى به هؤلاء . وكان تييرنو هذا قد تلقى علوم الدين فى فوتا جلون ثم استطاع بمعاونة رجال الدين السيطرة على الجماعة العسكرية

حركة الاصلاح الدينية الكبرى
(بزعامة عثمان دان فوديو)

تكلمنا عن بعض حركات الأصلاح الدينية فى غرب أفريقيا . وسنتحدث الآن عن أهم تلك الحركات المباركة التى كان لها أكبر الأثر فى دعم الإسلام وانتشاره فى منطقة كبيرة ، كان زعيم هذه الحركة وملهمها الشيخ عثمان دان فوديو ، فإليه يرجع الفضل فى نشر الإسلام بين ممالك الهوسا فى أخريات القرن الثامن عشر وأوائل القرن ١٩ .

ومع أن ممالك الهوسا التى تشتمل على هاب (Habe) ، وكاتسينا ، وجوبر (Gobir) ، وكانو وزاريا ، وكانت كلها غنية ولكن كان يؤدى التنافس بينها إلى نشوب القتال بين بعضها البعض د ولذلك انتهزت دولة برنو فى شرقيها إلى انتهاز فترة ضعف تلك الممالك . فكانت تضغط عليها بين الحين والحين وكادت تهدد استقلالها .

فى هذا الجو السياسى ، نهض الزعيم عثمان دان فوديو معتمدا على قبائل الفولة ومعلنا حركته فى عام ١٨٠٤ وبادئا حركته فى جوبر، ولكن أجبره ملكها على مغادرة بلاده، فاضطر إلى الهرب وكان ذلك فى ٢١ فبراير ١٨٠٤ ويعتبر هذا اليوم يوما دينيا مبجلا يطلق عليه فى شمال نيجيريا يوم الهجرة وسرعان ما انضم إلى دعوته الآلاف ، الذين قادهم عثمان إلى تلك الممالك وقضى على ملوكهم الواحد بعد الآخر ، وتمكن زعماء الفولة فى ١٨١١ أن يصبحوا سادة بلاد الهوسا كلها، ومن ثم أقاموا عدة مراكز فى طول البلاد وعرضها ، كانو يشنون منها الهجمات ضد القبائل الوثنية، فدانت لهم مناطق شاسعة فى زمن قصير . فما هى أسباب هذا النصر السريع ؟

أما أهم هذه الأسباب ، فيرجع إلى ضعف روح المجتمع فى تلك الممالك

آنذاك ، كانت الحياة تسودها الفرقة وتنافر الصفوف وكان الملوك يعتمدون علي جيوشهم الخاصة ورجال البلاط فكانوا منعزلين عن شعوبهم ، فانقسم الشعب إلى سادة وأتباع . أما السادة فكان عمادهم الظلم والإرهاب، يخشون على ملكهم من جيرانهم ومنافسيهم بينما أفراد الشعب : سواء أكانوا من الفلاحين أو أصحاب المهن فقد عانوا الضرائب الباهظة وطغيان رجال الحكومة فى جباية الأموال. كانت تتوفر بالمدن الأموال الوفيرة بيد أنها تذهب إلى جيوب حفنة من الحكام . ومن ثم أصبح الأغنياء أكثر ثراء . وأصبح الفقراء أكثر فقراً. فلا غرو إذن ، أن نهض عثمان دان فوديو بثورته (١٧٥٤ — ١٨١٧) ضد ملوك « هاب » سرعان ما استجاب لها شعب الهوسا وانضم إلى قبائل الفولة بكل حماسة ليخلصوا من العذاب .

لقد أدرك عثمان بحكمته كيف يوجه حركته لإصلاح المجتمع عن طريق الدين ، وحدد أهدافه مع أعوانه المخلصين ، فكانت تعليماته إليهم واضحة تهدف قبل كل شيء إلى الإصلاح الاجتماعى واتباع نظام الشورى والبعد عن العسف والجبروت. وتبدو آراء الشيخ عثمان فى إدارة الحكومة فيما كتبه من المؤلفات ، ولا سيما فى رسالة الفرق (١) .

كان الفساد والمغالاة فى الترف والأنانية والظلم من معالم حكم ملوك « هاب » . ولذلك كانت دعوة عثمان تهدف إلى إزالة كل هذا الفساد والخلاص من الأحوال السيئة لحياة أفضل وأشرف. ويقول المصلح عثمان رضى الله عنه فى كتاب الفرق وفيه يعكس آراءه فيما يلى —

أقول بعون الله إن دعائم الحكومة خمس : الأول — أن القوة

---

(١) عنوانها الكامل : الفرق بين ولاية أهل الإسلام وأهل الكفر ، وهى مخطوطة عربية كتبها عثمان دان فوديو ويوجد منها عدة نسخ حققها م . هيكيت انظر مجلة الدراسات الشرقية والافريقية ، مجلد ٢٣ ، عدد ٣ (١٩٦٠) ، ص ٥٥٨ — ٥٧٩ .

(السلطان) لا تمنح لمن يسعى اليها ، ٢ ــ الحاجة إلى الشورى ، ٣ ــ التخلي عن القسوة ٤ ــ العدل . ٥ ــ الأعمال الصالحة . ويقـول عن النظام الحكومى ما يلى: ينبغى أن تقصر أعمال الحكومة على أربعة وزراء أولهم وزير مخلص للأمانة العامة عليه أن يوقظ الحاكم إذا نام، وأن يجعله يبصر إذا عمى ، وأن يذكره إذا نسى ، يا سوء حظ الحكومة والشعب إذا ابتليت بوزير غير أمين . وأهم صفات هذا الوزير الرحمة والعطف نحو الناس .

وثانى الوزراء : القاضى الذى يخشى الله ، وثالثهم : رئيس الشرطة الذى يعطى كل ذى حق حقه ويناصر الفقراء ضد جشع الأقوياء ، والرابع هو المسئول عن جباية الضرائب فى نطاق واجبه المرســوم فلا يعسف أحدا.

والواقع أن هذه أمور يحث عليها الدين الإسلامى . ولكن أهملها الطغاة والأنانيون . وكانت بلدان غرب أفريقيا فى حاجة إلى الزعيم الذى يذكرهم بشمائل الإسلام وبالحاجة إلى مبادئه السمحاء . وقد نجح الزعيم الشيخ عثمان فى دعوته نجاحا لم يلقه أى زعيم آخر فى موطنه ، فوحد كلمة الشعوب المتنافرة وهذب الدين . ويمكن القـول بأنه فى عام ١٨١٠ وصل جهاد عثمان إلى ذروته واعتقد أنه قد أدى رسالته ، فوجه عنايته إلى تنظيم دولته فى أنحاء امبراطوريه الفولة وقسم إدارة بلاده إلى قسمين : قســم يشرف عليه شقيقه عبد الله وآخر يشرف عليه ابنه محمد بللو . ثم أخذ الشيخ فى الكتابه والتأليف .

حركة الإصلاح فى أعقاب وفاة الزعــيم

برهن زعماء الفولة على كفايتهم فى دعم حياة ديموقراطية والإطاحة

بالملوك الذين أهملوا مطالب شعوبهم.فوحدوا دويلاتهم المتنافسة وأصبحت قوة لا يستهان بها . أصبحت للفولة دولة مهيبة تتمتع بسيادتها تدين بالولاء لحاكم واحد بلغت القمة حوالى ١٨٥٠، وعاشت حوالى المائة عام حتى قدم الاستعمار البريطانى وقضى على سيادتهم السياسية (١٩٠٣) ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئا حيال سيادتهم الدينية فى سكوتو أو كانو .

وكان الشيخ عثمان بعد ما أحرزه من النجاح، قد قسم الدولة التى أقامها إلى قسمين كبيرين : أحدهما فى الشرق وجعله تحت حكم ابنه محمدو بللو . وجعل القسم الغربى تحت حكم شقيقه عبدالله، وقنع هو بالزعامة الروحية متخذا مدينة سكوتو مقرا للدعوة الكبرى وأخذ يجد فى التأليف الدينى والاجتماعى ونذكر من كتبه : أصول الولاية (الحكومة)، إحياء السنة، بيان البدع، تمييز المسلمين، نصائح الأمة وغيرها كثير، وقد تكون من كتابات الشيخ دستور اتبع مبادئه جميع خلفائه .

كان شقيقه عبد الله محدثا قوى الحجة، ألف أيضا عدة كتب من أهمها: تزيين الورقات (١) . وبعد وفاة عثمان : تولى ابنه محمدو بللو حكم البلاد، وكان مثل والده وعمه شخصية ممتازة ومفكراً حصيفا وقائدا ماهرا، جمع حوله كثيراً من أهل العلم والدين والأدب، فعملوا معه على نشر علوم الأسلام ودعمها فى كثير من المدارس التى شيدها فى بلاد الهوسا، عطوفا على شعبه فبادلوه الحب والاحترام، لم يعرف عنه أنه استغل بيت المال من أجل شخصه ولم يعان حربا من أجل الغنائم وحب التملك.وكانت مدة حكم السلطان بللو مليئة بالحروب المتواصلة ضد بعض القبائل التى لم تذعن لحكم الفولة، وكانت معركته الكبرى فى «كجوا كوكى» خاتمة حروبه عام ١٨٦٥ وقد استطاع أن يدعم سلطانه فى جميع ولاياته .

*(١) مخطوطة فى عدة نسخ موجودة بمكتبات نيجيريا الشمالية . تشتمل على مجموعة قصائد نظمها عبد الله الفودي شقيق الزعيم عثمان الفودي،وقد حققت ونشر منذ أعوام قليلة.

امتدت دولته من ماسينا فى الغرب الى باجرس فى الشرق ، ومن بلاد اليوروبا فى الجنوب إلى واحتى أدار وأجاديس فى الصحراء الكبرى شمالا .

وكانت سياسته تهدف إلى دعم الحدود بأقامة الحاميات والرباطات والمعاقل ضد اغارات الطوارق وسكان كبى (Kebbi) وجوبى أعدائه القدماء . وقد شجع أعمال البناء ولا سيما المدارس والمساجد التى زودها بالعلماء والمدرسين والوعاظ والقضاة ،

زاره فى عام ١٨٢٤ الرحالة البريطانى كلابرتون (Clapperton) فشاهد فى مكتبته عددا من كتب العلوم الكلاسيكية . ويذكر الرحالة ان السلطان تحدث معه عن أحوال البلدان الأوربية وعن بعض القضايا الدينية التى كان الرحالة يجهلها .

وبالرغم من مشكلات الحكم استطاع محمدو بللو أن يكرس بعض الوقت للتأليف فى التاريخ والجغرافيا والدين ونظم الشعر كما قلنا ، وقد عنى كثير من العلماء بترجمة مؤلفاته ونشرها فى السنوات الأخيرة ، ومن تلك المؤلفات : — الانصاف فى ذكر ما فى مسائل الخلافة من وفاء وخلاف ، جلاء العدو عما يحتاج فيها من صدور الغرور ، الرباط والحراسة وله عدة قصائد .

وقد مات بللو عام ١٨٣٧ ودفن فى ورنو التى كانت تنافس سكوتو فى مكانتها الدينية .

حركة الإصلاح الدينية فى وسط أفريقيا

هكذا امتدت اليقظة الإسلامية الى غرب أفريقيا ووسطها ، تماما كما قامت فى أكثر أقطار العالم الإسلامى أثناء القرن ١٩ محاولات مخلصة لايقاظ المسلمين من رقدتهم ، واصلاح عقائدهم ، وما كانت بلدان غرب أفريقيا أن تبقى بعيدة عما تفاعل فى البلدان الأسلامية الأخرى ، فقد كانت صلاتها بالعالم الأسلامى صلات وثيقة .

كانت حركات غرب أفريقيا تدعو إلى العودة بالاسلام إلى ماضيه المشرق وهداية الوثنيين الذين لم تعمر قلوبهم بعد بالدين الحنيف ، وكانت غاية عثمان وحلفائه وأمثالهم تستهدف تكوين مجتمع إسلامي في نظمه وتقاليده وتعاليمه ، ومن هذه الحركات نذكر على سبيل المثال الدعوة الوهابية في الجزيرة العربية ، وتجدد نشاط الطرق الصوفية بعد أن امتدت اليها يد العبث ، ممثلة في نشاط السنوسية والقادرية والتيجانية .

ولاغرو أن يقتدى زعماء مسلمون آخرون بما فعله الشيخ عثمان المصلح وأقاربه وأتباعه ، فينهضون في بلدانهم القريبة من بلاد الهوسا بحركات إصلاحية مماثلة ، وسرعان ما قامت في منطقة ماسينا غرب الهوسا حركة تزعمها أحمد ولوبو ، ثم انطلقت حركة في حوض السنغال بزعامة الحاج عمر تال الذى سنتكلم عن حركته المباركة .

اجتذبت أحمد ولوبو دعوة المصلح عثمان دان فودبو واستجابت لها رغبته في الأصلاح الديني ، فشارك الشيخ وجاهد تحت رايته ثم أدرك أن وطنه ماسينا في حاجة شديدة لاصلاح شئونه . فسرعان ما ذاعت دعوته وقد وجد الأهالى فيها فرصة لتوحيد صفوفهم ، كما ارتفع شأن اخوانهم في شمال نيجيريا . ثم أعلن الجهاد ضد قبائل الهمبارة الوثنيين (١٨١٣)، وانتصر على الطوارق (١٨٢٥) ودخل تمبكتو (١٨٢٧) ، ثم دخل مدينة جني وطهرها من المنكرات ، وكان قد اتخذ له حاضرة على مقربة منها سماها « حمدالله » ، وهكذا قامت إمارة إسلامية في ماسينا اتبعت الطريقة القادرية.

وحينما مات الشيخ أحمدو (١٨٤٤) خلفه ابنه أحمدو شيخو الذى لم يعمر طويلا فقد توفى عام (١٨٥٢) ، وتشاء الصدف أن تكون ماسينا هدفا لحركة الحاج عمر تال التى انبعثت من بلاد التكرور فيستولى على مدينة حمدالله في سنة ١٨٦٢ ، ولولا الحروب التى اشتعلت بين معسكرى المصلحين

لظلت دولة ماسينا منارا للاسلام والمسلمين يخشى أمرها البمبارة وغيرهم من القبائل الوثنيه .

وهناك حركة اصلاحية كبرى أخرى نهضت فى شرق نيجيريا وشمال الكاميرون، تزعمها المؤدب آدم وكان قد تلقى علومه الدينية فى برنو، وحج الى بيت الله ، ولما سمع بجهاد المصلح عثمان ذهب اليه فى سكوتو ١٨٠٦ ليعرض عليه الولاء ومشاركته فى الجهاد فى بلاده ، فجعله الشيخ أحد قادته وبارك حركته التى بدأها عام ١٨٠٩ فأخضع الوثنيين فى بلاده وقبائل المندارا (Mandara) وكان زعماؤها مسلمين اسميا ، ثم أسس مدينة يولا (Yola) على نهر بنوى وأقام الزوايا والمدارس الدينية ، ومات ١٨٤٧/٨ تاركا للفولة منطقة فسيحة امتدت من ماداجالى فى الشمال الى بانيو (Banyo) فى الجنوب ومن نهر اينى (Eni) فى الغرب الى ليرى (Leri) فى الشرق ، وقد وحد البلاد فجعلها متماسكة بعد أن كانت فوضى .

ومنذ ذلك الحين عرفت بلاده باسم أداماوا وغالبية سكانها اليوم من المسلمين

جهاد الحاج عمر تال

ولد الحاج عمر بن سعيد تال فى عام ١٧٩٧ فى الوار بمنطقة فوتا السنغالية وقد نشأ فى أسرة دينية فتلقى علوم الدين ثم أدى فريضة الحج عام ١٨٢٦ وهو فى الثالثة والعشرين فأصبح من مؤيدى الطريقة التيجانية ، وفى أثناء عودته إلى وطنه، كان قد اكتسب شهرة واسعة، فنال احترام الشيخ الكانى فى برنو ، وفى سوكوتو ، تعرف على الشيخ محمدو بللو نجل الزعيم الشيخ عثمان دان فوديو المصلح الكبير ، فبقى عنده ثلاث سنوات واشترك أثناءها فى جهاده ، وفى عام ١٨٣٨ أقام فى منطقة ماسينا Massina مع الشيخ احمدو ثم ذهب إلى سيجو قاعدة البمبارة لكنه أبعد عنها ، فظل يطوف

أنحاء كانكان سبع سنوات ، معلما ومرشداً وهاديا الناس ، وأخيراً وصل الى دينجراى فطاب له المقام ، ودعم مركزه الدينى فيما بين ١٨٤٥-١٨٥٠ وصار له أتباع كثيرون .

وقد نشطت دعوة الحاج عمر للطريقة التيجانية فى منطقة فوتاجلون بين رجال الدين واستطاع أن يحولهم عن الطريقة القادرية ، وكان ذلك فى عام ١٨٥٠ ، وحبب اليهم أن يهبوا للدعوة فى ديجنواى ، فاجتذب اليه عـدداً كبيرا من قبائل الفولة فى فوتا جلون وقد أصبحوا فيما بعد يؤلفون القوات الرئيسية فى جيشه، وهكذا ساعد على دعم العلاقات بين الفولة والتوكرلور (Tokolor) .

ولما أدرك أن الوقت قد حان للقيام بحركته الاصلاحية «أعلن الجهاد» ورأى أن يبـدأ ذلك فى موطنه بفوتا تورو ، وكان قد زارها عـدة مرات لينشر دعوته بالطرق السلميه ونجح فى اجتذاب التوكولور الى صفوفه .

بدأ نشاطه بغزو بامبوك ، ثم دخل نيورو عاصمة منطقة كارتا فى عام ١٨٥٤ ، وفى ذلك الحين وجه جهاده ضد حركات الاستعمار الاوربى ولا سيما الفرنسيين الذين كانوا قد وصلو إلى خاصوا فى فوتا تورو وأحاطوا بعاصمتها «المدينة» (١٨٥٧) ، فلما لم يستطع رفع الحصـار عنهـا وخابت مساعيه، قرر أن ينسحب إلى الشرق، ليقيم دولة مستقلة تتألف من مملكتى اليمبارة وماسينا ، تاركا منطقة السنغال، وسرعان ما استولى على عدة مدن أهمها نيورو فى الشمال ، وسافسابندنغ فى (Sansbnding) ، ونياميـنـــا (Myamina) ، وسيجو على نهر النيجر ، فقضى على مملكة اليمبارة الوثنية وكان ملكها قد مات (١٨٦١) ، ثم تابع فتوحه نحو الشمال متتبعا النيجر وهاجم ملك ماسينا المسلم الذى كان قد امتنع عن مساعدته أثناء حصـار

الحاج عمر للمدينه، وأستولى على عاصمته حمد الله (١٨٦٢)، ثم فتح مدينة تمبكتو ١٨٦٣، وكانت أقصى ما وصل اليه فى الشمال وهكذا نجح الحاج عمر فى إقامة دولة إسلامية كبيرة تمتد من بلاد التكرور حتى تمبكتو، وبيد أن الحظ لم يواكبه فقد تحالفت عليه قبائل الفولة فى ماسينا وزعماء كونتا وهم أتباع الطريقة القادرية، وفى أثناء نضاله استشهد الحاج عمر عام ١٨٦٤ فخلفه ابنه أحمدو الذى اتخذ سيجو عاصمة للدولة.

وبوفاته فقدت الحركة الإصلاحية أهم الزعماء الذين عرفوا فى أفريقيا فى القرن ١٩، فلو أنه نجح فى تحقيق مشروعه الكبير، لأتيح له أن يؤلف وحدة كبرى من البلدان فى غرب أفريقيا بيد أن الاستعمار الفرنسى كان قد سبقه، وعمل على بث عوامل التفرقة بين الزعماء، وسادت الروح القبلية فى تلك المناطق . . . فعمت الفوضى ومن ثم تقدم الفرنسيون عام ١٨٨١. وطردوا أحمدو من ماسينا، فهرب إلى بلاد الهوسا ومات بها عام ١٨٩٨. فكانت دولته آخر الدول الوطنية التى شهدتها أفريقيا الغربية قبل الاستعمار وفازت المنطقة بدعم الإسلام والطريقة التيجانية فيها، كما انتشرت القادرية فى منطقة نفوذ عثمان بن فوديو وأحمدو لوبو.

وهكذا انتهت حياة بطل عظيم ومجاهد مسلم قبل أن يجنى ثمار عمله الصالح.

المجـــاهد الشيخ أحمـــد

حمل الشيخ أحمدو لواء الجهاد الأسلامى بعد وفاة أبيه الزعيم الجليل الحاج عمر تال فى عام ١٨٦٤، والمعروف عن نشأة أحمدو، أن والده عمر حينما عزم على فتح مملكة ماسينا، تلك الحملة التى قتل فى أثنائها، كان قد كلف ابنه النظر فى شئون مملكة سيجو وجعله خليفة له على اتباع الطريقة التيجانية، وكان أحمدو ذكياً ومثقفا ثقافة دينية، كما كانت له كلمة مسموعة بين اتباعه ورعاياه، بيد أن مشكلات التنافس فى الأســرة، والمتاعب

السياسية التى تعرض لها كانت كثيرة ، فضلا عن تهديدات حملة فرنسية قدمت للاستيلاء على بلاده .

وكانت دولة أحمدو الفسيحة تضم ممالك شتى «منها سيجو وكارتا» حيث قام اخوته الثلاثى فى ثلاثة مراكز عسكرية للدفاع عنها ، فى نيورو ، وكونياكرى ، ودياﻻ ، بالاضافة إلى حاميات كونديان ومورجولا ، وديتجواراى وماسينا، وفى تلك المناطق التى لم يكن لمواطنى التوكولور وهم شعب الشيخ أحمدو ، الغالبية الساحقة ، فبدأت الدولة فى التفكك، وحاولت قبائل البمبارة فى مملكة سيجو أن تخرج عن طاعته ، وواصلوا مقاومته وكذلك قبائل الفولة فى ماسينا التى كان أبوه الحاج عمر ضحيتهم . كل هذا جعل الشيخ أحمدو فى نضال مستمر ضد الخارجين عليه ، فلم يوفق فى كبح جماح البمبارة «كما تآمر ضده زعماء التوكولور مع أفراد أسرته ، ثم كانت فتنة شقيقه حبيب ضده فى عام ١٨٦٨ ، وثار بعض أفراد التيجانية ضده غير معترفين بسلطته الدينية ، حينما اتخذ لقب أمير المؤمنين عام ١٨٧٤ .

وانتهز الفرنسيون الفرصة ـ فرصة انقسام الدولة ، وعبأوا قواتهم ، لحول الشيخ أحمدو جهاده ضد الفرنسيين ، هذا النضال الذى اشتد فيما بين ١٨٦٥ ، ١٨٩٠ ، واستمر حتى ١٨٩٤ . وتتابعت الحملات الفرنسية ضده بعد أن تعاون بعض الزعماء معهم ، فاستولوا على كيتا عام ١٨٦١،ثم باماكو على نهر النيجر عام ١٨٨٣ مما جعله يكتب إلى القائد الفرنسى محتجا على تدخلهم فى شئون بلاده ، ولكن دون جدوى .

وفى ذلك الحين نشأ العداء الشديد بين أحمدو والزعيم الدينى ساموري الذى كان نجمه قد سطع،وهذا العداء يسر للفرنسيين نجاح تقدمهم وانزالهم الهزائم بكل ملك وأمير على حدة ، ومما يؤسف له ، أن شقيقه عجيبو

حاكم دينجواى تحالف مع الفرنسيين ضده، فأدرك أن بقاءه فى سيجو أصبح خطراً عليه، فقرر عام ١٨٨٤ الذهاب إلى نيورو، وخلع شقيقه «المنتقى» عن الحكم، ثم تخلى عنها فيما بعد وأخذ يشن المعارك ضد الفرنسيين، فصمد أمامهم فى كثير منها، حتى اضطر إلى الالتجاء إلى احدى ولاياته فى ماسينا للقيام بعمل كبير ضد الفرنسيين الذين كانوا قد استولوا على سيجو فى ٦ ابريل سنة ١٨٩٠.

ثم عبرت قواته نهر النيجر، وتجمعت بالقرب من بانديا جارا. ولكنها منيت بالهزيمة فى ٢٦ ابريل ١٨٩٣. وكان الأهالى فى مدينة جنى قد قاوموا هجمات الأعداء بصلابة، لكنهم لم يستطيعوا التغلب عليهم، فانتهت سيادة التوكولور فى السودان الغربى، وآل الأمر إلى فرنسا. ولم ير أحمدو من الشهامة أن يستسلم للعدوان، ولذلك لجأ إلى سلطان موكرتو فنزل عنده ضيفاً كريماً، وانتهت حياته عام ١٨٩٨.

المجاهد أحمد ساموري تورى

تفخر غينيا الحديثة بابنها البار المجاهد أحمد ساموري تورى، زعيم الحركة الأصلاحية التى نهضت فى جنوب سنغامبيا، والتى أخذت طريقا مماثلا لحركة الحاج عمر تال. وقد بلغت حركته الذروة فى عام ١٨٨١، بيد أن الاستعمار الفرنسى كان واقفا له بالمرصاد، فقضوا على حركته وأسروه عام ١٨٩٨.

حفظ أحمدو القرآن ثم اشتهر اسمه، مقاتلا شجاعا، فأصبح زعيما تخشاه القبائل فأخذ فى انشاء دولة الماندنكة (١)، تقوم بديلا عن الدول

(١) قبائل الماندنكة فى غرب أفريقيا من شعب الماندى الشماليين، كالبمبارا والديولا والسوننكة والكاسونكى والبوزو. وقد ساد المنطقة التى تتوسط حوض النيجر والساحل الاطلسى، وانتشر الاسلام بينهم بنسبة كبيرة على مر المائة سنة الاخيرة.

المتناحرة فى المناطق التى كان يحكمها خلفاء الحاج عمر تال الزعيم التكرورى وليصد فى الوقت نفسه قوات الاستعمار الفرنسية الرابضة بالقرب من بلاده فاستطاع فى زمن قصير أن يضم اليه تلك الدويلات بعد سلسلة من المعارك وباستلائه على كانكان ، أصبح يعرف بلقب الإمام ، واشتهر بتقواه وحماسته الدينية ، فقضى على تقاليد الشعوذة والسحر والاعتقادات الوثنية الفاسدة ، وأمر بانشاء كثير من الزوايا ، ومطالبة الأهالى بأن يرسلوا أبناءهم للمدارس الدينية ليحفظوا القرآن ، ويتلقوا مبادىء الأسلام وكان فى كثير من الأحيان يستوقف الأطفال فى الطريق ليمتحن معلوماتهم الدينية . ليس هذا فحسب ، بل انه كان يأمر شيوخ القرى بأن يتعهدوا بزراعة قطعة من الأرض ليعود نتاجها إلى خزانه الحكومة . كما انه كان يأمر رجال الحكم بأن يعملوا على تعيين الموظفين دون النظر إلى قبائلهم وأصولهم العريقة . حتى يندمج الأهالى دون أن يؤلفوا عصبيات متناحرة.

وكان ساموري يعتقد فى تنفيذ أهدافه الدينية والعسكريه على جيش كامل التنظيم ، تألف من ٧-١٠ فرق كبيرة للولايات، تقف كل فرقة مستعدة لرد أى اعتداء ضدها ، وكان نواة هذا الجيش فى بياندوجو .

وجهاد أحمدو الصمت ضد قوات الاستعمار صفحة رائعة من الوطنية التى تمتزج بالحماس الدينى ، فقد بدأت معاركه ضد الفرنسيين عام ١٨٨١ واستمرت عملياته ضدهم فى مد وجزر ، حتى استولوا على بيساندوجو قاعدته الحربية عام ١٨٩١ ، فاضطر أحمدو إلى التراجع إلى الشرق فى منطقة غينيا العليا وأعالى ساحل العاج حيث ألف دولة أخرى . ثم واصل كفاحه المرير بين عام ١٨٩٤/١٨٩٥ ، وفى الوقت نفسه،كان ابنه مساراتجى مورو، يقود جيشا آخر فى فولتا السوداء حيث واجه البريطانيين .

وقد أظهر الزعيم أحمدو مهارة فائقة فى قيادة جيوشه ضد أبرع القادة الفرنسيين الذين أوفدتهم فرنسا للقضاء على الروح الوطنية فى غرب أفريقيا ولا سيما معاركه التى دارت فيما بين ١٨٩١ — ١٨٩٧ ، فتقدموا اليه بطلب الصلح ، ولكن رفض كل جميع اقتراحاتهم لأنه أدرك فيها المساس بكرامته كزعيم أفريقى ، ولم يرض بوجود « مقيم » (Resideut) فرنسى، يتلقى منه التعليمات، فاضطرت فرنسا إلى إيفاد حملة كبيرة بقيادة الكولونيل «أرشينار» وتمكن هذا من زحزحة قوات الزعيم ، وأجبر أحمدو إلى الانسحاب نحو الجنوب ، ثم هاجم الفرنسيين ولكن تغلب هؤلاء عليه ، ومع ذلك فقد واصل جهاده . . .

وأخيراً وقع ساموري بعد حيلة دبرها الفرنسيون فى أسر أعدائه وكان ذلك فى ٢٩ سبتمبر ١٨٩٨ ، عند جويليمو (Guelémou) ونقلوه إلى تيجولى (Njole) بجزيرة أوجويه (L,Ogoou e) بجابون حيث قضى نحبه عام ١٩٠٠ .

لقد شوه التاريخ الاستعمارى سيرة البطل سامورى ، فصوره فى صورة بشعة ، وجعله وحشا شريراً محبا لسفك الدماء . والواقع أنه كان لم يكن سوى الزعيم الدينى والمجاهد الوطنى الذى كان يهدف دائما إلى تخليص وطن أجداده من عبث المستعمرين .

* * * *

كان من ثمرات حركات الإصلاح الدينية فى غرب افريقيا دعم نظم الحكم الإسلامية بين القبائل المسلمة ، وتحسين أسلوب جباية الضرائب وانتشار العدالة ، وتعميم التعليم ونشر اللغة العربية مع انتشار الإسلام ، وجاء فى أعقاب اجادة عدد كبير من العلماء الافريقيين اللغة العربية ، أن أسهموا فى الكتابة فى شتى أنوال التأليف : فى الدين والأدب ، والتاريخ ، كما

نهضت جماعات من الفقهاء المتخصصين فى الدين ، أسهموا فى القضاء على التقاليد الوحشية والمعتقدات الفاسدة التى كانت متفشية بين الأهالى ، فحل مجتمع حضارى جديد مكان المجتمع البدائى القديم. ولم يقف فى سبيل ذلك الثورى الحضارى سوى الأدغال الكثيفة ، فظلت فى ظلام لوقت ما حتى عبرها المعلم المسلم على دراجته حاملا القرآن وكتب التفسير فى شتى اللهجات

ولم يستطع الاستعمار الذى غزا تلك البلاد أن يقتلع من قلوب الأهالى الروح الدينية الأصيلة بالرغم من الجهود التى كان يبذلها رجال التبشير المسيحى .

وازدهرت الجمعات الإسلامية والمراكز الدينية والمعاهد الثقافية التى أسهم العرب فى اقامتها، ولقد كان للحركة التى نهض بها عثمان دان فوديو أثر عظيم فى تقدم أحوال المسلمين ليس فى نيجيريا فقط ، بل وفى غرب أفريقيا ، وكانت هذه الحركة اعلاء للثقافة العربية فى تلك البلاد ، فلم تكن دعوة فى الدين مبنية على صوفية ، انما كانت مبنية على حركة علمية وعلى دراسة أصيلة ذات أهداف مرسومة غير مرتجلة . والدليل على ذلك ماصدر من المؤلفات فى تلك الفترة الأولى من حركته. وأولها مؤلفات الزعيم عثمان نفسه ، فقد ألف أكثر من عشرين كتابا وبحثا ، فى الفقه والسياسة والجهاد ، وكان شقيقه الوزير عبدالله مؤرخا وشاعراً وأديباً ، عرف من مؤلفاته نحو ١٨ كتابا بعضها لا يزال مخطوطا ، وبعضها ترجم ونشر فى اللغات الأجنبية . كذلك كان محمدو بللو أديباً ورعا ومؤلفا. وإلى جانب هؤلاء من رجال الطليعة الفكرية فى نيجيريا، قام علماء آخرون حملوا رسالة الفكر المقدسة نذكر منهم :

الوزير جنيد السوكوتى ، عبدالله بن محمد، عبدالقادر بن مصطفى بن ابنة عثمان الفودى ، عبد الرحمن بن الخطيب ، وغيرهم .

وقد أدرك علماء الغرب من بريطانيين وفرنسيين منذ وطىء الاستعمار الأوروبي غرب أفريقيا — أهمية المخطوطات العربية التي ألفها هؤلاء العلماء فنقلوا كثيراً منها إلى مكتبات بلادهم، ودأبوا على بحثها وترجمتها ونشرها بوساطة المعاهد العلمية، ومع ذلك فلا تزال هناك إلى اليوم مخطوطات عربية كثيرة في مدن نيجيريا الشمالية لم تحقق بعد. ونأمل أن يتكاتف المسلمون على نشر هذا التراث الهام لخدمة العلم والدين، ولا شك أن الوقت قد حان للقيام بهذه المهمة الجليلة، والله مع العاملين.



(الفصل التاسع)

الطرق الصوفية فى غرب أفريقيا

يرتبط معظم (غالبية) المسلمين السودانيين فى غرب أفريقيا برجال الدين بوساطة إحدى الطريقتين القادرية أو التيجانية . ولقد كان انتشار هاتين الطريقتين ، ولا سيما الطريقة التيجانية ، عظيما جداً فى أثناء القرن ١٩ ولا يمكن تفهم انتشار الدعوة الإسلامية على حقيقتها تماما ، وكذلك المنافسات الداخلية ضمن المجموعات الإسلامية ، دون النظر إلى ارتباط الزعماء المسلمين بإحدى الطرق الدينية ، لأن النفوذ السياسى لأحدهم كان يرتبط إلى حد كبير بمدى الزعامة الدينية التى يتمتعون بها .

كان ابن مسرة هو الذى أدخل الصوفيه إلى الأندلس فى القرن العاشر الميلادى ، وانتقلت منها إلى شمال المغرب عن طريق صوفية الأندلس ، وقد قامت الصوفيه بدور هام ضد المرابطين وازدهرت على أيام حكم الموحدين ، وقد اشتهر فى زمانهم طائفة من علماء الصوفية ، ومن أشهرهم أبو مدين شعيب (ت ١٢٢٧ - ٩٨) وانتقلت منه بوساطة تلميذه عبدالسلام ابن مشيش (ت ١٢٢٧ - ٢٨) تعاليم الشاذلى (ت ١٢٥٨) ومنذ ذلك الحين انتشرت تعاليم الصوفية فى شمال أفريقية .

ويلاحظ أنه فى أثناء القرن الثالث عشر ، زاد عدد علماء الصوفية بشكل واضح ، وقد أقام هؤلاء زوايا كبيرة بعيدة عن المدن ، حيث كان يعيش شيخ الطريقة مع عائلته وخدمه وتلاميذه . وسرعان ما انتشرت تعاليم هؤلاء إلى المدن المجاورة ، كما تناقلها البربر الذين أصبحوا مسلمين صادقين . وفى القرن الرابع عشر كثيراً ما كان يتردد الناس على مؤسس الزاوية ليحظوا

ببركته ، فإذا توفى ودفن بزاويته ، فسرعان ما يصبح هذا الضريح مزارا مباركا يؤمه الناس أفواجا ، وأصبح مع مرور الزمن مكانا مبجلا عندهم ومحجا للشفاعة ، وفى القرن الخامس عشر وبفضل بعض الرجال الصالحين من أمثال ابن عبد الله محمد الجزولى المتصوف (توفى حوالى ١٤٦٨) . وكان بعد عودته من الحج ، قد انصرف إلى العبادة سنين طويلة ، وأنشأ طريقته الجزولية المنبثقة من الشاذلية ، (١) فتبعه أناس كثيرون فى المغرب الأقصى ، وألف « دلائل الخيرات » . وفى القرن المذكور انتقل نشاط الدعوة الصوفية والطرق إلى البربر القاطنين فى موريتانيا وفى منطقة الساحل الصحراوى ، واجتذبت الطريقة القادرية - الشيخ عمر وهو يؤدى فريضة الحج. ولما كان من رؤساء قبيلة كونتا العربية ، فقد كان لنفوذه القوى ان انتشرت القادرية فى السودان الغربى ، وبخاصة بين الزنوج المسلمين الرحل والمقيمين فى المدن ، وقد أقبلوا عليها بعد أن اتخذت أشكالا تطابق غاياتهم الدينية ، وقد وجدت الطرق أرضا صالحة بين قبائل السوننكة والديولا والهوسا . ولا سيما ممن يشتغلون بالتجارة ، ثم انضم اليها سكان القرى والمدن .

يقول بعض الباحثين إنه لم تكن الطرق الدينية وحدها قبل القرن التاسع عشر العامل الأوحد فى نشر الإسلام بغربى أفريقيا، ولكن سرعان ما كان الالتحاق بإحدى الطريقتين : القادرية أو التيجانية مراد لاعتناق الإسلام ، وأصبح كل مسلم يتبع واحدة من الطريقتين . وعلى سبيل المثال يمكن القول بأن إسلام منطقة فوتا جالون ، وارتباطها بالقادرية سارا معاً فى نهاية القرن ١٨ ، وذلك منذ اتصال رجال الدين من قبائل الفولة ومعهم زعماء النضال الذين عرفوا فى أواخر القرن١٨ وأوائل القرن ١٩ بالبكائية

---

(١) تعتبر الطريقه الدرقاويه فرعا من الشاذليه وصاحبها مولاى الدرقاوى ١٧٣٧-١٨٢٣

(فرع من القادرية) ؛ وكان بعض هؤلاء الزعماء ، قد تبعوا الطريقـــة الشاذلية .

القادرية فى غـــرب أفريقيـا (١)

دخلت القادرية أفريقيا الغربية فى القرن الخامس عشر بواسطة المهاجرين الذين قدموا من توات (واحة فى النصف الغربى من الصحراء الكبرى)، فاتخذوا من ولاته أول مركز لطريقتهم ؛ ولكن أحفادهم طردوا عن هذه المدينة فيما بعد ، فلجأوا إلى تمبكتو وأقاموا فى جبهة ثانية شرقى ولاته . .

وفى مستهل القرن ١٩ ، تلقى النهضة الروحية التى أثرت فى العالم الإسلامى تأثيراً عميقاً ، تدفع بالقادرية إلى تطور ونشاط جديدين ولم يمض زمن طويل حتى برز فقهاء متفقهون وجماعات صغيرة من المريدين قد انتشروا فى أرجاء السودان الغربى من السنغال إلى مصب النيجر ، ونهضت المراكز الرئيسية لتنظيم دعوة القادرية فى كنكا وتيمبو بفوتا جالون وموسرودو (بلاد الماندنجو) ، وكانت هذه المدن تؤلف مراكز النفوذ الإسلامى وسط شعب وثنى رحب بالقادريه باعتبار رجالها فقهاء ، وكتاب تمائم ومعلمين ، وتسلطت القادرية على من كان يتصل بها شيئاً فشيئاً ، وسرعان ما تطور الدخول فى الإسلام من حالات فردية إلى حالات جماعية صغيرة من هؤلاء الذين أسلموا ، كان يرسل بعضهم إلى مراكز الطائفة لإتمام دراستهم .

---

(١) نشأت القادريه فى العراق فى القرن ١١ ، أسسها سيدى عبد القادر الجيلانى ، ويتعبد أتباعها على مذهب الإمام مالك ؛ ويشتهر من أتباع هذه الطريقة فى أفريقيا الزنجية شعبة الكاوية كونته التى يتزعمها فى جنوب المغرب مشايخ محمد بو ؟ ثرفى ج ١٩١٧ ،

أوكانوا يبعثون إلى معاهد "قيروان أو طرابلس أو فاس أوالأزهر ، وربما قضوا فى تلك البلاد عدة سنوات ، حتى يتقنوا دراستهم الدينية ، ثم يعودوا إلى أوطانهم لنشر عقيدتهم . وكان نشاط القادرية فى الدعوة ذا طابع إسلامى ، يعتمد على الإرشاد وعلى أن يكون الواحد منهم قدوة لغيره . وبهذه الخطة برهن دعاة القادرية على أنهم أوفياء لمبادىء مؤسس الجماعة ، ولتقاليدها ولمبادىء منشئها الذى أوصى تلاميذه بهذا السلوك السمح (١)

يتفرع من القادرية شعبة البكائية ، ومؤسسها سيدى أحمدى البكاى الذى عاش فى نهاية القرن الخامس عشر وقد عمل على نشر دعوته فى الجزء الغربى من الصحراء الكبرى بينما كان يعمل التلمسانى محمد بن عبد الكريم المغيلى فى الجزء الأوسط من الصحراء وفى بلاد الهوسا . وقد ازدهرت البكائية مدة طويلة - على الأقل إلى عام ١٨٥٠ حينما سادت عليها التيجانية ومعها شعبة أخرى للقادرية عرفت باسم « الفضلية » .

وفى القرن ١٨ ظهر الفا إبراهيم الذى عمل على نشر الدعوة فى منطقة فوتا جالون على طريقة البكائية ،واتبعه نشاطه فيما بعد إلى غينيا والسنغال ولم يمض قرن من الزمان حتى استعادت القادرية نشاطها القوى بفضل الشيخ السيد الكبير التأرازى ، وكان واحداً من تلاميذ المرابط كونت مختار الكبير الذى كان قد لعب دوراً كبيراً فى تهدئة الأحوال بين القبائل وقد عمل أتباع الشيخ سيد التأرازى على نشر طريقتهم فى جمبيا وغينيا البرتغالية وليبريا وفى غانة أيضا (ساحل الذهب سابقا) . ثم تسلم لواء القادرية فيما بعد الشيخ الزعيم أحمدو وعثمان دان فوديو فى منطقة النيجر

---

*١ .الدعوة إلى الإسلام : ص ٣٦٥ - ٣١٦ .

الوسطى ، وفى نيجيريا والكمرون . ثم تولى شئون القادرية الشيخ سيدى بابا حتى عام ١٩٢٤ ، وكان عالما وأديباً واسع الفكر ، عمل على القضاء على كثير من البدع والتقاليد التى تفشت بين المسلمين . ويشرف اليوم على طريقة القادرية عبد الله ولد الشيخ سيدى ومقره فى بوكاويت بموريتانيا وقد قام بدور سياسى هام مع مختار ولد داده رئيس جمهورية موريتانيا الإسلامية .

الفضلية

مع أن الفضلية فرع من الطريقة القادرية ، إلا أنها تقاوم شعبة كونتا البكائية لأسباب تقوم على العصب والجنس ، وتنسب إلى مؤسسها الشيخ محمد فضل (١٧٨ - ١٨٦٩) ، الذى كان زعيما لأهل طالب مختارة وهم من الصناهجة الذين يعيشون فى منطقة الحوض بالصحراء وهم أصلا من البربر ، وسرعان ما التفو حول زعيمهم للتغلب على منافسيهم أهل زناته ، وتختلف الفضلية عن البكائية فى طريقة الذكر ، وأتباع الفضلية اليوم موزعون كما يلى :

١ — أهل (آل) الشيخ ماء العينين ويعيشون فى "الصحراء الأسبانية .

٢ — آل الشيخ الحضرمى وآل الشيخ سيدى الخير ، ويعيشون فى شرق موريتانيا .

المريدية

تتفرع من شعبة القادرية كونتا ، طريقة المريدية التى تزدهر فى السنغال فإنها أيضاً شعبة من القادرية كونتا ، وقد أسس هذه الطريقة رجل يدعى «أمادو بامباء (أحمدو) من قبيلة الويلوف وأصله من التوكولور ، ورغم أن أمادو (١) لم ينفصل تماماً عن طريقة القادرية ، فقد اضطهدته الإدارة الفرنسية

---

(١) أى احمد .

ونفته من البلاد مراراً لاشتغاله بالسياسة، غير أنه منذ عام ١٩١٢ قصر نشاطه على الشئون الدينية. وعند وفاته (١٩٢٧) كان عدد أنصاره قد بلغ حوالى ٤٠٠٠٠٠ شخص (١) ولا يزال قبره يزار إلى اليوم فى مدينة طوبة، ولا يزال أفراد أسرته على رأس هذه الطريقة.

وشعار الطريقة المريدية، اتخاذ الزراعة عملا أساسياً واعتبارها أشرف الأعمال. وقد أسست نفسها على أساس جماعى تعاونى، لكل فرد منهم نصيب معين من العمل، يقوم به تحت إشراف شيخ الطريقة من المرابطين.

طريقة التيجانية

نشأت هذه الطريقة فى شمال أفريقيا فى القرن ١٨، أسسها سيدى أحمد التيجانى المدفون بمدينة فاس. وتتميز هذه الطريقة بتزمتها الشديد ومناهضتها للطرق الصوفيه الأخرى. وانتشرت هذه الطريقة وهى طريقة الحاج عمر انتشاراً واسعاً فى أفريقيا السوداء. وتفرعت عنها شعبة حماالله.

نشأت هذه الشعبة فى مدينة «نيورو» وهى من بلاد السهل، وتقع على بعد ٢٥٠ كم إلى الشمال الغربى من باماكو عاصمة مالى، أسسها الشيخ «حماالله» وأصله من مسلمى البربر، وكان على جانب عظيم من الذكاء. بدأ دعوته بنفسه، فلزم التعبد والتنسك، والتف حوله جماعة من غلاة الأنصار، ظل عددها يتزايد يوما بعد يوم. وكان تأسيس هذه الطريقة إيذاناً بنشوب

---

(١) لا يقل اليوم عدد أتباع المريدية عن نصف مليون شخص.

م ٨ ـ التاريخ

النزاع والشغب بين أتباع الطرق المختلفة ، إذ باغت الحالون سكان البلاد المجاورة لهم عام ١٩٤٠، وأمعنوا فيهم تقتيلا، بل أحرقوا المصاحف فألقت الأدارة الفرنسية القبض على الشيخ ونفته إلى فرنسا ، وتوفى فى المنفى عام ١٩٤٢ ولم يخلفه أحد على المشيخة ، ولكن طريقته لم تتوقف عن الانتشار رغم ما طرأ عليها من التحريف .

كانت أولى الحركات الحربية التى قام بها أفراد التيجانية فى نشر الدعوة ، تلك التى تعزى إلى الحاج عمر الذى كان قد التحق فى هذه الجماعة على يد أحد زعمائها الذى تعرف عليه فى مكة . ولد عمر سنة ١٧٩٧ ، وكان ابناً لأحد المرابطين فى السنغال الأدنى وتثقف ثقافة دينية متينة ، واشتهر بعلمه وورعه حين خرج إلى الحج ١٨٢٧ ، ثم عاد إلى وطنه ١٨٣٣ ، ومن ثم نشط فى نشر تعاليم التيجانية ، وهاجم أبناء دينه لجهلهم مهاجمة عنيفة ، وخاصة شيوخ القادرية. وقد عبر الحاج عمر السودان الأوسط فظفر بكثير من الأتباع .

وما وافت سنة ١٨٤١ حتى بلغ جبال فوتاجالون ، حيث سلح أتباعه وبدأ سلسلة من المعارك فى نشر تعاليم الدعوة. وفى إحدى هذه المعارك لقى حتفه (١٨٦٥) . ولم ينجح ابنه « أحمدو » (أمادو) شيخو فى ضم مختلف الولايات فى مملكة أبيه إلا سنوات قلائل ، ثم صدعتها المنازعات الداخلية وقدوم الفرنسيين ، ومن ثم انتقلت أراضيها إلى حكم فرنسا .

وأهم كتاب يجمع بين مذاهب أتباع التيجانية ورياضاتهم هو « جواهر

المعانى وبلوغ الأمانى فى منى الشيخ التيجانى المعروف كذلك بالكناش (القاهرة عام ١٣٤٥ ﻫ) ، ، وهناك أيضاً «كشف الحجاب على من تلق مع التيجانى من الأصحاب ، صنفه أبو العباس أحمد بن أحمد العياشى (فاس ١٣٢٠ ﻫ ، ١٣٣٢ . ويسمى أصحاب هذه الطريقة بالأحباب وقد حرم عليهم الانخراط فى طريقة أخرى.

السنوسية

كانت برقة قبل الفتح الإسلامى تسمى «أنطابلس» ، وهى كلمة رومية معناها «خمس مدن» أسسها اليونان فى أزمان مختلفة.

بعد أن انتهى عمرو بن العاص من فتح الإسكندرية فى النصف الأخير من سبتمبر سنة ٦٤٢ م (٢١ﻫ) . قصد برقه وتم له فتحها سنة ٢٢ ﻫ . وفى هذا الدور من فتوح العرب، لم تتخذ عاصمة فى برقه . وفى القرن الثامن بنوا مدينة المرج وجعلوها عاصمة برقة . وهى اليوم عصمة الجبل الأخضر.

ولما كان عمرو بن العاص فى برقة ، وقبل أن يتوجه إلى طرابلس ، أرسل إلى زويلة من مدن إقليم فزان القديمة جيشاً من المسلمين بقيادة عقبة بن نافع فوصلها وتم فتحها على يديه فى نهاية عام ٢٢ ﻫ وفرض على أهلها ٣٠٠ رأس من العبيد . وفى أثناء مسير عمرو إلى طرابلس فتح مدينة سرت ثم لبدة التى تقع شرقى مدينة طرابلس بنحو تسعين كم .

وصل عمرو إلى طرابلس وحاصرها عندما امتنع أهلها عن التسليم وتحصنوا داخل السور المنيع، وبقى المسلمون على حصارها نحو شهر وكانت رسلهم تغد وتروح حول السور علهم يجدون فجوة توصلهم إلى داخل

المدينة ، فلم يجدوا وأخيراً تم استيلاء العرب على المدينة (٢٢ هـ) ، واتجه عبد الله بن الزبير إلى صبراته فافتتحها بسهولة .

ويمكن القول أن الدور الأول من فتح طرابلس انتهى بعد رجوع عمرو إلى مصر بقليل .

كان حادث قتل عمرو سبباً فى شغل المسلمين بعض الوقت ، ولم يطل الأمر بسكان طرابلس حتى ارتدوا عن الإسلام ونقضوا ما عاهدوا عليه عمرا . ثم انقطعت صلة العرب بطرابلس نحو خمس سنوات وتنوسيت أعمالهم فيها .

وفى أيام خلافة عثمان حشد جيش كبير سار إلى أفريقية بقيادة عبد الله ابن أبى سرح وسمى هذا الجيش العبادلة لأنه اجتمع فيه سبعة من كبار الصحابة كل منهم اسمه عبد الله . ولما وصلوا برقة وجدوا فيها عقبة بن نافع فانضم اليهم ومن معه من المسلمين. وقصد الجيش أفريقية بعد تقدمه طرابلس ثم نشبت المعارك بينهما طاحنة وقد أبلى العرب فيها بلاء مكنهم من إحراز النصر وظهر الضعف فى صفوف الوالى البيزنطى ، فرأى من الخير أن يجنح إلى الصلح وتقدم إلى ابن أبى سرح بطلبه . واتفق الطرفان على أن يدفع الروم ألفى ألف وخمسمائة ألف دينار للعرب ، فدفعوها لهم وارتحل العرب عن أفريقية (١)

انتشار السنوسية :

صاحب الدعوة السنوسية السيد محمد بن على السنوسى الخطابى الحسنى الإدريسى وهو من سلالة ملوك الأدارسة الذين أسسو الدولة الإدريسية ،

(١) الطاهر أحمد الزاوى : تاريخ الفتح العربى فى ليبيا : ص ٥٣ .

عملوا على نشر الإسلام وتوطيد أركانه فى الغرب (٢) . وقد ولد صاحب الدعوة ببلدة مستغانم بالجزائر فى ١٢ ربيع الأول ١٢٠٢ (٢٢ ديسمبر ١٧٨٧) على ضفتى وادى شلف وبينا من ضواحيها فى محلة يقال لها (الواسطه) (٣) .

وبعد عامين تقريباً من مولده توفى والده السيد على فتولت السيدة فاطمة تربيه الابن وتنشئته . وقد شغف بتحصيل العلم ، فقرأ على السيد محمد السنوسى القرآن الكريم وأتقنه وأخذ عنه العربية والفقه والحديث والتصوف ، كما درس على أيدى المعروفين من العلماء فى بلدة مستغانم .

كان السيد فى حداثته يميل إلى الانزواء والانفراد ويمضى وقته فى التفكير فيما يرى حوله من أحوال الإسلام ، وكان شديد الشعور بضرورة العمل من أجل إحياء الملة الإسلامية وتوحيد الصفوف فى العالم الإسلامى ، والنهوض بالدين الحنيف نهضة قوية . لم يشعر بهذا إلا بعد أن نظر إلى حقيقة حال العالم الإسلامى وعرف جيداً أن هذا العالم مريض ، بل وفى حال التدهور المخيف ، فطن إلى أسباب هذا التدهور وفهمه وأدركه . وهذا لم يكن فى نظره إلا نتيجة خمول العلماء والشيوخ وانصرافهم إلى الراحة والدعة وابتعادهم عن إجهاد الجسم والعقل فى نشر كلمة الله العلى العظيم وإحياء نور الإسلام .

لم يكتف العالم الجليل بما حصله من العلم فى بلده بل قصد إلى فاس محط رجال العلماء . ومكث بها سبع سنين تقريباً (١٨٢٢ - ١٨٢٩) فأخذ العلم بالرواية عن أفاضل علمائها من أمثال الشيخ حمودة بن الحاج وسيدى

---

(٢) المعروف أن أول خلفاء الادارسة هو ادريس الأكبر بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى وينتهى نسبه إلى الإمام على بن أبى طالب .

(٣) دكتور محمد فؤاد شكرى : السنوسية دين ودولة ، ص ١١ — ١٤ .

حمدون بن عبد الرحمن وسيدى الطيب الكيرانى وغيرهم . ولم يلبث طويلا حتى اجتاز مرحلة طيبة فى العلوم التى درسها . فحصل على المشيخة الكبرى وعين مدرساً بالجامع الكبير بمدينة فاس. وفيها نال شهرة علمية عظيمة ولكن دعوته إلى العدل والخير وجمع كلمة المسلمين وتطهير النفوس لم تثمر ثمرتها، وتنبهت حكومة السلطان مولاى سليمان إلى دعوته وتلمست الخطر من جانبها وخشيت أن تتحول إلى دعوة سياسية تعصف بالحكم والسلطان . وعلى ذلك شددت الحكومة فى مراقبة السيد فوجد أن لا فائدة من بقائه بفاس وقرر الارتحال عنها فى أواخر عام ١٨٢٩ . ولكن لم يعد إلى مستغانم بلده وصار يتنقل من مكان لآخر حتى بلغ عين مهدى، فدرس بها الطريقة التيجانية (وكان فى أثناء إقامته بفاس قد اهتم بدراسة الطرائق القادرية والشاذلية والدرقاوية والناصرية والحبيبية والجزولية وغيرها)، ثم قصد لاغوات لأهمية موقعها بجنوب الجزائر بجوار خطة توات التى كانت تعتبر أحدث مفاتيح الصحراء ، فمكث بها بعض الوقت يلقى دروساً فى الفقه والشريعة ، ثم ارتحل منها إلى مسعد ثم إلى جلفه ومنها إلى أبو سعدة ، فأقام بها بضعة أشهر ، حدث فى أثنائها مجىء الحملة الفرنسية إلى الجزائر ثم سقوط مدينة الجزائر فى أيدى المعتدين، وفكر فى العودة إلى وطنه لكنه رأى من الخير أن يستمر فى سيره صوب الشرق .

غادر بو سعده ومر ببلدة تمسين ثم زار قابس وطرابلس الغرب وبنغازى وفى جميعها كان لا يشتغل الا بالوعظ والإرشاد لمصلحة الإسلام .

وقرر أن يولى وجهه شطر مصر وكان من أجل علمائها الشيخ حسن العطار والشيخ الأمير والشيخ القويسى وغيرهم ، فحضر السيد السنوسى مع هؤلاء العلماء واجتمع بهم ، ولم يلبث أن أصبح موضع خوف ووجل

من جانب هؤلاء العلماء الذين كانت تربطهم بالسلطات الحاكمة روابط وثيقة ، فلم تطب نفسه للإقامة بالأزهر ، ثم لم تلبث أن زادت متاعبه عند ما وجد نفسه أن يبدأ هو بإلقاء الدروس بدلا من الاقتصار على تلقى العلوم وحضور الدروس على أمل أن يستطيع نشر دعوته وأن يبث تعاليمه. فأثار بعمله هذا معارضة شديدة من جانب شيوخ الأزهر ، ثم زادت معارضتهم له لدرجة أن انبرى أحدهم (الشيخ حشيش) مخطئا السيد وطلب من المستمعين الابتعاد عنه ، كمبتدع فى الدين . ولذلك غادر السيد مصر قاصداً الحجاز ، وكان لتلك الزيارة أثر كبير فى قيام الدعوة السنوسية وظهور شأنها (١). وفضلا عن هذا فقد اجتهد فى دراسة المذاهب الإسلامية لكى يحقق مخاطبة جميع العالم الإسلامى ولكى يتسنى له إقناع هذا العالم باتخاذ مذهب واحد يعينه على الاتجاه نحو الاتحاد الإسلامى .

وفى مكة التقى عالمنا الجليل - بالعارف بالله السيد أحمد بن إدريس الفاسى الذى كان رئيساً للخضيرية منذ ثلاث وثلاثين سنة. فاجتمع به السيد ولازم دروسه وتوثقت العلاقة بينهما . وظل أمرهما على ذلك حتى ارتحل الشيخ إلى اليمن بسبب ما لقيه من عنف رجال الحكومة ومعارضة علماء مكة .

وتبع السيد محمد بن على السنوسى أستاذه إلى اليمن وأقام معه هناك حتى توفى السيد بن إدريس فى عام ١٨٣٥ ، ثم عاد ثانية إلى مكة وانتقل منها إلى برقة فى عام ١٨٤٠ وتبعه كثير من أهل طرابلس الغرب كانوا قد حضروا إلى السيد لينالوا البركة منه . وكان هؤلاء هم نواة نشر الدعوة السنوسية فى برقة وطرابلس وذلك بفضل جهودهم الصالحة وما أسهموا به فى بناء بيوت العبادة والزوايا العديدة .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٠.

استقر به المقام فى برقة بزاويه الجغبوب حتى وافاه الموت فى عام ١٢٧٦ هـ (١٨٥٨ / ٥٩) بعد أن وضع أ قامة السنوسية التى كتب لها الحياة والبقاء ثم تابعة الذيوع والانتشار من بعده .

كان السيد رحمة الله قد استطاع قبل وفاته أن يجعل من جغبوب مركزا لنشر الإسلام بين الزنوج الوثنيين فى واداى وفى الأقاليم المجاورة لها . فقد تغلغلت السنوسية فى عهد السيد فى تلك الجهات ولا سيما واداى . التى قبل سلطانها محمد شريف أن يدخل الطريقة السنوسية فى سلطنته وظل من أكبر أتباع السيد ومريديه والصادعين بأمره حتى وافته المنية .

هكذا كانت السنوسية عند وفاة السيد محمد بن على السنوسى قد توطدت أركانها نهائيا وانتشر نفوذها حتى قطعت شوطا بعيداً فى سبيل قيام الدعوة والإرشاد (١) ورفع لواء الجهاد والإرشاد من بعده ابنه السيد محمد المهدى السنوسى (ولد عام ١٨٤٤) الذى كان انتقل إلى الحجاز حيث بقى مدة يتعلم على أيدى شيوخ السنوسية بزاويه أبو قبيس بمكة المكرمة ثم أرسله والده إلى زاوية جغبوب الجديدة فى عام ١٨٥٧ : وعندما توفى والده العظيم بعد عامين من قدومه إلى جغبوب كان السيد المهدى يبلغ الستة عشر عاماً ويقوم على إرشاده وتثقيفه مع أخيه الأصغر السيد محمد الشريف جماعة من خلفاء الإخوان السنوسيين وشيوخهم وسرعان ما صار السيد المهدى يحتل مكانة رفيعة فى قلوب الإخوان والأتباع ومريدى الطريقة . وعلى أيديه توطدت أركان الإمارة الجديدة ، وامتد نفوذ السنوسية فى الأقطار الليبية وفيما جاورها من البلدان ، ومما ساعد على ذلك طول مدة إمارته التى بلغت حوالى الأربعين عاما ونيف منذ توليته حتى وفاته فى عام ١٩٠٢ .

---

(١) محمد فؤاد شكرى المرجع نفسه ص ٤١ .

وفى أيامه أنشأ زوايا عديدة ، امتدت فى طرابلس وبرقة إلى واحات الوجنقات وتقع وراء دارفور إلى الشمال - عدا زوايا السودان ثم زاوية كانو فى بلاد النيجر ،

والزوايا التى أسسها السيد فى واحة ودن وواحة قرو ثم عين جالك وهذا إلى جانب زاوية التاج المشهورة بواحة الكفرة . . الخ . وكان عدد الزوايا التى أنشئت فى حياة والده السنوسى الكبير اثنتين وعشرين زاوية، وأما فى حياة السيد المهدى فقد بلغت حتى عام ١٨٨٤ نحو المائة منتشـــرة فى برقة وطرابلس وعلى طريق غدامس وفى فزان وفى واحات جالو وأوجـــلة والجغبوب وعلى طريق مصر وطريق واداى ثم فى واداى وفى بلاد العرب وفى مصر ومراكش وفى بلاد التوارق وفى أنسـاله وتوات وغير ذلك. وقد عنى السيد المهدى بتعمير وغرس الأشجار بهذه الزوايا فضلا عن أنها كانت مراكز للتعليم ولنشر هداية الإسلام وبذر بذوره ولا سيما بين الوثنيين فى أواسط أفريقيه .

وقد كانت العلاقة طيبة جداً بين الخليفة العثمانى والسنوسى الكبير ونجله . وقد اعترفت الدولة العثمانية عن طريق واليها بالزعامة والإمارة ومنح الباب العالى السنوسيين فرمانات سلطانية بأيديهم أعفتهم بها من الأموال الأميرية والأعشار الشرعية ولم يلبث السيد محمد بن على السنوسى الكبير أن نال من السلطان عبد الحميد فى عام ١٨٥٥ فرمانا جعله بمثابة الأمير المستقل (١)

وكانت هناك نقطة تحول هامة فى تاريخ انتشار السنوسية ، وهى عند

---

(١) راجع عن علاقة السنوسية بحكومة الباب العالى كتـاب الدكتور محمد فؤاد شـكرى السنوسية دين ودولة . ص ٧٥ - ٨٨ .

ما قرر السيد محمد المهدى الانتقال من الجغبوب إلى واحة الكفرة . وكان يعنى من ذلك مقاومة جهود المبشرين فى إفريقية الغربية ، ثم نشر الهداية والعرفان عن طريق الدعوة إلى الإسلام بين قبائل التبو والتوارق والإبر وغيرهم من الوثنيين ، أضف إلى ذلك أن السيد المهدى كان يدرك أن توثيق عرى الصداقة مع سلطنة واداى وإنشاء علاقات ودية مع بقية الإمارات الإسلامية فى جهات بحيرة تشاد مثل برنو وكانم وغيرها خير وسيلة لانتشار الدين الإسلامى ومبادئه القويمة وتعاليم السنوسية ثم تجنب الأخطار التى كانت تهدد تلك البلاد . وأهمها خطران . أولهما قيام سلطنة رابح المشهورة فى السودان الغربى ، وثانيهما عزم الفرنسيين على التوغل فى القارة وبسط سلطانهم على الإمارات الإسلامية فى إفريقية الغربية (١) .

وأحداث رابح فى تلك البلاد سواء أكانت ضد الوطنيين أو الفرنسيين طويلة لانستطيع إيضاحها هنا . ولكن كان فى آثارها الخطيرة أن واداى التى ظلت طوال عهد السيد المهدى تقريبا من أشد الإمارات الإفريقية الإسلامية ولاء وإخلاصاً للسنوسية ، لم تلبث أن اعترفت فى نوفمبر ١٩٠٣ باحتلال الفرنسيين رسمياً للباجيرمى وكانم وغيرهما من الأقطار التى دانت لسلطانهم ، ومع ذلك فقد استطاعت السنوسية أن تسترد شيئا من نفوذها القديم فى واداى. بل وتمكنت بعد ذلك من تحريض سلطانها «داود بن على» استئناف الجهاد ضد الفرنسيين . ولكن لم يكن مقدرا للسيد محمد المهدى نفسه أن يشهد حوادث هذا الجهاد الأخيرة . فقد توفاه الله فجأة وهو فى «قرو» فى أول يونيو سنة ١٩٠٢ . ونقل جثمانه الطاهر إلى الكفرة .

---

(١) المرجع السابق ص ٩١ — ٩٤ .

وفى الوقت الذى توفى فيه السيد المهدى (١٩٠٢) كانت السنوسية قد بلغت الذروة فى الانتشار (١) .

ولما كان السيد محمد إدريس أكبر أنجال الأمير الراحل صغير السن فقد أوصى السيد المهدى بزعامة السنوسية لابن أخيه السيد أحمد الشريف على أن يكون السيد أحمد فى الوقت نفسه وصياً على السيد محمد إدريس نجل السيد المهدى الأكبر والخليفة الشرعى .

وشاهدت أيامه الجهاد الكبير ضد الايطاليين الذين انتهزوا فرصة انهماك تركيا فى الحرب البلقانية وشنوا اعتداءهم على ليبيا . واستطاعوا السيطرة على الشريط الساحلى بالرغم من جهود السنوسيين إلى جانب القوات التركية .

وفى الحرب العالمية الأولى وقف السنوسيون إلى جانب تركيا وألمانيا وهاجموا فى شتاء عام ١٩١٤ — ١٩١٦ مصر واستولوا على السلوم ، وقد هدد السنوسيون مصر عدة مرات أخرى خلال صيف ١٩١٦ ولكن طاقتهم العسكرية كانت قد تضاءلت كثيرا . وفى أعقاب الحرب العالمية الأولى أخضع الجنرال جرازيانى طرابلس الغرب نهائيا ، وكان الأمير السنوسى قصد إلى أنقرة رجاء أن يستطيع هناك مواصلة النضال فى سبيل مبدئه وعقيدته . ولكن الدولة التركية الجديدة انتهجت سبلا مغايرة ، فاضطر إلى وقف نشاطه والاخلاد إلى السكينة .

ولما توفى السيد أحمد الشريف فى عام ١٩٣٣ فى الحجاز انتقلت الزعامة إلى الأمير السيد محمد إدريس (ولد ١٨٨٩/١٨٩٠) وكان لا يطيق العيش

---

١) تقولا زيادة : برقة ص ٦٢ .

تحت كنف المعتدين على بلاده ، فالتجأ إلى مصر منذ عام ١٩٢٣ وظل يرعى أبناء وطنه الشجعان إلى أن انضم إلى الحلفاء فى أغسطس ١٩٤٠ ليعمل على تحرير بلاده .

الفصل العاشر

الإسلام بين قبائل غرب أفريقيا

يستحيل تقدير أثر الإسلام بين شعوب السودان فى غرب أفريقيا دون أن ننظر بعين الاعتبار إلى سكان جنوبى الصحراء الكبرى ، ذلك لأن السود يؤلفون عنصراً هاما بين سكان تلك الصحراء التى يتوقف اقتصادها الزراعى عليهم ، ولأنهم يشتركون مع المغاربة والطوارق وقبائل التيدا فى نظمهم الاجتماعيه ، ويتكلمون لغاتهم أيضاً ، بالإضافة إلى أنهم من النواحى الثقافية يتبعون عالم الصحراء لا عالم السودان ، ولذلك كله لا نستطيع أن نتجاهلهم .

ويعرف سكان الصحراء الكبرى الغربية باسم المغاربة ، وهى تسمية غامضة ، وكثيراً ما أطلق عليهم اسم البيضان أى البيض ، كما يطلق على السود السودان ، وهم ليسوا شعباً من جنس واحد متجانس . مع أنهم يتكلمون اليوم إحدى اللهجات العربية وهى الحسانية ، بل هم خليط من البربر والعرب والسود ؛ ارتبطوا معاً بروابط الصلات الاجتماعية واللغة أيضاً .

فمنذ القرن الثالث عشر ، غزا بعض طوائف العرب الحسانية جنوبى مراكش ، ثم تقدموا تدريجياً إلى الجنوب ، ووصلوا إلى السنغال فى بداية القرن الخامس عشر ، وسرعان ما انتقل اليهم الإشراف السياسى على البربر فى الغرب ، فاستعرب هؤلاء بدورهم ، وهم مثل جميع سكان الصحراء والمغاربة تضمهم نظم بجموعات اجتماعية أهمها الزوايا (١) ، أو عشائر خاضعة لرياسات دينية .

ويتكلم الطوارق أو الملثمون ، لغة مشتركة تعرف باسم تماهك إحدى فروع لغة البربر ، ويحتفظون بأبجدية ليبية بربرية ، وينقسمون إلى مجموعتين : رحل يرعون الإبل ويعيشون فى جبال أواسط الصحراء ، وهؤلاء يسكنون الصحراء فى شمال منحنى النيجر ومنطقة جرمة الداخلة فيه ، وقد تغيرت خصائصهم الطبيعية وأساليب معيشتهم وعاداتهم ، لأنهم يعيشون فى بيئة مختلفة عن البربر ويختلطون بالسود ، ولقد اكتسبوا لوناً أسود حتى أصبح من الصعب جداً تمييزهم عن السنغاى والهوسا ، وهم يعيشون فيما يشبه الاتحادات القبلية تحت حكم زعيم يعرف باسم أمينوكال له سيادة اسمية فى داخل نطاق طبقى يقسم القبيلة إلى شرفاء وتوابع، وعشائر خاضعة لنظم دينية ، وعبيد سود ، وطبقة أصحاب الحرف . ويقنع الطوارق بالزواج من امرأة واحدة ، وللمرأة فى مجتمعهم حظوة ومكانة.

---

(١) يدخل تحت هذا التخصيص فى جنوب موريتانيا القبائل العربية الحسانية : ترازه ، وبركته ؛ وبانى البربر الخاضعة لهم : زناته ، وهرتين . وفى الحوض يقابلنا أولاد دليم والرجيات والمشضرف وطلب مختار وجرجنكة وشرفاء تضنت وولاته رنيمة فى شمال منحنى النيجر وفى أزوار ويوجد حوالى ٣٠٫٠٠٠ من الكونته و"بزبيش ، ولقد اكتسبوا لونا أسود حتى أصبح من الصعب جداً تمييزهم عن شعب السنغاي والهوسا.

ولم يمض وقت طويل حتى اجتذبت الإسلام هذه القبائل إليه ، كما أن تأثيره فيهم لم يتغلغل فى نظم معيشتهم الاجتماعية .

ومن سكان الصحراء ؛ التيدا أو التوبو (٢) كما يعرفون عند أهل كانم، أما الذين يعيشون فى الشمال فيعرفون باسم تيدا ،والذين يقطنون فى الجنوب يعرفون باسم دازا ، ويعرف عرب شوه أهل واداى باسم قراعان ، ويطلق الكانميون على الطوارق أكواده ، ويعيش التوبو فى بقعة كبيرة من الصحراء الكبرى الشرقية ، تمتد من صحراء ليبيا فى الشمال إلى منطقة بحيرة تشاد فى الجنوب ، ولا يزيد عددهم على مائة ألف نسمة ، وتسكن مجموعاتهم الهامة السلسلة الجبلية من تبستى وبوركو ، وجزء من ايندى ، ومجموعة واحة كوار ، والأجزاء الشمالية من كانم وواداى ، وهم سود نحاف الأجسام قصار القامة ، سماتهم لطيفة ، وشفاههم دقيقة ، وشعرهم ناعم ، يتكلمون لغة سودانية من لغات الكانورى ، وتربطهم الصلات الثقافية مع الطوارق ولكنهم يمتازون عنهم والذين يعيشون منهم فى الغرب رحل رعاة،أماالذين يعيشون فى الشرق فيشتغلون بالزراعة ويعنون بأحراش النخيل ويعتمدون على تجارة القوافل، ويهيمن على السلطة التنفيذية مجلس من الأشراف ، وغالبية التيدا يتزوجون من امرأة واحدة وتمتاز المرأة باستقلالها،وقد قبلت النظم الإسلامية الكثير من أوضاع معيشتهم التقليدية.

فإذا انتقلنا إلى شعوب السودان الشمالى قابلتنا الشعوب الآتية :

١ — الفولة أو الفلبة ، ويطلق الهوسا عليهم اسم فلانى وكذلك المغاربة أما الكانورى فيعرفونهم باسم الفلانه وكذلك التيدا وفى شرق

---

(٢) أى أهل تبرو أو تبستى Tibisti

السودان ، ويطلق عليهم الماندى اسم الفولة أو فيلة ، والفولة مجتمع طبقى يضم أشتاتاً مختلفة من المجموعات ، ويشتركون فقط فى اللغة التى يتحدثون بها ، وهم ينقسمون إلى حمر وسود ، (١) . والفولة الأصليون ليسوا سوداً ، وهم رعاة ورحل ويظهر أن هؤلاء اتصلوا بالرحل السود فى جنوبى الصحراء (لنبى) واكتسبو لغتهم . .

وتعيش جماعات قليلة منهم فى مناطق لا يقطنها غيرهم مثل سهوب فوتا بالسنغال ، أماالغالبية فتعيش بين السود الزراعيين ، ويدفعون لهم ما يشبه الجزية أو ينفقون معهم على أن يزعوا غنمهم فى الأراضى غير المزروعة ، ويقدمون لهم فى مقابل ذلك اللبن والزبدة ويربى الرحل الماشية، ثم يبيعونها لدفع ما عليهم من الضرائب ، وهم يقيمون فى أكواخ داخل ما يشبه المعسكرات، وليس للإسلام سوى أثر دينى قليل. وهم فى نظر الفولة السود وثنيون حتى يعتنقوا الإسلام ، والعنصر الأسود من المزارعين المقيمين هو الغالبية ، وهم أقوى من المسلمين فى غربى أفريقية ، وهم فقراء إلا أن شعورهم الجنسى قوى ، ويضيف الإسلام لهم السيادة الدينية . وسرعان ما يلبون نداء الجهاد ضد الوثنيين ، ويؤسسون دولة كما حدث فى فوتا وتورو وبندو وجالون وماسينا وبلاد الهوسا وآدماوة ، وتكون النتيجة أن يصبح الزعماء الدينيون قادة الجهاد طبقة أرستقراطية ، أما الزنوج المغلوبون على أمرهم فيتوزعون على الطبقات الاجتماعية المختلفة .

٢ — الولوف والتوكولور Wolof - Tucolor :

ثم تقابلنا مجموعة الشعوب السنغالية ، وتشمل الولوف والتوكولور

---

(1) Meek : the northern tribes of Nigeria

والسرر والجولة. فالولوف والتوكولور مسلمون، والسرر والجولة يعتنقون المسيحية ويزرع الجميع الدخن وينتجون الفول السودانى . والطبقة الحاكمة فى السرر ومثيلتها المحاربة تحولوا إلى الإسلام ، أما الغالبية فبقوا على الوثنية، مع أن المسيحية تنتشر بين القوم، والولوف وهم أكثر الشعوب تطوراً كانوا يؤلفون مجموعة من خمس ممالك هى السالوم والججور والبشول والوالو والجولوف ، وهم يسكنون مساحة كبيرة بين السنغالى وغمبيا . ومع أن نفوذ الإسلام فى تلك البقعة بدأ منذ القرن الخامس عشر فإن الدين الحنيف حتى القرن التاسع عشر لم يجتذب الغالبية من السكان .

ويمكن تمييز التوكولور (١) عن الفولة بحسب العمل الضخم الذى قاموا به فى نشر الإسلام ، وهم مجموعة من نوع مختلط من الزنوج يضم الفولة وقلة من المغاربة . وقد اعتنقت طبقتها الحاكمة الإسلام فى القرن الحادى عشر ، وموطنهم الرئيسى فى فوتا السنغالية حيث يقومون على شاطىء النهر من دجانه إلى منتصف المسافة المؤدية إلى ماتم وباكل .

٣ — ثم تقابلنا قبائل المندى الشمالية ، وتضم الماندنكة والبمبارا والديولا والسوننكى والكاسونكى والبوزو .

٤ — ويعيش السوننكى فى مناطق الساحل،وقد سكنوا قديماً الصحراء وامتزجت بهم عناصر البربر والفولة ، وهم رحالة أو مشتغلون بالزراعة، وكان تجار السودان الغربى هم السكان الأصليين جنوبى الصحراء فى مملكة

---

(١) توكولور أو توكرور مصطلح يطلقه الولوف الزنوج الذين إتصلوا بهم ويتحدثون نفس اللغة التى يتكلم بها الفولة ، أطلقه المؤرخون العرب على جميع الزنوج فى السودان الغربى .

غانه، وقد اعتنقوا الإسلام فى زمن مبكر، فأثر كثيراً فى حياتهم الاجتماعية وقاموا بنشره فى السودان .

ويقدر عدد الماندنكة (الماندنجو والمالينكى) بحوالى مليون وربع مليون نسمة، وينقسمون إلى مجموعات، تتخذ كل منها اسماً مشتقاً من إسم المكان الذى تعيش فيه .

٥ — ويتكلم البمبارة (بأمانة) والديولا نفس اللغة ويشتركون فى النظام الاجتماعية والخصائص الثقافية، ولكنهم يختلفون بعضهم عن البعض الآخر فى نواحى التاريخ والدين والموطن إلى حد ما . ويعتبر هؤلاء وثنيين، أما الماندنكة فأشباه مسلمين، والديولا مسلمون، وكان الماندنكة هم الشعب المسيطر على المنطقة بين نيجر والأطلسى، وبالرغم من اعتناق حكام مالى والتجار الدين الإسلامى، ظل زارعو الأرض متمسكين بعقائدهم الوراثية، وفى المائة والخمسين سنة الأخيرة انتشر الإسلام؛ ويعتنقه اليوم حوالى ٥٠ ٪ من السكان، ومع ان البمبارا قد اتصلوا بالإسلام منذ قرون، فلا يعتنقه منهم أكثر من ٢٥ ٪ .

أما الديولا . ومعناها التاجر فى لغات السوننكة والماندنكة والبمبارة فيقطنون البقعة التى تمتد بين منحنى النيجر ومنطقة فولتا . .

ومن الماندى الشماليين — البوزو والسمونو. والبكاسونكى، ويقوم الأول بصيد السمك والزراعة ويقطنون شواطىء النيجر ونهر بنى بين سيجو وديولا ونبافونكى، وقد انتشر الإسلام بينهم منذ القرن الرابع وأسلموا جميعاً فى القرن التاسع عشر، وأما السمونو فقد اعتنقوا الإسلام

حول عام ١٨٦٠ ، وهم اليوم يدعون إليه على الشاطىء الأيمن للنيجر، وينتشر الإسلام بين الكاسونكى الذين يعيشون فى كايسر وبافولابى ونيورو منذ أزمان بعيدة .

٦ — وننتقل بعد ذلك إلى قبائل فولتا الشمالية ، فنلاحظ أنه ليس لهؤلاء أى استعداد لقبول الإسلام وأنهم لم يتأثروا بالدعوة بالرغم من اتصال جماعاتهم الشمالية بالمسلمين منذ قرون عدة ، ويعيش بين قبائل فولتا شعب « موشى » ، ويمتاز هؤلاء بتكوينهم السياسى والاجتماعى . ومعنى موشى طبقة المحاربين المهاجرين ، وقد انقسموا فى القرن السادس عشر إلى مملكتين : الواجادوجو ، والواهيجويا ، واستقرت دولتاهما فى القرن التاسع عشر ، وقامت على جانبى منطقتهما دولة الفرلة وماسينا وجواندو ، واعتنق الإسلام حوالى تسعين ألفاً من الواهيجويا وعشرين ألفاً من الموشى (Mossi) .

٧— ويجىء من بعدهم السنغاى والزيرما والدندى ، وهؤلاء يعيشون فى الأراضى التى تحف بالنيجر الأوسط والتى تفصل بين عالم الماندى والسودان الأوسط .

والسنغاى (يطلق على البلاد وليس على الناس) يبلغ عددهم ٢٥٠,٠٠٠ نسمة ، ويعيشون فى محاذاة منحنى النيجر من موبتى عبر المنطقة البحيرية وتنبكتو إلى جاو (جاغ) . ويعيش الزيرما (٨٠,٠٠٠ نسمة) جنوبى جاو، ويعيش فى الجنوب منهم الدندى (٢٤,٠٠٠ نسمة) . وأهل السنغاى زنوج يقطن الحضريون منهم فى جنى وتنبكتو وجاو ، وقد امتصوا الطوارق والمغاربة الذين وفدوا عليهم ، وهؤلاء يؤلفون العناصر الأرستقراطية ،

ومنها الرماة سلالة الجنود المغاربة والأندلسيين الذين قضوا على إمبراطورية سنغاى .

أما أهالى زيرما الذين هاجرو إلى النيجر الأوسط منذ أربعة قرون فلم يتأثروا بالإسلام إلا قليلا . حتى قامت ثورة الفولة مبتدئة فى نيجيرية فى أوائل القرن التاسع عشر تحت زعامة عثمان دان فوديو .

والهوسا إحدى اللغات الحامية الشائعة ويتكلمها حوالى ٥٫٤٨٠٫٠٠٠ نسمة فى شمال نيجيريا ، كما أنه فى جمهورية النيجر نصف مليون يتحدثون بها ، ويشتغل الهوسا بالزراعة وصناعة الحصر والجلود والتجارة، وقد اعتنقوا الإسلام فى أعقاب ثورة الفولة وغزوهم أقاليم الهوسا فى أوائل القرن التاسع عشر ، وسرعان ماانتشر الإسلام بينهم ، وهو يحظى بنسبة ٧٥ - ٨٠٪ أما البقية الوثنية فواقعة تحت تأثير المسلمين .

٨ — ويؤلف شعوب تشاد عناصر متباينة ، نجدهم فى برنو وباجرى ووادای ، وهم زنوج اختلطوا بطوائف التيدا والفولة والمغرب ، ويتحدثون عدة لهجات ، وقد اتصل بهم الكانمبو والكانورى والبجرميون وأهل وآداى ، واعتنقوا الإسلام ماعدا بعض الأقليات فى الجنوب .

ويشتغل الكانمبو بالزراعة ، ويعيشون فى كانم شمال شرقى بحيرة تشاد وفى منطقة ضيقة حول شواطىء البحيرة الغربية والشمالية ، وقد دخل الإسلام بلادهم فى القرن الثانى عشر ، واضطر زعماؤهم فى القرن الرابع عشر إلى الرحيل إلى برنو حيث اختلطوا بالسو (ساو) واستقر الكانورى وهم أغلبية كبيرة فى بوتو ، ويبلغ عددهم فى نيجيريا ١٫٢٩٧٫٠٠٠ نسمة

منهم ٧٥٢٫٩٨٠ نسمة فى نطاق برنو ، ويعيش عدد كبير فى جمهورية النيجر وجمهورية تشاد ، وتطلق اليوم « الكانورى » على الذين يتحدثون لغة الكانورى Kanuir .

ولقد عرف الإسلام باجرمى فى القرن السابع عشر ، وأسلم أهل تشاد فى خلال السبعين سنة الأخيرة ، ثم تأثرت عدة قبائل تسكن بالقرب من مستنفعات نهر شارى بالإسلام Shari .

٩ — وننتقل إلى الكلام عن عرب السودان الأوسط ، فنجد أن تأثير العرب كان شديداً فى بقاع الصحراء الكبرى الغربية ، حيث استعرب البربر على عكس الطوارق والتيدا فى الوسط ، وكان أثر العرب أقوى بين سودانى النيل . وقد تسربت منهم بعض القبائل العربية إلى واداى وباجرمى وبرنو ، ويعرف شعب برنو هؤلاء القبائل بعرب شوه . وتتألف من مجموعتين : الإبالة والبقارة ، وقد استوطنوا البقاع الصالحة لتربية حيواناتهم ، ولم تتأثر نظم معيشتهم ، أما الذين ذهبوا إلى الجنوب حيث تصلح تربية الجمال فقد عنوا بتربية الماشية كالزنوج مثلا ، وتأثرت نظم حياة البقارة بما استمدوه من نظم الزنوج المحليين بالرغم من تمييز العنصر العربى عنها .

ويميز أولاد سليمان من عرب الشوا ، فقد هاجر الأول من فزان بعد عام ١٨٤٢ . واستقروا عند تخوم كانم ، وكانوا يجولون من أبو الى إبشة ومن بوركو إلى ايندى ، وهم يعيشون كعرب الشمال ، ويتكلمون لهجتهم . وهناك نوع آخر من العرب يسمى بالجعليين جاءوا من النيل وهم تجار يعرفون بالجلابه . وهناك التنجور وهم حاميون وفدوا من الأقطار النيلية وتكلموا العربية ثم اتجهوا إلى الغرب ، ويعيش غالبيتهم (٣٠٫٠٠٠ نسمة)

فى كانم ، كما أن هناك غيرهم فى برنو ووادای ودارفور .

أما المنطقة السودانية الجنوبية حيث تهب رياح السعار فتشبه الأرض الحرام ، وتقع بين الأقاليم السودانية الغربية وغينيا ، ونلاحظ أن الحضارة السودانية الحديثة لم تنفذ إلى عمق شديد إلى هذه الشعوب ، فلم يكن للإسلام سوى أثر ضئيل بالرغم من أنه امتد إلى تلك الأقاليم فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ،

وفى الوقت ذاته تأثرت قبائل غينيا الغربية إلى حد كبير بالإسلام ، أما معظم الأهالى الذين يعيشون عند مصب الأنهار فى المنطقة الساحلية فلم يتسرب الإسلام إلا إلى قلة منهم وتمسكوا بوثنيتهم . ومثلهم قبائل فولتا العليا الذين قاوموا الإسلام .

وفى ساحل العاج أسلم قرابة ٤٥٠٠٠٠ نسمة من الديولا وغيرهم ومازالت الغالبية وثنية . وقد خطا الإسلام خطوات وئيدة بين طبقات داجومية الحاكمة ، ونفذ إلى تجمعات المامبروزى ، وانتشر بين الوالا ، وأثر على داجابن ولوبى ، كما تأثر به بعض سكان مدن بوبرد يولاسو (فولتا العليا) ، والبندوكو (ساحل العاج) ، وفى شمال غانة حيث تقدر نسبة المسلمين بقرابة ٥ ٪ على الأقل

١٠ — فاذا انتقلنا إلى نيجيريا لوجدنا أن منطقة إيللورن أصبحت إماره للفولة وأن ٦٠ ٪ من اليوروبا فى المنطقة الشمالية تحولوا إلى الإسلام ، ويمكن أن تعتبر نوبى شعباً فى حالة انتقال من الوثنية إلى الإسلام ، ويسكن هذا الشعب المنطقة التى تقع شمالى وجنوبى ذلك الجزء

من نهر النيجر الذى يعبر إقليم نيجر ، ويبلغ عددهم ٢٥٠٠٠٠ نسمة تجمعهم لغة واحدة بالرغم من اختلافهم من الناحيتين الجنسية والثقافية. وقد استسلم النوبى لقبائل الفولة فى أثناء ثورتهم الكبرى فى بداية القرن التاسع عشر ، وهم اليوم مسلمون . ونلاحظ أن الإسلام قد انتشر بين قبائل اليوروبا فى جنوب نيجيريا الغربى ، كما عبر إلى الجزء الشمالى من كمرون واستقر فيه وزاد عدد أتباعه .

الفصل الحادى عشر

الحضارة الإسلامية فى غرب أفريقيا

انتهى عهد الفتوح الإسلامية فى شمال أفريقيا والأندلس، واستقرت الدولة الإسلامية بعض الوقت ، ثم بدأت حضارتها تتطور وثقافتها تنتشر فى أجزاء كبيرة من شبه الجزيرة الأيبرية ومدن الساحل الأفريقى المطلة على البحر المتوسط ، كما ازدهر التبادل الاقتصادى بين أجزاء البلاد العربية وكان من الطبيعى أن تنتقل الأفكار والثقافة مع قوافل التجارة التى كانت تسلك الصحراء الكبرى من الشمال إلى الجنوب . ومضت الأحوال متخذة مجراها الطبيعى حتى ظهر الزعيم الكبير يوسف بن تاشفين، فرأى أن ينهض بعمل فريد ، وكان عبد الله بن يسن قد مهد له السبيل ، وأخذ على عاتقه دعوة الشعوب السودانية فيما وراء الصحراء إلى الدين الحنيف ، وكان ذلك الحدث الكبير حينما اتجه أنصاره فى عام ١٠٦١ م إلى غانة ، ومن ثم انتشر الإسلام بين عدة قبائل .

ثم أسست تمبكتو بعد أعوام قلائل ، وقدر لها أن تكون من أهم المراكز الإسلامية فى قلب القارة الأفريقية . وهكذا امتد سلطان البربر تدريجياً من ساحل المحيط الأطلسى شمالا إلى المنعطف الشرقى لنهر النيجر، وقامت إمارات ودول إسلامية كبرى ، دون أهلها صفحات ناصعة فى تاريخ الحضارة الإسلامية . ثم امتد نفوذ تلك السلطنات رويداً رويداً حتى اتصلت بالنشاط الإسلامى شرقى بحيرة تشاد ، واتصلت بمسلمى وادى النيل . وهكذا ضم إلى العالم الإسلامى ، الشعوب السوداء الذين سرعان ما تقبلوا النظم الإسلامية فى الإدارة والقضاء ، وأنشئت عدة مدن إسلامية قامت فيها دور العبادة والعلم ، واندمجت الشعوب السودانية فى غربى أفريقية فى عالم الحضارة الإسلامية ، وشاركوا مسلمى الأندلس والمغرب فى نظمهم السياسية والدينية والآداب والعلوم .

وقد ازدهرت تلك الحضارة بوساطة العلاقات التجارية المستمرة عبر الصحراء، حينما تبادل الشمال مع الجنوب خيرات البلاد . كما توافد العلماء ورجال الدين للتدريس فى مساجد تنبكتو وجنى وجاغ ومالى ، ينشرون الثقافة الإسلامية بلغتها العربية الأصيلة ، ويبعثون الطلاب إلى معاهد الأزهر والقيروان وتلمسان .

وكان من الطبيعى أن ينهض بينهم طائفة من كبار العلماء والمؤرخين يدونون أحداث البلاد ويصفون المجتمع السودانى فى مؤلفات طيبة،وصل بعضها إلينا ، فضلا عما دونه الرحالة المغربيون فى كتبهم . ونستطيع بعد دارسة ذلك التراث أن نقول بلا مبالغة ، أن تلك الدول السودانية تمتعت بحضارة مجيدة لا تقل صورتها عن الحضارة الأوربية التى عاصرتها . وإذا كنا قد جهلنا أحوال تلك الشعوب ، فمرد ذلك إلى الفرقة الطويلة التى

سادت العلاقات بين الشعوب الإسلامية فى القرون الأخيرة . أما من ناحية النظرة الأوربية ، فإن أوربا المسيحية فى نضالها اليائس ضد الأسلام والمسلمين ، كانت فى نفس الوقت لا « تتبادل » الآداب العربية على عكس ما فعلته بعد حين .

وهكذا جهل الأوربيون ولو إلى حين أحوال الأمم الأفريقية. فلم يعرف مثلا أن قصر ملك غانا فى عام ١١٥٣ م « كان قد أوثق بنيانه، وأحكم إتقانه، وزينت مساكنه بضروب من المنقوشات والأدهان وشمسيات الزجاج » ، وأن الأفريقيين المسلمين استخدموا المدافع فى حصار المدن قبل أن تعرفها أوروبا ، فقد جاء فى تاريخ ابن خلدون ، « أنه لما فتح السلطان أبو يوسف بلاد المغرب وجه عزمه إلى الاستيلاء على سجلماسه سنة ١٢٧٣ م فنهض إليها ونازلها ، وقد حشد إليها أهل المغرب أجمع من زناتة والعرب والبربر، ونصب عليها آلات الحصار من المجانيق والعراضات وهندام النفط القاذف بحصى الحديد، ينبعث من خزانة أمام النار الموقدة فى البارود بطبيعة غريبة ترد الأفعال إلى قدرة باريها . . إلى أن سقطت . » . .

وتثبت لنا المخطوطات العربية أن استعمال الأسلحة النارية لم يلبث أن شاع بين العرب ، فاستعملوها خاصة فى سنة ١٣٤٢ دفاعا عن مدينة الجزيرة التى هاجمها الفونس الحادى عشر ، « وكان أعراب المدينة يرمون جيشه بكرات نارية كبيرة فى حجم أكبر أنواع التفاح وكانوا يقذفون بها بعيداً جداً عن المدينة ، حتى أن بعضها كان يمر بعيداً من فرق الجيش ويسقط غيرها فوقه » .

فلما شاهد الكونت دربى والكونت سلسبرى الإنجليزيان ، وكانا

مشتركين فى هذا الحصار ، مفعول البارود، نقلا من فو ـهما هذا الاختراع إلى بلادهما ثم استعمله الإنجليز بعد ذلك بأربع سنين فى معركة كريسى (١٣٤٦ م) .

كما ان اهل الغرب لم يعرفوا أنه فى عام ١٣٥٣ كان يمر حوالى ١٢٫٠٠٠ جمل تحمل أنواع العروض القادمة من مصر ، وهى حمولة عشرات من سفن تلك الأزمان عن طريق بلدة تكادة فى ذهابها إلى عاصمة دولة مالى ، وهذا دليل واحد على ما كانت تتمتع به الدول الأفريقية فيما وراء الصحراء من الرخاء ، ونكتفى أن نذكر خامة الذهب التى انفردت بها تلك البلاد ؛ إذ كانت هى المصدر الرئيسى لذهب العالم ، حتى اكتشفت مناجم أميركا الجنوبية والهند وأفريقيا الجنوبية وروسيا .

* * *

وكان فى هذه البلاد علماء وفقهاء وأدباء ومؤرخون وصلت إلينا ثمار قرائحهم ، وهى لا تشبه أو تعادل مثيلاتها التى كتبها علماء أووربا المعاصرون بل إنها فى كثير من الأحوال تسمو عليها . ولا غرو لأن ذلك التراث العربى الأفريقى كان وليد التراث العربى الأندلسى ، واتخذ طابعه واستمد منه سماته .

وربما يتردد البعض فى تصديق ما اشتملت عليه مكتبة العلامة أبو العباس أحمد بابا فقيه تمبكتو ، فقد نهب منها مالا يقل عن ألف وستمائة سفر فى أثناء الغزو المغربى للمدينة عام ١٥٩١ ، وكانت إذ ذاك حاضرة دولة سنغاي . وقد ترك لنا ما ربو على الأربعين من مؤلفاته .

ويقابلنا بين مؤرخي السودان ، العلامة عبد الرحمن السعدى صاحب كتاب تاريخ السودان ، ونلاحظ أن هذا العلامة لم يدون الأحداث التى مرت بهذا البلد فحسب، بل إنه كان يعلق عليها ويذكر أسبابها ويعللها ، ويصف سلاطين البلاد وحكامها على حقيقتهم ، وينقد نظم الحكم ويوضح آراءه ، وما ينبغى أن يكون عليه الحال فى وطنه ويعتبر كتابه المذكور من المراجع الهامة فى تاريخ دولة سنغاى وعلاقة المغرب بها ، وقد وافته المنية (١٠٦٣ هـ — ١٦٥٣ م)(١)

يوضح لنا كل هذا ، أن تلك البلاد الأفريقية كانت لها حضارة مادية وأدبية فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، كما مرت مالى بدورها قبل ذلك ، وحدث هذا قبل أن تطأها أقدام البرتغاليين فى القرن السابع عشر.

تنبكتو

شهد المؤرخ الفرنسى « ذيبوا » أن القرن السادس عشر كان أزهى العصور التى مرت بتنبكتو اتى وصلت فى ذلك الحين إلى أوج المجد الأدبى والعلمى ، وذلك قبل أن يدهمها الغزو المغربى . ففى ذلك الحين اتصلت تنبكتو وهى حاضرة الثقافة العربية بالقاهرة ، ورحل علماؤها إلى مصر للاتصال برجال الأزهر ، ودعموا صلاتهم بإمام مصر جلال الدين السيوطى وقد تحدث السعدى عن العلماء المصريين الذين زاروا تنبكتو وقضوا مدة للتدريس بمعاهدها .

وكانت هذه الحاضرة سوقاً للكتب ، تنسخ فيها المخطوطات وتوزع

---

(١) يذكر مرجع آخر أن وفاته كانت فى عام ١٦٥٦ .

فى البلاد ، وروى السعدى أن فيها من يدعى محمد بن محمود بن أبى بكر، اقتنى نفائس الكتب العزيزة ، وربما يأتى ابابه طالب يطلب كتباً فيعطيها له فى غير معرفة . ووصل بعض علماء السودان الغربى فى علمهم إلى مستوى لا يقل عن مستوى المدارس الإسلامية الأخرى ، إن لم يكن يزيد عنها فى بعض النواحى . وذكر السعدى أن فقيها اسمه عبد الرحمن الشيمى جاء من الحجاز بصحبة موسى سلطان مالى حين عاد من الحج ، فأقام بتنبكتو زمناً، ولما رأى رجالها يتفوقون عليه غادرها إلى فاس (١) .

ومن علماء تنبكتو البارزين أحمد بابا (١٥٥٣ - ١٦٢٧) الذى مر ذكره كان ينتسب إلى أسرة جلها من العلماء ، وقد ولى معظم أفرادها القضاء ، وكان قد درس العلوم الإسلامية على أبيه وجده وكثير من أفراد أسرته ، وترك ما يربو على الأربعين مؤلفاً يعرف منها « نيل الابتهاج بتطريز الديباج » (فاس ٣١٧) و « كفاية المحتاج لمعرفة من ليس فى الديباج » و « معراج الصعود » والدر النضير » و « خمائل الزهر » ونشر العبير » . . وعدد كبير من الرسائل فى موضوعات مختلفة (٢) .

ولما غزا المغاربة تنبكتو رفض أحمد بابا الاعتراف باحتلالهم ، فقبض عليه وعلى أفراد أسرته ، واقتيد إلى مراكش (١٥٩٤) ، وفقد فى هذا الحادث ستمائة وألف مجلد ، كما سقط عن ظهر جمل إبان رحلته فكسرت ساقه ، ثم أطلق سراحه بعد حوالى عامين ، على أن يغادر قصبة مراكش ، فانقطع للتعليم فى جامع الشرفاء ، وكان يستمع لدروسه خلق كثير ، كما كان يعهد إليه بالإفتاء .

---

(١) تاريخ السعدى : ص ٥١ ، ٦٢ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية .

ولما ولى السلطنة مولاى زيدان أذن له عام ١٠١٤ هـ/١٦٠٦ م ، بالعودة مع من بقى من أسرته إلى تنبكتو ، فعاد إليها وكرس حياته لتعليم الفقه ، وهكذا نرى أن الثقافة الاسلامية استقرت فى تنبكتو التى أصبحت لها نفس المكانة التى للقيروان فى تونس ، أو فاس فى المغرب ، أو قرطبة فى فى الأندلس ، وقد ارتبط تاريخ الثقافة فى سودان المغرب بتاريخ هذه المدينة الجليلة منذ أن أنشئت، اجتمع فيها العلماء من كل وطن. «المغاربة والأندلسيون والحجازيون والمصريون » ، وكان يفد إليها الطلاب من سنغال ونيجر ومن إمارات الهوسا وبرنو وكانم ، فيقيمون فيها زمناً ثم يرحلون أو يبقون وكان معهد سنكرى بتنبكتو قريب الشبه من الأزهر فى مكانته العلمية، فأمه العلماء والفقهاء ، ونبغ منهم طائفة وصلوا إلى الامارة ، وقد ذكر المؤرخ السعدى كثيرين ، منهم أحمد بن عمر بن محمد أقيت الذى خلف أكثر من سبعمائة مجلد (١) . وقد أشار أيضاً إلى بعض الكتب التى كانت تدرس فى ذلك المعهد ، منها «الشفاء» للقاضى عياض ، «تحفة الأحكام» لابن عاصم، وكتاب «المعيار» الونشريشى (٢)

تلك هى الناحية الثقافية لتنبكتو فى أزهى أيامها على عهد سلاطين سنغاى العظام ، من أمثال أسكيا الهادى محمد، وأسكيا داود الذى توفى عام ٩٣٦هـ - ١٥٢٨ م ، وانتقلت تنبكتو من بعده إلى حكم المغرب بعد أن غزاها القائد محمود عام ١٥٩٠ وضمها إلى أملاك مراكش ، وظلت خاضعة للمغرب إلى عام ١٧٥٠ ، وفى ذلك العهد عمت المظالم تنبكتو ، وشن الطوارق غاراتهم عليها وامتلكوها عام ١٧٩٢ ، ثم استولى الفولة عليها عام ١٨٢٧ .

(١) تاريخ السعدى ص ٢٤ و ٣٧ ، ٣٩ .
(٢) تاريخ السعدى ص ٢١ ، ٢٣ ، ٢٨ ، ٣٤ ، ٤٥ .

ولكن إلى متى ظلت تنبكتو بعيدة عن التبادل الثقافى أو الاقتصادى الأوروبى ، أو إلى متى جهلها الأوروبيون ؟

اتصل الأوروبيون بتنبكتو فى القرن الخامس عشر ، فأخذت المدينة تتعامل مع الثغور الإيطالية ، وبخاصة فلورنسة ، بطريق تونس وطرابلس ، وكانت تخرج منها أربعة طرق كبيرة من طرق القوافل :

أحدهما يقصد مصر ماراً بكانم وجاغ ، والثانى يقصد تونس ويمر بحجار ، والثالث يقصد مراكش ويمر بسجلماسة وتافيلاليت وتوات ، والرابع يقصد السودان، ويمر بملى وقد وصف اثنان المدينة فى ذلك العصر (القرن ١٥ — ١٦ م) ، أولهما فلورنتين بنديتو الذى زارها عام ١٤٧٠ ، وثانيهما الحسن بن الوزان (ليو الإفريقى) الذى قام برحلته الإفريقية فى أوائل القرن السادس عشر وزار تنبكتو وأعجب بها ،وقال عنها ،إنها مدينة عامرة بالحوانيت ، وبها معبد (مسجد) من الحجر والكلس بناه مهندس بارع من أهل غرناطة ، وقصر رائع فيه الملك محلى بصور كثيرة وقضبان من الذهب يزن بعضها ١٣٠٠ رطل .

وانقطعت الصلة بين تنبكتو وأوروبا بعد القرن السادس عشر ، ومع ذلك فقد كانوا يقولون عنها إنها مدينة عزيزة المنال ، تكتنفها الأسرار ، وافرة الثروة لاتجارها فى الذهب وريش النعام والعاج والعبيد . وقد خاب سعى الكثيرين فى جلاء سرها ، وقتل فى سبيل ذلك الميجور لينج ، ثم أفلح رينيه كاييه فى رفع الحجاب عنها عام ١٨٢٨ ، فاتضح له أنه كان واهما فى تقدير شأنها ، وفضل عليها مدينة جنى كثيراً . ثم زار الرحالة بارت تنبكتو عام ١٨٥٣ ، وكتب عنها كثيراً بعد ما وضع يديه على كثير من المخطوطات العربية ١) .

---

(١) Lieut Profontan . Histoire de Tombucto de so fondation a l'occupation francaise.

وبهذه المدينة العتيقة عدة مساجد أثريه ، أهمها : مسجد جونجوربر ، وسنكوري ، وسيدى يحيى ، أضف إليها القصبة (القلعة) المغربية ، وأسوار المدينة وبعض القصور والدور التاريخية .

مسجد جنجوربر :

أقدم وأكبر مساجد تنبكتو ، ولا يعرف على وجه التحقيق تاريخ البناء الأول للجامع ، بيد أن المعروف أنه كان هناك مسجداً أقيم على موقعه فى القرن ١٢ ، ولم يذكر واحد من المؤرخين أو الرحالة شيئاً دقيقاً عن تاريخ إنشاء ذلك المسجد ، ويحتمل أن يكون السلطان منسا موسى هو الذى امر الساحلى المهندس ببنائه (توفى بتنبكتو عام ١٣٤٦) . ولما مر الرحالة الحسن الوزان (ليون الافريقى) بتنبكتو فى أخريات القرن ١٥ ذكر أنه شاهد مسجداً مشيداً بالحجر . وقد ذكر العالم محمود كعت مؤلف كتاب « تاريخ الفتاش » ذكر أن القاضى العقيب (١٥٠٧ — ١٥٨٣) أمر بهدم المسجد وإعادة بنائه ، وكان قد ولى منصب القضاء فى عام ١٥٦٥ . وذكر عبد الرحمن السعدى مؤلف تاريخ السودان،أن إعادة تشييد هذا البناء تمت سنة ١٥٧٠ كما أعيد بناء مئذنة المسجد ، ثم ذكر مؤلف تذكرة النسيان بعض الإصلاحات التى أنجزت بالمسجد فى الأعوام ١٦٧٨و ١٧٠٩ و ١٧٣٦ وعلى ذلك يمكن القول بأن المسجد القائم اليوم لا يشتمل على اية أجزاء يمكن نسبتها إلى ما قبل عام ١٥٧١ ، ويعتقد الرحالتان كاييه وبارث أن أقدم أجزاء المسجد — هو الجزء الغربى ، ومع ذلك فإن بعض رجال الآثار لا يوافقونهما على هذا الرأى .

ويحتوى المسجد من الداخل على ٢٥ صفاً من العمد ، تمتد من شمال

المسجد إلى جنوبه ، وعلى ثمانية صفوف ممتدة من الشرق إلى الغرب وأهم أجزاء المسجد مشيدة بالحجر : العقود والجانب الغربى والمحراب وبعض أجزاء التكسية الخارجية . والسقف شيد من الخشب المتين . وللمسجد صحنان ، أحدهما واسع والآخر صغير متصل بالمئذنة ، وبأحد الصحنين عدة قبور ليس عليها نقوش ذات كتابات مؤرخة .

مسجد سنكورى :

أقل أهمية من المسجد السابق ذكره وأصغر منه مساحة ، ولا يعلم تماماً متى شيد . وقد ذكر السعدى فى كتابه أن سيدة ثرية شيدته وأوقفت عليه بعض المال للحفاظ عليه ، ويحتمل أن يكون تشييده بعد عام ١٣٢٥ وقبل عام ١٤٦٣ . وقد هدم الحرم الأصلى للمسجد وأعاد بناءه القاضى العقيب ، وقيل إنه كان يعادل مساحة الكعبة المكرمة . وقد شيدت معظم أجزاء المسجد بالحجر ، ولما مر به الرحالة الفرنسى رينيه كاييه عام ١٨٢٨ ، كان المسجد فى حالة جيدة .

مسجد سيدى يحيى :

شيد هذا المسجد محمد نادى حاكم تنبكتو فى حوالى ١٤٤٠ (؟) . وقد ذكر السعدى أن بناءه تم فى أثناء حكم الطوارق للمدينة فيما بين ١٤٣٢ و ١٤٦٨ . وقد عين هذا الحاكم صديقه سيدى يحيى إماماً للمسجد وكان قد عرف بورعه وتقواه . وقد توفى سنة ١٤٦٣ / ٦٤ . وقد جدد بناء حرم المسجد عام ١٥٧٧ / ١٥٧٨ على يد القاضى العقيب ، ووصفه الرحالة كاييه حينما مر بتنبكتو .

* * *

ومن آثار تنبكتو ، قصبة تنبكتو التى شيدت فى عام ١٥٩١ وكان قد بناها القائد جودر المغربى ، ولا أثر لها اليوم . أما سور المدينة فقد هدم حوالى

عام ١٨٢٩ حينما نهب الفولة تنبكتو ، ولم يبق منه سوى بعض الأكوام والأنقاض عند مرور الرحالة بارث بتنبكتو فى عام ١٨٦١ .

وهناك بعض الدور التاريخية التى عاش فيها بعض كبار الرحالين من الأوروبيين : جوردن لينج الذى وصل إلى تنبكتو عام ١٨٢٥ وفيلهير (١٨٢٦) ، ورينيه كابيه (١٨٢٨) ؛ وبارث (١٨٥٣ — ١٨٥٤) .

جنى (جنة)

تعتبر جنى من أهم المراكز الإسلامية فى سودان المغرب ؟ وتقع على مسافة مائتى ميل إلى الجنوب الغربى من تنبكتو ؛ وعلى مرحلة من الضفة اليسرى لنهر بنى (Pani) أحد روافد النيجر وتقوم على هضبة صخرية وسط سهل فسيح تغطيه المياه فى فصل الأمطار .

يقول بارث الرحالة الألمانى عنها انها أنشئت عام (٤٣٥ هـ - ١٠٢٣ - ١٠٢٤)(١) ؛ وسرعان ما ازدهرت تجارة الملح فى تغازا والتبر فى بطء ، وقد اعتنق غالبية أهلها الإسلام فى حوالى عام ٦٠٠ هـ - ١٢٠٣ / ١٢٠٤ ، ثم آلت إلى مالى على أيام ملكها مارى جاطه وأصبحت أهم أسواق قبائل الفولة والولوف والسركولة وأهالى تكرور الغربى ، وعرفت بعمل القماش .

وكانت جنى أمداً طويلا على جانب كبير من الأهمية الاقتصادية ، وقد قال عنها السعدى ٢ : إنها سوق عظيمة من أسواق المسلمين ، يلتقى فيها تجار الملح من مناجم تغازا وتجار الذهب من مناجم بط ، وأنه بفضل هذه

---

(١) Barth. Tra e's, Vol, 4 r. 587.

جاء فى دائرة المعارف الإسلامية أن تأسيسها يرجع إلى القرن الثالث الهجرى

(٢) ص ١ فى تاريخ السودان السعدى .

المدينة تتجمع القوافل فى تنبكتو من جميع الجهات المجاورة ، وكانت سوقا كبيرة لتجارة الرقيق ، ومركزاً ثقافياً ينافس تنبكتو ، وازدهرت فيها الدراسات الدينية ، وكان من علمائها الفقهية « فودى » محمد سافو الونكرى الذى عاش فيها فى أواخر القرن التاسع الهجرى ، ولاه أسكيا الحاج محمد قضاء جنى بعد رجوعه من الحج ، والقاضى العباس كب الجنوى ، وكان فقيها عالماً جليلا سخياً ، وكان قبره فى داخل مسجد جنى ، والقاضى محمود بن أبى بكر بفيبغ والد العلمين الفقيه محمد بفيبغ والفقيه أحمد بفيبغ الخ

وتقول بعض المراجع ان الزعيم « كنبر » (وربما كان ملكا) كان فى طليعة الزعماء الذين أسلموا فى جنى فى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى ، وقد ذكر السعدى أنه هدم قصره وشيد مكانه مسجداً ظل باقياً حتى القرن التاسع عشر ولا تزال آثاره باقية إلى اليوم(١) .

ولقد احتفظت أسرة كنبر بالسلطان فى جنى حتى نهاية القرن الخامس عشر ، ثم غلبهم على أمرهم السنغاى ، واستولى سنى على المدينة حوالى عام ١٨٤٠ بعد أن حاصرها سبع سنوات ، وفرض على الأهالى الجزية . وقد عاد حكم سنغاى على سكان جنى بالخير لأنهم استطاعوا أن يبلغوا بتجارتهم حتى تنبكتو وجاغ والبلاد التى تقع عند منعطف النيجر بفضل الأمن الذى عم البلاد .

كانو

ومن المدن التى امتدت إليها الثقافة الإسلامية فى إمارات الهوسا كانوا

---

(١) هنا رواية أخرى تقول إن الذى شيد هذا المسجد رجل عربى يدعى ملوم (المعلم) إدريس وأنه هو الذى درب أهل جنى على بناء منازلهم وزخرفتها على النمط الذى لا يزال مستعملا فى جنى والنواحى المجاورة لها .

وكتسينا ، وقد كان ذلك منذ القرن الخامس عشر ، رحل إليها بعض علماء تنبكتو فى عام ١٤٨٥ ، كما اجتذبت كتسينا عدداً منهم . وقد أقام الإمام المغيلى فيها زمناً طويلا يعلم الناس ويرشدهم ويقضى بينهم . وهنا ما يدل على أن السيوطى رحل إلى شمال نيجيريا وأقام فى كتسينا زمناً يهذب الناس وعاد إلى مصر سنة ٨٧٦ هـ ١٤٨١(١) .

ولكن لماذا لم تستمر تلك الحضارة السودانية ، ولم تزدهر على مر الأيام كما حدث للحضارة الإسلامية فى شمال أفريقيا ؟

إن الجواب على هذا السؤال معقد لا تصاله بمشا كل كثيرة ، لعل فى طبيعتها العوامل الجغرافية التى يتصل بعضها بطبيعة الأقاليم السودانية أولا ، فهى تمتد فى رقعة كبيرة من غربى القارة على المحيط الأطلنطى إلى شرقى بحيرة تشاد وتخوم وادى النيل ، ومن حافة الصحارى الكبرى إلى ما بعد خط الاستواء . ويتصل العامل الآخر بطبيعة الصحارى وأهلها ، وما كان لهم من أثر ضخم فى سكان السهول الجنوبية والمدن الشمالية فى حوض نهر النيجر .

كانت غارات الرحل من أهالى الصحراء وقطعانهم على السهول مصدر خطر هدد الأمن والاستقرار بصفة مستمرة . وكان غزو الجماعات الرحل لمن يفلحون الأرض من أهم ما اتسم به تاريخ سودان المغرب . وقد رجحت كفة أهل الصحارى دوما — على أهل السودان بسبب السلب والنهب وأسواق النخاسة مما أدى إلى قلة الكلأ والمراعى ، ونتج عنه بطبيعة الظروف عدم استقرار الجموع الكبيرة العدد من الأهالى ، الذين

---

(١) آدم عبد الله الألورى : الإسلام فى نيجيريا ص ١٠ .

يستطيعون مقاومة الغزاة وردهم إلى قلب الصحراء، كما كان يحدث أحياناً، ومن أجل ذلك لم تنجز أفريقيا السودانية حركة تاريخية كبرى، ولم تزدهر بها حضارة متصلة الحلقات فى تطورها.

وسودان المغرب، كما قلنا، منطقة واسعة حبيسة بين عائقين عظيمين قد لا تيسر هجرة عرقية على نطاق واسع (كما حدث مثلا فى أواسط آسيا)، فالصحراء الكبرى تضغط عليها فى الشمال، والغابات الاستوائيـــة فى الجنوب ويكاد يكون خلواً من العوائق الطبيعية، ونعلم أيضاً أن السمة الجغرافية التى تسوده هى مجرى نهر النيجر الكبير، ذلك المجرى الذى لا يمكن اعتباره عائقاً فى حد ذاته، بل على العكس فإنه يعتبر طريقاً طبيعياً للمواصلات البرية والنهرية. كما أن مناخه عامل ذو أهمية تاريخية وتضاريسه الجغرافية ليست متنوعة. وهكذا كان عدم توافر الموانع الطبيعية أو المناخية من أهم الأسباب التى يسرت للأهالى أن يرحلوا إلى حيث يشاءون بسهولة فى أطراف السودان، إما لتبادل التجارة فى أمن وهدوء مع قطعانهم، أو للغزو والسلب، وقطع الطرق. وثمة ظاهرة جغرافية أخرى، ففى الأجزاء الغربية من القارة لم تتوافر المواطن الصغيرة التى جعلتها الطبيعة شبه مواطن معزولة أو منفردة، كما كانت فينيقيا فى غربى آسيا، ونيبال فى قلبها، والحبشة فى شرق أفريقيا. مما يشجع على نمو الروح الاستقلالية والشعور القومى، ورغم أى تسرب أجنبى إليها، واحتضان حضارة بادئة لتنمو فى ظل ورعاية دولة صغيرة. ويمكن القول إن هذه المزية لم يعرفها أهالى السودان الغربى.

ولم تكن الغابة تصلح من الناحية الطبيعية لرفاهية رجل السودان، لأنها عائق لا يمكن اختراقه، وربما كانت أقل وطأة من الصحراء التى كانت

تخترقها سبل التجارة والثقافة بالرغم من المشاق والصعاب . وعلى أية حال يمكن القول بأن الغابة كانت عائقا أمام نور المعرفة والثقافة ضد النور والمعرفة ، بينما كانت الصحراء سبيلا إليها .

ولكن ينبغي ألا نبالغ في تقدير دور الصحراء باعتبارها من عوامل نقل الثقافة ، فإن هذا النور لا أثر له في مجتمع البداوة ، ولا مقام له مع حياة الرحل . ولا نعرف حضارة قامت في الصحراء الكبرى قبل استخدام الجمل في أثناء القرون الأولى من ميلاد المسيح . فكيف تستقر حضارة ما بين أقوام بدو رحل، ينزعون خيامهم الصحراوية إذا ما اقتربت شهور الصيف قاصدين هضاب الأطلس في الشمال أو مراعي السودان في الجنوب !

صحيح أن بعض تلك الهجرات الموسمية ، كان يستقبلها السودانيون بالترحاب . فبوساطتها يفيدون ويستفيدون عن طريق تبادل المنتجات والسلع ، لكنها كانت كذلك لا تخلو من التخريب والنهب ، وفي كثير من الأحوال ، كان الرحل يفضلون الإقامة المستديمة بين خيرات السهول ونعيم المدن ، فيضطر أصحابها من السودانيين إلى الرحيل ، ومن ثم تئول الأرض إلى الجدب والخراب بعد أن يهجرها فالحوها ، والزراعة كما هو معروف أساس التقدم المستمر في أية حضارة ، ولكن فالح الأرض ينقصه الابتكار وسرعة التنقل والتبصير بالأمور والمقدرة السياسية وهذه صفة من صفات الرحل . ولذلك لاحظنا أنه عندما اتحد أهالي السهول مع الفلاحين وتآلفوا سوياً استطاعوا تكوين حكومة ثابتة ذات نزعة توسعية ؛ فقد كان الغزاة الرحل يمكنون صلاتهم الحديدية من دماء المقهورين ، ويؤثرون فيهم ، وإن امتصوا ثقافاتهم السامية ، وبفضل هذا التآلف أو الوحدة تمت

بين سوداني الغرب ملكة التنظيم السياسي فاستطاعوا في بعض الأزمنة أن يشيدوا دولا منيعة السلطان ، كغانة ومالى وسنغاى .

وإذا كنا قد ذكرنا أن للرحل والرعاة مقدرة على إقامة الدول بفضل نظمهم وأخلاقهم الصحراوية ، فإننا نلاحظ ظاهرة أخرى وهى أن تلك الدول كانت دواماً قصيرة الأجل ، ويفيض التاريخ بالأمثلة على صحة ذلك كالرعاة (الهكسوس) فى مصر القديمة ، والفاندال فى أفريقيا ، والنورمان فى انجلترا ، والمغول فى أوروبا وآسيا ، والمرابطين فى المغرب والأندلس والمغاربة فى السودان بعد المرابطين فى القرن الحادى عشر .

إن الإصرار والمثابرة التى اتسم بهما شعب الماندنجو وزعماؤه تستحق أن تلفت النظر إليها بعد أن أتيح لهم السيادة والغلبة فى غرب أفريقيا، حينما استولوا على غانا وأقاموا دولة مالى ، ثم عملوا على توسيع رقعتها ، وبنوا امبراطورية مترامية الأطراف تجاوز الاعتراف بها حدود الصحراء ، إلى شواطىء البحر المتوسط والأحمر ، ثم ما كان لأسرة أسكيا فى نهضة دولة سنغاى ، التى ربما كان يكتب لها البقاء مدة أطول إذا لم تكن قد تعرضت للغزو المغربى .

* * *

وينبغى ألا نغفل عن عدة عوامل جغرافية أخرى عجلت بانحطاط الدول الأفريقية السودانية ، الواحدة بعد الأخرى ، فقد كان اتساع أرجاء الدولة وعدم توافر العوائق الطبيعية ممهداً فى كثير من الأحوال لقيام الثورات المحلية والخروج على طاعة الحاكم مضافاً إلى هذا الاختلاف بين الشعوب والأجناس الخاضعة له . وقد ظهر ذلك جلياً حينما كان التوسع الإقليمى سابقاً للنضج الإدارى أو السياسى للحكومة المركزية ، فكانت

تعم الثورات وتنشب الفتن حينما يولى سلطان جديد ، فيعزل رجال سلفه ويولى آخرين مكانهم ، ويوجه الحملات العسكرية لإعادة الأمن إلى نصابه ، وكانت تلك الاستعدادات تستغرق وقتاً طويلا ، فلم تكن طبيعة البلاد تسمح بإقامة معاقل أو حصون تتحكم فى كل إدارة أو مملكة تابعة للسلطان يستطيع رجالها أن يسرعوا للقضاء على الفتنة وهى فى مهدها .

وكانت صعوبة المواصلات والانتقال من أهم أسباب ضعف تلك الدول الأفريقية . فكلما طالت المسافة بين الحاكم والمحكوم ضعفت السلطة وهذا ما فطن إليه الفاتحون منذ القدم ، ولعل الرومان كانوا أول من تنبهوا إلى تلك الحقيقة ، فأكثروا من شق الطرق وتعبيدها بين ممتلكاتهم، وأقاموا الحصون والمعسكرات فى الأماكن العسكرية . ولم يعرف السودانيون نظام البريد الذى كان معمولا به فى العصور الوسطى ، ولا سيما بين الدول الإسلامية . ولا نعرف زعيما أفريقياً أدرك أهمية الطرق فى أنحاء بلاده أو عمل على تنظيم شبكة من مخافر البريد، ولذلك عجزت الحكومة المركزية عن الإشراف الكبير على شئون الدولة . وربما كانت الأمطار الغزيرة التى تهطل عدة أشهر فى السنة عائقاً لا يتغلب عليه تحت الظروف الافريقية فلم يعن أحد بإنشاء الطرق فى تلك البلاد حتى إلى وقت قريب(١) .

واذا كانت للحدود الطبيعية من جبال وهضاب وصحارى ومسالك مائية فوائد شتى فى حماية البلاد ووقايتها فى تلك العصور ضد الغزو الأجنبى، فإن عدم وجودها يسر الاتصال التجارى والتبادل الثقافى مما أفاد الدول الأفريقية ، فنعمت بالرخاء الاقتصادى ، وانتقلت إليها حضارة المغرب ووادى النيل .

(١) كانت الأمطار نعمة للعاملين فى الزراعة وهم الذين اعتمدوا على مائها .

ولا يخفى أن البيع والشراء مما يصحبه دواماً تبادل الأفكار ونمو الثقافات وانتقال الحضارات ، ولولا طرق القوافل التى كانت تربط سودان المغرب ببلاد البحر المتوسط أو وادى النيل ، لما ازدهرت فى وقت من الأوقات تلك الحضارة الإسلامية التى عرفتها مالى ، وسنغاى ، وبرنو منذ القرن الحادى عشر ، تلك الحضارة التى لم يعرف السودان مثلها من الحضارات السابقة - أفريقية أو رومانية أو بيزنطية .

تعلم أهل السودان عن طريق اتصالهم بتلك الحضارة الزاهرة أشياء كثيرة لم يعرفوها من قبل ، فنى الزراعة كانوا لا يزرعون سوى مايحتاجون إليه من الطعام ، لكنهم تعلموا فيما بعد زراعة القطن والنيلة ، كما عرفوا أساليب البناء فى المساكن وأسوار المدن والمساجد ، وأهم من ذلك تلقوا مبادىء التنظيم السياسى والاجتماعى والحكم،واعتنق غالبيتهم الدين الإسلامى وأجاد علماؤهم اللغة العربية ، وأسهمت طائفة كبيرة منهم فى الكتابة فى شتى ألوان التأليف ، فى الأدب والدين والعلم والتاريخ ، كما برزت منهم جماعة من المصلحين الدينيين . . الخ الذين عرفوا كيف يقضون على التقاليد الوحشية والعادات والمعتقدات الشريرة التى كانت متفشية بين الشعوب السودانية ، فحل مجتمع حضارى جديد مكان المجتمع البدائى القديم ، ولم يقف فى سبيل نشر ذلك النور الحضارى سوى الغابة ، فظلت فى ظلامها موطنا للحيوان الكاسر والسحرة إلى وقت قريب . أضف إلى هذا ما أصيبت به البلاد فى أعقاب الاستعمار الأوروبى ، فذابت شخصيتها السياسية ، ومع ذلك لم يستطع المستعمرون أن يقتلعوا الروح القومى فيها ، فنهضت من رقدتها ، لتعيد من جديد مكانتها الرفيعة ، وتسهم فى حضارة هذا العالم الحديث .

الفصل الثانى عشر

المراجع العربية للتاريخ الإسـلامى

فى غرب أفريقيا*

كان شارل دى لارونسيير فى طليعة مؤرخى البحرية الفرنسية ، فنحى دراساته عن البحرية جانباً، وأخذ يبحث ويؤلف فى تاريخ الريادة والكشف فى أفريقيا خلال عصر النهضة وما بعدها . وفى عام ١٩٢٤ ، أماط المؤرخ الجغرافى شـارل دى لارونسيير اللثام عن أوائل الرواد والمستكشفين الأوربيين الذين طوفوا فى غرب أفريقيا فى أخريات القرن الخامس عشر، ثم أصدر كتابه الضخم : « الاكتشافات الأفريقية فى العصور الوسطى » عام ١٩٢٥ — ١٩٢٧ برعاية الجمعية الجغرافية المصرية التى أنفقت على نشر الكتاب وطبعه(١) .

نذكر هذا ، لتوضيح كيف سبق جغرافيو العرب ومؤرخوهم منذ القرن التاسع إلى القرن الخامس عشر زملاءهم فى العالم الغربى فى مجال البحوث الأفريقية بقرون عديدة ، عن طريق اختراق الصحارى الكبرى ، ودونوا دراساتهم الجليلة فى مؤلفات قيمة أفاد منها العالم .

(*) محاضرة ألقيت بدار الجمعية المصرية للدراسات التاريخية مساء يوم ٢٠ نوفمبر ١٩٦٧

(١) Charles de la Ronciere ; La Découverte de l'Afrique au Moyen Age 1925. So. B. d Egypte.

والواقع ، أن ما وصل إليه العلامة الفرنسي لعمل قيم جداً عن أقدم الاستكشافات الجغرافية التي قام بها الأوربيون في قلب أفريقيا منذ القرن السادس عشر . وعلى سبيل المثال ، فقد وجد شارل دى لارونسبير بعد البحث،أن أنسيلم ديسالجييه(Anselme Disalguir) من أهالي تولوز بجنوب فرنسا ، كان قد أقلع مساحلا السنغال وغمبيا في عام ١٤٠٥ ، ثم صعد في نهر النيجر وعاش أحد عشر عاما في جاو التي كانت عاصمة مملكة سنغاي ، ثم عاد إلى فرنسا في عام ١٤١٦ وفى صحبته زوجة سوداء وبعض الأطفال المختلطي الدماء ،وطبيب أسود بارع وبعض الخدم ، فلما وصل إلى فرنسا ، كانت في حرب للمرة الثانية مع إنجلترا ، إذ كان وصوله بعد عام واحد من معركة أجينكورت المخربة . ولسوء الحظ ، فإن ديسالجييه بدلا من أن يدون مذكراته . . كما فعل ابن بطوطة وابن حوقل لتبقى لنا مرجعا في أحوال شعوب سنغاى وحضارتها وغيرها ، فقد شغل نفسه في تصنيف معجم بثلاث لغات : الفرنسية والعربية ولغة السود . ولم يصلنا هذا المعجم ولكن علمنا شيئا عنه من رسائل « أنطونيو ما لفانتى » إلى مواطن جنوى اسمه « جيوفانى ماريانو » يصف فيها أرض النيجر وشعوبه التي مر بها عام ١٤٤٧ . . . أي بعد ديسالجييه . .

نذكر هذا للإشادة بفضل العرب ، من مؤرخين وجغرافيين ورحالة لإسهامهم في البحث والتأليف عن أفريقيا منذ القرن التاسع إلى القرن الخامس عشر . فاخترقوا الصحارى ، وتجشموا الصعاب بصحبة قوافل التجارة ورجال الدعوة والعلم باحثين عن آفاق كانت مجهولة لدى العالم ، ومن سبقوهم من الشعوب المتحضرة كالإغريق والرومان : فالأوربيون لم يبدءوا الدراسات الأفريقية وكشف مجاهل القارة إلا في أعقاب عصر النهضة والاستكشافات البحرية في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر واقتصرت كتاباتهم حينذاك على السواحل ومصبات الأنهار مدة قرن من

الزمان على أقل تقدير . وكان هدفهم الاتجار بالرقيق ، واستثمار خيرات البلاد أولا ، ولا بأس أن نذكر التبشير بالنصرانية ثانيا بعد ما خسروا معركتهم الصليبية فى الشرق العربى .

منذ بدأت حركات التحرير الأفريقية تجنى ثمارها فى اعقاب الحرب العالمية الثانية ، فازت الشعوب الإفريقية بحريتها واستقلالها أثر استعمار أوروبى طويل الأمد ، عم فى أثنائه الجهل والمرض والفقر . ومن ثم واجهت تلك الدول عدة مشاكل اقتصادية وسياسية ومالية . وكان من بينها النهوض بالتعليم وإيجاد المعلم الوطنى الصالح وإصلاح البرامج التى تتصل بجميع مراحل التعليم. فقد كان يعتمد أساسا على مايقرره المستعمرون من أجل إيجاد طبقة من الموظفين تقوم بأعباء الأعمال الكتابية فى إدارات الحكومة ومصالحها وفى معظم تلك البلدان الأفريقية كان لا يتجاوز التعليم المرحلة الإعدادية وأحياناً المرحلة الثانوية فى المدن الكبرى فقط .

وكانت مادة التاريخ التى تدرس فى تلك المدارس يكتبها المستعمر كما شاء دون أن يلمس أو يوضح تاريخ المرحلة الطويلة التى تقدمت على القرن التاسع عشر أو الثامن عشر ، حينما بدأ الاستعمار يحكم تلك الشعوب ويحرمها من معرفة تاريخها المجيد . ولا سيما فى العصور الوسطى .

ومع ذلك فلم يتجاهل بعض المؤرخين الأوربيين فى القرن التاسع عشر فضل العلماء العرب ، من مؤرخين وجغرافيين ورحالة ، فقد أشاروا فى بحوثهم إلى ما كتبه هؤلاء عن الدول الإسلامية التى نهضت فى غرب أفريقيا وتذكر من هؤلاء : بوفيل وباسيه ، وبالمر ودى لا فوس ، وهوذا ، ودى سلين ومولى ، وغيرهم .

المراجع العربيــة الأولى

يمكن تقسيم المراجع الرئيسية فى دراسة تاريخ غرب أفريقيا إلى ما يأتى :

١ ــ ما دونه المؤرخون والجغرافيون والرحالة العرب والمغاربة .

٢ ــ ما كتبه المؤرخون من علماء غرب أفريقيا (الأفريقيون) .

٣ ــ ما كتبه المؤرخون والعلماء الأوربيون وما حققوه من المخطوطات العربية .

وسوف لا نتحدث اليوم إلا عن مراجع الجماعتين ١ ، ٢ ، وأول ما نلاحظه أن الجماعة الأولى أسهمت فيما كتبته بين القرنين التاسع والخامس عشر ، وتلتها الجماعة الثانية ، فتناول علماؤها كتابة تاريخ بلادهم بين القرنين الخامس عشر وأوائل التاسع عشر ثم تطور منهجهم فى القرن العشرين

وترجع أهمية مراجع الجماعة العربية إلى أنها كتبت فى عصور كانت أوروبا تجهل أحوال غربى أفريقيا أو وسطها قبل عصر الاستكشافات . ومن هنا نعتبرها مراجع فريدة وأصيلة فى ذلك الحقل . فلم يتناول أحد سوى العرب تاريخ غانة القديمة ، أو مملكة مالى أو برنو أو كانم أو سنغاى تلك الدول الإسلامية العريقة حتى القرن السابع عشر . ولذلك فإننا اليوم ندين كثيراً لذلك الرعيل الأول من المؤرخين العرب وجغرافييهم ورحالتهم ، كاليعقوبى وابن حوقل والبكرى والادريسى وابن بطوطة ، وابن خلدون ، والقلقشندى ، وابن فضل الله العمرى ، وغيرهم . فقد كان الفزارى الفلكى أول من ذكر مملكة غانة وعدة بلدان أفريقية قبل عام ٨٠٠ ، ثم الخوارزمي الجغرافى (قبيل عام ٨٢٣) الذي حدد غانة فى خريطته التى نقلها

عن بطليموس . وفى القرن التاسع ، تحدث ابن عبد الحكم (٣ ٨ — ٨٧١) « صاحب فتوح مصر والمغرب » عن السودان الغربى (غرب أفريقيا) وعن الحملات العربية التى وصلت إلى جنوب الصحراء ، فقال : « وغزا عبيد الله حبيب بن أبى عبيدة الفهرى السوس وأرض السودان فظفر بهم ظفرا لم ير مثله وأصـــاب ما شاء من ذهب . وكان فيها أصاب جارية أو جاريتان من جنس تسميه البربر أجان ، ثم غزا أيضاً البحر ثم انصرف

ولدينا اليعقوبى الجغرافى والمؤرخ (ت ٨٩٧) ، وصاحب البلدان عن تاريخ ممالك السودان : « الزغاوة وكاكو ، ومارندا ، وغانا وتداريو وغام وساما وكوار (Kuwar) وغست ». وقد أشار إلى مناجم الذهب فى غانة وقوافل العبيد .

وذكر ابن الفقيه (ت بعد ٢٩٠ هـ — ٩٠٣ م) فى كتابه « البلدان » ، مملكة غانة(١) .

وابن حوقل الذى ألف كتابه « المسالك والممالك» فى حدود عام ٩٨٨ (٢) فى أعقاب رحلته التى قام بها عام ٩٧٧ وتحدث عن بلدة أودغشت على حافة الصحراء ، فقال أن لزعماء البلدة صلات بملك غانه أغنى ممالك العالم لما فى أرض بلاده من التبر .

والمسعودى (ت ٩٥٧) الذى طوف فى أنحاء العالم العربى والهند والأندلس ، ويرجح أنه زار مدغشقر ثم توفى فى مصر . ونجد فى كتابه

---

١. Description du Maghrib et de l'Europe au IIIe = IXe siecle p 50

(٢) ترجمة ماكجوين دى سلين — المجلة الاسيوية عام ١٨٤٢ .
Journal Asiat. 1842.

«مروج الذهب ومعادن الجوهر» إشارات مفيدة عن عدة ممالك فى غرب أفريقيا وشرقيها (١) .

وأشار الأصطخرى (ت فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى) فى كتابه المسالك والممالك إلى بلاد السودان عامة (ص ٣٤) . . . طبعة القاهرة .

ولدينا أبو عبيد الله البكرى (١٠٤٠—١٠٩٤) الجغرافى الأندلسى الذى كتب حوالى عام ١٠٧٧ وصفاً لأفريقيا دون أن تطأها قدمه يعتبر من أهم ما كتب فى تلك الفترة . وقدم لنا معلومات دقيقة عن مملكة غانة القديمة وهى فى أزهى أيامها ، وأشار إلى محاولات المرابطين لاختراق الصحراء من أجل الوصول إليها (٢) .

والأدريسى (١١٠٠ — ح ١١٦٤) (٣) صاحب كتاب «نزهة المشتاق

---

(١) ترجمة (ك . باربيه) مروج الذهب ومعادن الجوهر بمشاركة مينار وبافيه وكورتى عام ١٨٦١ — ١٨٧٧ وتحتوى هذه الطبعة على النص العربى والترجمة الفرنسية .

(٢) البكرى : المسالك والممالك:
Description de l'Afriqne septentrianale (1067). trad. De Slane.
الجزائر عام ١٩١٢ ، ص ٣٢٣ — ٣٤٣
انظر أيضاً :
Kumm, H K M The Arab Geographers and Afnca, Scottish Geog Mag, vol LIX. 1929, pp. 284-289.

(٣) الادريسى Description de l'AfriPae eu de l'Espagne, trad, Dozy et dee Goije, Leiden 1866,
انظر أيضاً : Monteil: L'ouvre d'Idrisi, Buyl. I.F.A.N., 1939, p. 838-857.
وصف افريقيا الشمالية والصحراوية ، مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق تحقيق هنرى بيرس ، الجزائر ١٩٥٧ ، ص ٤، ١١ ، ١٢ ، ١٦ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٩

فى اختراق الآفاق » الذى عنى بتحقيقه و نشره هنرى بيريس ، عنى كثيراً بأحوال غرب أفريقيا ولا سيما غانة ، فقد وصف فى أماكن كثيرة من كتابه ما كان عليه ملوك هذه الدولة فى الثراء، كما وصف أحوال مالى وتكرور أكبر مدنها وأكثرها تجارة ، فكان يسافر إليها أهل المغرب الأقصى بالصوف والنحاس والخرز ويخرجون منها بالتبر والخدم .

و ياقوت الحموى (١١٧٩ — ١٢٢٨) الذى جمع خلال رحلاته شتى المعلومات الجيدة عن غانة وتبرها وتكرور وذكرها فى معجمه المعروف ، وقد ترجم إلى عدة لغات أوروبية ، منها ترجمة ووستنفلد التى صدرت فى ليبزج (١٨٦٦ — ١٨٧٠) .

وذكر زكريا بن محمد القزوينى (ت ٦٨٢ هـ — ١٢٨٣ م) فى آثار البلاد (ط بيروت) ، السودان وتكرور (ص ٢٦ — ٢٧) ، وغانة (ص ٥٧) بلاد التبر .

وذكر على بن سعيد المغربى (ت ٦٨٥هـ—١٢٨٦ م) فى كتابه « بسط الأرض فى الطول والعرض» (نشره خوان فرنيط خينس، تيطوان ١٩٥٨، فى ص ٢٤ — ٢٨ ، التكرور ومدنها ، كما ذكر ابو الفداء (ت ٧٣٢هـ ١٣٣١ م) فى « تقويم البلدان ،ط باريس ، ص ٢ ، ١٥٣ ، بلاد التكرور وقد نقل عن ابن سعيد ما كتبه عن مدينة أودغشت (ص ١٢٧).

وابن أبى زرع (ت ١٣٢٦) ، صاحب « الأنيس المطرب بروضة القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس » . وقد حققه

المستشرق تورنبرج ١٨٢٩ . وترجمه إلى الفرنسية A. Beumier بعنوان « روضة القرطاس » في عام ١٨٦٠ .

وفى القرن الرابع عشر يقابلنا أحمد بن فضل الله العمرى (١٣٠١-١٣٩٨) صاحب «مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار» (١) ألفه فيما بين ١٣٤٢-١٣٤٦ وهو لا يزال مخطوطاً بدار الكتب المصرية (رقم ٢٥٦٨) ويقع فى ٢٠ جزءاً ، وقد حقق المرحوم أحمد زكى باشا ونشر الجزء الأول من هذا المخطوط عام ١٩٢٤ . وكثيراً ما يقتبس منه القلقشندى فى كتابه « صبح الأعشى » ويأخذ منه فقرات كاملة .

وتقى الدين أحمد المقريزى (١٣٦٤) - ١٤٤٢) صاحب الخطط المعروفة وله كتاب بعنوان :«الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك » نشره لأول مرة الأستاذ جمال الدين الشيال فى عام ١٩٥٥ ضمن سلسلة مكتبة المقريزى الصغيرة ، وقد ذكر فيه منسى موسى أول من حج من ملوك مالى (التكرور) ، (ص ١١٠ — ١١٣) (٢) .

ومن أهم المراجع العربية فى القرن الرابع عشر أبو عبد الله محمد بن بطوطة (١٣٠٤—١٣٨٨) ، صاحب كتاب « تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » ، وهذا الكتاب عامر بوصف أحوال دول غرب أفريقيا ، ولا سيما مالى قاعدة الدول الأسلامية التى زارها ابن

---

(١) ترجمه إلى الفرنسية جودفرى ديمومبين ، باريس ٩٢٧ . انظر ما كتبه عن ابن فضل الله فى كتابه La Syrie a l'epoque de Mamelouks. فى القسم المتون Les Auteurs Arades

(٢) Descriqtion des races des Noirs et Pélerinages des Sultans Tekrur (vers 1420).

بطوطة وأمضى فيها ثمانية أشهر ، وقد شاهد ابن بطوطة نهر النيجر وظنه متصلا بنهر النيل ، كما زار تنبكتو حينما كانت مركزا للحضارة الإسلامية، وأخذ يجول فى بلاد للسودان الغربى وواحاته حتى وصل تاكدا وهى حينذاك أكبر مدن الطوارق . كان ذلك فى أثناء رحلة ابن بطوطة الثالثة التى خصصها للسودان الغربى حوالى عام ١٣٥٢ .

وزودنا المؤرخ الفيلسوف عبدالرحمن بن خلدون (١٣٣٢—١٤٠٦) فى كتابه «العبر وديوان المبتدأ والخبر» (تاريخ البربر والأسرات الإسلامية ، ٣ أجزاء) ، على حقائق هامة عن السودان الغربى وعلى معلومات دقيقة وللمرة الأولى عن قبائل الطوارق التى كانت فى منطقة أير Air (أسبن) فى الصحراء الكبرى وأهم مدنها أجادس التى بنيت فى القرن١٥ ، وجميع سكانها مسلمون (١)

وأحمد بن عبد الله القلقشندى (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨) صاحب صبح الأعشى ، أمدنا بصورة جلية لمجتمع دولة مالى الأسلامية ، وأورد ثبتاً لحكامها قبل وبعد اعتناقهم الإسلام ، كما بين لنا الصلات الوطيدة التى كانت تربط سلطنة برنو بمصر على أيام السلطان الظاهر سيف الدين بن برقوق ، وعثمان برى بن إدريس وسلطان برنو حوالى سنة ٧٩٤ هـ/١٢٩١-٩٢ (٢).

* * *

الحسن بن الوزان (ليون الأفريقى) :

ومن أهم المراجع، ما كتبه الحسن بن محمد الوزان الزياتى (١٤٩٢-١٥٥٢)

(١ Ibn Khaldoun, Histoire des Berbéres (1373), trad. De Slaoe, Alget.1852-0856 4 vab
وصدرت طبعة فى باريس عام ٢٥ (٥ أجزاء) .

(٢ يراجع الجزء الخامس لذى تناول فيه الكلام عن غانه ومالى . ويراجع الجزء الثامن ص ١١٦ — ١١٨ وفيه ما ورد عن كانم — برنو .

(المعروف باسمه ليون الأفريقى (١)) . ولد فى غرناطة عام ١٤٩٢ وتلقى العلوم فى فاس ثم رافق عمه فى بعثة سياسية أوفدها سلطان مراكش إلى بلاط محمد أكسيا إمبراطور سنغاى فى جاغ وقام بعد ذلك برحلة طويلة فى غرب أفريقيا . ثم وقع أسيراً فى قبضة بعض القرصان المسيحيين فى البحر ، فأخذوه إلى روما ، وتعهده البابا ليو العاشر فشجعه على الدرس والمطالعة ، عاش سنين طويلة فى روما وزار فى خلالها عدة مدن إيطالية ليعلم اللغة العربية فيها . ولما مات البابا عاد الحسن بن محمد إلى تونس واتخذها مقاماً له حتى توفى عام ١٥٥٢ . ولقد أفاد الحسن من رحلته الأولى فائدة بكثير من المعلومات التى دونها فى كتاب رحلته . وكان رحالتنا قد مر بجنى ومالى وتنبكتو وجوجو وجوبر ، وكانو ، وكتسينا وزنفرا ونقارة ، وبرنو وغيرها وقد وصف تلك الأماكن وصفاً جيداً وتكلم عن أحوال مجتمعاتها بإفاضة ، والجدير بالذكر أن الحسن خص مصر ، ولا سيما القاهرة بفصل طويل فى كتابه وكانت البلاد حينذاك قد خضعت لحكم العثمانيين ، وقد ذكر الرحالة الحسن فى كتابه ، المؤرخ والشاعر أبو اسحق إبراهيم المعروف بابن الرقيق القيروانى (ت حوالى ١٠٢٦ م) (٢) صاحب كتاب « تاريخ أفريقيا والمغرب » الذى أفاد منه كثيراً المؤرخ ابن خلدون (٣) .

---

(١) كتب الحسن كتابه بالعربية ، ثم ترجم فى حياته إلى الايطالية ١٥٢٦ م .

Le.n L'Afiique : Description de l'Afrique tierac partie du Monde : tradait do l'italien par E. Epaulard et annoté par Théodore Monodei Henri Lhote el Raymoud Mauny.

صدرت الطبعة الانجليزية بمعرفه جون بورى وبواسطة جمعية هاكليوت فى لندن عام ١٨٩٦

(٢) قدم ابن الرقيق مصر سنة ٢٨٨ هـ - ٩٩٨ م فى زمن الحاكم بأمر الله وله قصيدة طريفة وصف فيها أحوال القاهرة وترحيب أهلها به .

(٣) Mauny, R, « L'Ouest Africain chez les géographes arabea du Moyen ag » . Compts randus de ta Conférenoo Internationale deds Africainietes de J'Ouest, Santa Isabel, 1051, vol. II, pp- 503 508.

محمد بن عمر التونسى (ت ١٨٥٧)

صاحب كتاب « تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان » أهم مصدر للتعريف بأحوال إقليم دارفور الذى قامت فيه سلطنة إسلامية كانت تكون حلقة فى سلسلة الممالك الإسلامية السودانية الواقعة بين الصحراء الكبرى ومصر فى الشمال ، وبين الغابات الاستوائية فى الجنوب ، وتمتد من البحر الأحمر شرقاً إلى المحيط الأطلسى غرباً ، وتشمل ممالك سنار وكردفان ودارفور ووادای وباجرمى وبرنو وأوكانم وممالك الهوسا ثم مالى (١) . أما كتابه الثانى ، فهو رحلة واداى (جمهورية أفريقيا الاستوائية اليوم) وقام المستشرق بيرون بترجمتها إلى الفرنسية ونشرها فى باريس عام ١٨٥١ ولم ينشر النص العربى لهذه الرحلة حتى اليوم ، ولعله فى حوزة أسرة برون (٢) الذى كان مديراً لمدرسة الطب بالقصر العينى عام ١٨٣٩ .

وللتونسى مؤلفات أخرى ساعده على كتابتها عمله كمصحح أو كرئيس لمراجعى الكتب المترجمة فى مدرسة الطب بالقاهرة ومنها :

« الشذور الذهبية فى المصطلحات الطبية » صنفه بتكليف من الطبيب كلوت بك وهو ما زال مخطوطا بالمكتبة الوطنية بباريس رقم ٤٦٤١ ويوجد

---

(١) طبع كتاب « تشحيذ الأذهان » طبع حجر للمرة الأولى بإشراف الدكتور بيرون Perron فى باريس سنة ١٨٥٠ وترجمه بدوره الى الفرنسية بعنوان Voynge au Darfur وقام بتحقيق هذا الكتاب ونشره الاستاذان الدكتور خليل محمود عساكر والدكتور مصطفى محمد مسعد وراجعه الاستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة عام ١٩٦٥ فى مجموعة كتب تراثنا) أنظر : عبد العزيز عبد الحق . استدراكات عن الرحلة فى هذا العدد من المجلة .

(٢) نشر برون الترجمة الفرنسية لهذه الرحلة وجعل عنوانها : Voyage au Waday.

منه بدار الكتب المصرية أربع نسخ مصورة من نسخة باريس . وقد طبع منه الجزء الأول فقط .

وجرى محمد بن عمر التونسى فى أواخر أيامه ، على إلقاء دروس فى الحديث بمسجد السيدة زينب فى يوم الجمعة من كل أسبوع ، وتوفى بالقاهرة سنة ١٢٧٤ هـ / ١٨٥٧ بعد أن عمر سبعين سنة .

والجدير بالذكر أن عمر التونسى تلقى علومه الدينية فى الأزهر وتزوج من فتاة مصرية أنجب منه ابنه محمد عام ١٧٨٩ . بدأ رحلته إلى دارفور عام ١٨٠٣ وعاش فيها نحو سبع سنوات ونصف السنة ، ألم خلالها بأحوال البلاد إلماماً تاماً . ثم سافر إلى واداى فى غربها حيث قضى فيها ثمانية عشر شهراً ثم استأذن السلطان صابون فى السفر إلى تونس . فأذن له وبلغها حوالى عام ١٨١٣ ثم عاد إلى القاهرة ليلتحق بخدمة الجيش المصرى فى وظيفة واعظ بإحدى فرق المشاة التى حاربت فى المورة سنة ١٨٢٧ . ولما عاد منها عام ١٨٣٢ اشتغل بتنقيح كتب الطب المترجمة إلى العربية ، وفى مدرسة الطب التقى بالدكتور بيرون الفرنسى الذى أخذ يتعلم العربية على يد محمد بن عمر التونسى . ولما علم الطبيب برحلة التونسى فى بلاد السودان ودارفور وواداى شجعه على كتابة مذكراته عنها ففعل . ويعتبر كتاب « تشحيذ الأذهان » أهم مراجع واداى ، ولا سيما بعد ما أصابها من الخراب فى أعقاب إقامة امبراطورية رابح السودانى ، وبداية الاستعمار الفرنسى فى تلك البلاد .

* * *

وقبل أن نختم هذا الثبت الضخم بمنجزات علماء العرب فى حقل الأفريقيات نذكر العمل العلمى الجدير بالثناء : أطلس أفريقيا ومصر الجغرافى Monumenta Cartographica Africae et Aegypti الذى نشره

على نفقته الأمير يوسف كمال فى خمسة مجلدات ضخمة بين ١٩٢٩ و١٩٥١ ، وقد جمع فيه ما كتبه العرب وغيرهم عن البلدان الأفريقية ، ولا سيما مصر فى اللغتين العربية والفرنسية ، بالإضافة إلى ما ورد فى مؤلفاتهم من الخرائط القديمة النادرة .

نعوم شقير (ت ١٩٢٢) :

مؤلف تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته ، ويعتبر هذا الكتاب الجليل إلى اليوم من أهم المراجع العربية ، ليس فقط عن سودان وادى النيل حتى عام ١٩٠٠ ، بل إنه يحتوى على كثير من المعلومات التاريخية التى تتعلق بدارفور وسلطنتها منذ أول نشأتها إلى الفتح المصرى الأول (٨٤٨-١٨٧٥) . ثم استعادة فتحها بعد ذلك(١) ولذلك يعتبر تتمة لما كتبه التونسى من قبل .

٢ — مراجع المؤرخين الأفريقيين

من المتفق عليه بين العلماء أن الكتابة بالحروف العربية والتأليف باللغة العربية وصلتا إلى غرب أفريقيا فى أثناء قيام أسرة المرابطين ونهوض هذه الأسرة بفتح مملكة غانا القديمة ووصول أبى بكر بن عمر المرابطى إلى منطقة النيجر بين عامى ٤٧١ - ٤٧٥ هـ (١٠٧٨-١٠٨٢) ، ويتفق هذا التاريخ مع تاريخ انتشار الإسلام فى المنطقة المذكورة (٢) . وقد وجه علماء غرب

(١) نعوم شقير : تاريخ السودان ، ص ١١١ — ١١٧ ، مطبعة المعارف ١٩٠٣

(٢) يتفق هذا مع ما جاء فى كتاب «الحلل الموشية» ص ١٣ ، تونس عام ١٩١١ عن تحركات أبى بكر بن عمر الذى غادر المغرب قاصدا الصحراء عام ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م ثم عاد لزيارة المغرب ثانية فى ٤٦٥ هـ ١٠٧٢ م ورجع ثانية إلى جنوب الصحراء وبقى بها حتى توفى عام ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م .

أفريقيا جل عنايتهم إلى دراسة الفقه والتأليف فيه ، ولا سيما فقه الإمام مالك ، كما أنهم التزموا بمنهج تفكير علماء المرابطين فتأثروا به كثيراً . ولم يصل إلينا شيء من مؤلفات العلماء الأفريقيين التي تذهب إلى هذا العصر المبكر بالنسبة لهم ، أو حتى بعض عنوانات قليلة لرسائل ربما فقدت . ومما يثير الدهشة أيضاً أنه لم يصل إلينا سوى شذرات من تراث مالى الأدبى بالرغم من ازدهار تلك المملكة . وهذه الشذرات ذكرها المستشرق بالمر فى كتابه « ذكريات سودانية » (١) .

وليس الآن مجال الحديث عن العلامة الفقيه أحمد با التنبكتى (١٥٥٣-١٦٢٧) صاحب المؤلفات التى تربو على الأربعين ، وفى طليعتها « نيل الابتهاج بتطريز الديباج » (٢) ، ويمدنا هذا العلامة الجليل فى مؤلفه هذا بصورة لامعة للتراث الفكرى فى السودان الغربى فى القرن الخامس عشر وما بعده بقليل .

القرن الخامس عشر

وأولى المراجع الهامة فى أخريات القرن الخامس عشر يمدنا بها أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم المغيلى الفقيه التلمسانى الأصل . ويذكر عنه أنه فى أثناء إقامته فى توات أرحى بحركة شعبية ضد اليهود لأنهم شيدوا معبداً لهم دون إذن . وقيل أنه أوصى بدفع سبعة مثاقيل ذهب عن كل رأس يهودى .

---

(١) Palmer, H. R, ; Sudanese Mem oirs, Lagos 1928,
وقد أطلق بالمر على مجموعة قليلة من المخطوطات العربية « أخبار كانو » ونشرها فى كتابه The Kano Chronicle : ص ١٠٠ — ١٠١ ، وص ١٠٤ — ١٠٥ بعنوان ويرجع تاريخها حوالى ١٢٤٩ — ١٢٨٥
(٢) طبع على هامش كتاب الديباج المذهب لابن فرحون . القاهرة ١٣٠١ هـ .

انتقل من توات فزار أير وتاكدا وكتسينا وكانو . وفى البلدتين الأخيرتين ألقى دروساً فى الدين وفى الشريعة الإسلامية ثم قصد جاغ عاصمـة دولة صنغاى الإسلامية وكان على عرشها السلطان الحاج محمد أسكيا. فلما تقابلا سأله السلطان فى بعض مسائل الشريعة . ولما وصل إلى المغيلي نبأ مقتل ابنه على يد اليهود ، أسرع عائداً إلى توات ، حيث لاقته المنية بعد ذلك بقليل (عام ٩٠٩ هـ-١٥٠٤) . وذكر مارتى، ١ فى رسالته عن الإسلام فى غرب السودان ان المغيلي هو الذى أدخل طريقة القادرية الصوفية فى تلك المنطقه ويحتمل أن يكون مارتى قد عثر على تلك الحقيقة فى مخطوطه ، فتـح الشكور، (٢) فإذا ثبت صحة هذه الحقيقة الهامة ، فقد تساعدنا على تفسير الأسباب التى من أجلها ظلت كتابات المغيلي وذكراه حية فى غرب أفريقيا، بينما لا يذكر شيء عن أعمال أسلافه فى القرون السابقة . ولا تزال آثار المغيلي باقية وقد اقتبس منها كثير من العلماء النيجيريين ولا سيما فيما كتبه المصلح الإمام الشيخ عثمان دان فوديو الذى أفاد كثيراً من آراء المغيلي فى الحركة الجليلة التى نهض بها فى أخريات القرن ١٨

ونذكر فيما يلى أهم آثار المغيلي الباقية :

١ - التعريف فيما يجب على الملوك (٣) :

٢ - مختصر فيما يجوز للحكام فى رد الناس عن الحرام . (يرجع كتابتها فى عام ٧٩٧ هـ - ١٤٩١) .

---

(١) Marty, P. ; L'Islam et les tribus du Soudan. 20 - I., 35, 41.

(٢) Smith, H. E. ; « Source material for the history of the Western Sudan » J. of the Historical Society of Nigeria, 1, 3, 1958, 244.

(٣) قام بتحقيق النص العربى محمد زيان بن محمد المأمون وزير كسـنا ، طبيروت ١٩٣١ وترجمات .هـ. بلدوين الى الإنجليزية بعنوان : The Obligatieons of Princes. بيروت ١٩٣٢ ؛ ذكرها بروكلمان ؟ جـ ٢ ص ٣١٢ ، وذكرها أحمد بابا فى نيل الابتهاج ، ص ٢٠٣

٣ — تأليف إجابة فيه عن مسائل . (هكذا ورد في نيل الابتهاج ، ص ٣٣٠) .

٤ — تأليف فيما يجب على المسلمين من اجتناب الكفار (١) .

٥ — أحكام الذمة .

٦ — ورقات فى عمل اليوم والليلة .

٧ — البدر المنير فى علم التفسير .

٨ — مصباح الأرواح فى أصول الفلاح (قطعتان أرسلهما إلى السنوسى وابن غازى) .

٩ — المغنى النبيل فى شرح مختصر الخليل .

١٠ — اكليل المغنى

١١ — شرح « بيوع الآجال » لابن الحاجب الفقيه المالكى القاهرى .

١٢ — مختصر «تلخيص المفتاح» للقزوينى مع شرحه .

١٣ — تأليف فى المنهيات (طبع فى القاهرة) .

١٤ — مفتاح النظر فى علم الحديث .

١٥ — شرح الجمل (رسالة فى المنطق للخونجى) .

١٦ — المقدمة فى المنطق .

١٧ — منح الوهاب (قصيدة)(٢) .

١٨ — شروح وتعليقات على ما ورد فى ١٥ ، ١٦ ، ١٧ .

١٩ — تنبيه الغافلين عن مكر الملبسين بدعوى مقامات العارفين .

---

(١) *Ctalogue to MSS arabes de Rabat, I, 260 item 1386.

(٢) بروكلمان : الملحق ؟ ح ٢ ، ص ٢٦٣ . انظر التعريف عن المغيلى فى النيل ص ٣٣١

(٣) يرجح أنها وردت فى نيل الابتهاج بعنوان « منظومة المغيلى فى المنطق » ص ٩٤ ، ورجزا نيل فى المنطق ؟ نيل ص ٣٤٢

٢٠ ــ شرح خطبة المختصر .

٢١ ــ المقدمة فى العربية .

٢٢ ــ الفتح المبين .

٢٣ ــ مجموعة قصائد منها دينية على وزن البردة .

القرن السادس عشر

خلفاء المغيلى :

ويمدنا أحمد بابا التنبكتى فى النيل بأسماء خلفاء المغيلى من الفقهاء ، ثم نقلها المؤرخ عبدالرحمن السعدى فى كتابه « تاريخ السودان » . ومن هؤلاء العلماء :

محمد بن أحمد بن أبى محمد التازختى (عايدا ـ أحمد) . اشتهر فى بلاد الهوسا وتتلمذ فى تاكدا . ثم رافق محمود بن عمر بن محمـــد عقيت فى أثناء الحج (ح ٩١٥/١٥٠٩) واتصل فى أثناء إقامته فى مصر ببعض علمائها ، مثل شيخ الإسلام زكريا ، وبرهان الدين القلقشندى ، وحضر دروس الأخين اللقانين ، وأحمد بن عبد الحق السنباطى . وفى أثناء وجوده بمكة نال الأجازة من أبى البركات النويرى ومن ابن أخيه عبد القادر ، وعلى بن ناصر الحجازى ، وأبى طيب اليسطى ولما عاد التازختى إلى كتسينا استقر بها ونصبه السلطان قاضياً . فأذاع ما حصل عليه من علم ومعرفة [١] . وتوفى فى حدود ٩٣٦ ـ ١٥٢٩م وهو فى الستين من عمره بعد ما كتب عدة شروح لمختصر الخليل وتصانيف أخرى . ولم يصل إلينا شىء من أعماله .

---

[١] عبد الرحمن السعدى : ص ٢٧

مخلوف بن علي بن صالح البلبالي :

هو فقيه كانو وكتسينا وتلميذ عبد الله بن عمر بن محمد عقيت عم أحمد بابا التنبكتي في ولاته. اشتغل بالتجارة قبل العلم ورحل إلى المغرب حيث حضر دروس ابن غازي وغيره من العلماء وقد اشتهر بقوة ذاكرته وعرف عنه أنه عرف صحيح البخاري عن ظهر قلب. ولما عاد إلى كانو وكتسينا اتصل بالفقيه العاقب بن عبد الله الأنصمني الذي سيرد اسمه، ثم رجع إلى تنبكتو وقصد مراكش مرة أخرى ولما عاد إلى وطنه توفاه الله وذلك بعد عام ٩٤٠هـ - ١٥٢٣

العاقب بن عبد الله الانصمني المسوفي :

معاصر مخلوف وهو من أهل أجادس (في النيجر اليوم) وهذه أسماء بعض تصانيفه:

التعليق على قول الخليل وخصيصة نية الحالف .

وجوب الجمعة بقرية أنصمن .

الجواب المحدود عن أسئلة القاضي محمد بن محمود .

أجوبة الفقير عن أسئلة الضمير .

وكان الأنصمني واحداً من تلاميذ المغيلي وحضر بعض دروس السيطوي في أثناء إقامته بمصر وهو في طريقه إلى الحج . وقد اختلف كثيراً في بعض المسائل مع الفقيه مخلوف البلبالي. كان على قيد الحياة حتى عام ٩٥٠هـ-١٥٤٣

الإمام أحمد بن فرتوه البرناوي :

من جيل علماء تنبكتو الكبار الذين ذكرهم احمد بابا وقد وصلت إلينا

أهم مؤلفاته (١) فى رسالتين خطيرتى الشأن : الأولى تاريخ الاثنتى عشرة سنة الأولى فى حكم ادريس علومه سلطان برنو (١٥٧١ - ١٥٨٣) ، والرسالة الثانية « حروب كانم ضد قبائل البلالة » . وقام بنشرهما المؤرخ بالمر ، وتعتبر هاتان الرسالتان من أهم المراجع العربية فى تاريخ برنو الإسلامى . ومن المرجح أن ابن فرتوه كتب رسالتين حوالى عام ١٥٧٥ ومن محتوياتهما نستطيع الوقوف على أشياء كثيرة من حياته .

شمس الدين النجيب بن محمد التكداوى الأنصمنى :

معاصر العلامة أحمد بابا وهو مؤلف شرحين لمختصر الخليل ، الشرح الأول فى أربعة أجزاء ، والثانى فى جزئين ، ولها ذيل عن « معجزات البكرى » ، وكان النجيب حياً فى عام ١٠٠٥ هـ - ١٥٩٧ حينما انتهى أحمد بابا من تأليف « النيل » .

ونذكر هنا الشيخ سفرمة عمر بن عثمان الذى ألف فى تاريخ برنو فى أوائل القرن ١٦ ، ويعرف مؤلفه بعنوانه « ديوان السلاطين » . وقد عثر الرحاله بارث الألمانى حوالى عام ١٨٥٢ على إحدى نسخ الكتاب (٢) وترجمها بالمر إلى الإنجليزية .

---

(١) بالمر : تاريخ ماى ادريس وغزواته ، كانو ١٩٣٢ . وهناك ترجمه انجليزيه لبالمر انظر أيضاً لبالمر : Mai Idris of Bornu, lagos 1926

(٢) Sudanese Memoirs, Lagos, 1928, 1. 15-72,
B arth ; Travels in North and Central Africa vol. 11, P, 633.
وقد ترجمه بالمر وضمه إلى كتابه (ماى إدريس ملك برنو) .

وينبغي أن نشير هنا إلى الصلة الوثيقة التي قامت بين تنبكتو أهم مراكز الثقافه الإسلاميه في غرب أفريقيا حتى أوائل القرن السابع عشر ، وبين جامعات المغرب الإسلامي ، فهذه المدينة الجليلة مدينة في ثقافتها وفي تراثها إلى المغرب [1] . وكانت على اتصال وثيق غير منقطع بمراكش وتونس والجزائر وغدامس وطرابلس ، والقاهرة أيضاً . وكان علماء المغرب دائبي الرحلة إلى تنبكتو . كما كان علماء تنبكتو كثيراً ما يقيمون بفاس أو مراكش يعلمون أو يتعلمون [2] . ومن المراكز الهامة أيضاً : جني ، وجاغ ، وكانو ، وكتسينا ، وقد أشار العلامة بارت إلى العلاقة التي نشأت بين جلال الدين السيوطي وبين أمير كتسينا ، وهناك ما يدل على أن السيوطي رحل إلى شمال نيجيريا وأقام في كتسينا زمناً يعلم الناس ، وعاد إلى مصر سنة ٨٧٦هـ ١٤٧١ وقد تحدث المؤرخ السعدي عن علماء مصر الذين زاروا تنبكتو وقضوا مدة للتدريس بمعاهدها ومساجدها .

ونمر بعد ذلك بأعمال علماء القرن السابع عشر .

محمد الكتسيناوي (ابن الصباغ) ، أو كما يعرف بين أهل الهوسا « دان مازينا » ، جاء عنه في كتاب « إنفاق الميسور » لمحمد بلو أنه كان أستاذاً لدان ما سنيه . الذي سنتكلم عنه بعد قليل . وهناك من يقول أن دان مارينا أقام في كتسينا وتوفي عام ١٦٥٥ [3] . وأهم مؤلفاته :

---

(١) عبد الرحمن زكي : الإسلام والمسلمون في غرب أفريقيا ؛ ص ٤٨ — ١٥٤

(٢) السعدي : ص ٣٩ ؛ ٤٠ ؛ ٤٧ ؛ ٤٤ ؛ ٦

(٣) Kensdalé : A Catalogue of the Arabic manuscripts preseaved in the University, Ibadan, Nigeria, 1955.

الشرح على عشر بينات الفرازى . ولا يعلم مقره اليوم .

مزجرات الفتيان وهي قصيدة موجهة إلى الفتيان من أجل تشجيعهم وبث الروح الدينية فيهم .

وله قصيدة فى مدح أمير المؤمنين على ، سلطان برنو (ماى على) ابن الحاج عمر البرناوى عقب انتصاره على جوكون وقد ترجمها بالمر ونشرها (١) . وتعتبر وثيقة هامة عن هذه الحرب .

أبو عبد الله محمد بن ماسنية برنوج البرناوى الكتسيناوى :

صاحب النفحة العنبرية فى حل ألفاظ العشرينية للفزازى ويقع الكتاب فى ٢١٩ ورقة تحتوى على المتن وقد أكمل أبو عبد الله عمله هذا فى ربيع الأول عام ١٠٤٩ / ١٦٤٠ . أما مصنفاته الأخرى فهى :

ـ اللطيف المنظوم وليس فيه حرف منقوط فوقانية ولا تحتانية .

ـ البزوغ الشمسية ؟ على مقدمة العشماوية . وهو شرح لكتاب عبد البارى الرفاعى العشماوى الموسوم «المقدمة العشماوية فى العبادات» (٢) .

ـ تزيين العصا وضرب هامات من عصى .

ـ عين الخلاص فى تلاوته سورة الإخلاص .

ـ شفاء الربى فى تحرير فقهاء البوربا .

ـ نزهة يسيرة على معرفة ما يقبل الصرف وعدمه .

---

(١) Polmer, H. R.; History of Kateina. Journal of the African Society. XXVI,, April 1927, pp. 226-22٤.

(٢) بروكلمان : تاريخ آداب اللغة العربية ، الملحق ؟ ج ٢ ص ٢٩٥

- فتح المرام بمثل قصيدة ابن هشام .

ولا تزال سلالة أسرة ابن ماسنيه تقيم فى كتبنا ولأفرادها مكانة محترمة .

عبد الرحمن بن عبدالله السعدى (١٥٩٦ - ١٦٥٥):

صاحب كتاب « تاريخ السودان » (١) وألمع مؤرخى غرب أفريقيا حتى القرن التاسع عشر ، وهو مؤرخ إمبراطورية سنغاى دون منازع. تناول فى كتابه تاريخ غانة ومالى وحضارتها وذكر قبائلها بإيجاز ، ثم تحدث طويلاً عن أحوال سنغاى فى أثناء حكم سلاطينها الكبار من أسرة أسكيا، وينتمى السعدى إلى إحدى أسرات تنبكتو الرفيعة . وتلقى العلم فى معاهد مدينته ثم اشتغل محاسباً وفى عام ١٦٢٧ عين إماماً لمسجد سنكوريه فى مدينة جنى . وفى عام ١٦٣٧ عاد إلى تنبكتو ليشغل وظيفة إمام المدينة ، وعين فى منصب « الكاتب » (أمين عام الدولة) ، ثم أخذ فى تأليف كتابه بالعربية الذى انتهى فيه بأحداث عام ١٦٥٥ . وقد أشار السعدى كثيراً إلى أعمال أحمد بابا وغيره من العلماء فى كتابه (٢) . فقد أورد تراجم سبعة عشر عالماً من تنبكتو مبيناً الميادين العلمية التى تخصص فيها كل منهم، وكانوا من النحاة والمناطقة والفقهاء والأدباء وعلماء اللغة والتفسير والحديث ، والأطباء . وقد عدد بعض مؤلفاتهم التى ضاعت بسبب ما أصاب تنبكتو منذ الفتح المغربى حتى الاحتلال الفرنسى. ومن هؤلاء العلماء المؤرخ محمد بن محمود ت ١٥٦٥ وكان فيلسوفاً . ويتحدث السعدى عن أستاذه الوانلورى ، فيقول : «لقد تعلمت منه الكثير ، وأجاز لى كتباً قرأتها عليه ، بخط يده ، وأهديت اليه بعض المصنفات التى ألفتها بمساعدته . ويسرد السعدى فى تاريخه براهين

---

(١) ترجم المستشرق هودا (Houdas) تاريخ السودان إلى الفرنسية ونشره أيضاً فى لغته العربية عام ١٩٠٠

(٢) الفصل العاشر .

تؤكد وجود مجتمع ثقافي عربي يحاكي المجتمعات في شمال أفريقيا . وإن الأثرين العظيمين اللذين تركهما السعدي ومحمود كعت الذي سنتكلم عنه ، يشهدان على دقة في البحث التاريخي وأمانة في سرد الحوادث ، فقد ذكرا في كتابيهما المصادر ورجال السند ، واحتفظا بالنصوص المنقولة منسوبة إلى أصحابها .

والجدير بالذكر أن كاتباً مجهولا ولد في تنبكتو عام ١١٦٤ هـ (١٧٥١) وكان حفيداً من أحفاد الأمير محمد بن سودو أتم كتاب السعدي بإضافة أحداث المغاربة في مملكة سنغاي في كتاب تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان : نشره هودا (Houdes) الفرنسي عام ١٨٩٩ .

محمود كعت التنبكي (١٤٦٨- ١٥٩٣) :

مؤلف أكثر فصول كتاب ، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، ترجمة المستشرقان هودا ودى لافوس إلى الفرنسية ، وطبع في باريس عام ١٩١٣ كما أصدر النسخة العربية في العام المذكور .

وذكر المحققان هوداس ودى لافوس أن الكتاب احتوى على كثير من الأخطاء اللغوية التي وقع فيها محمود كعت وأحفاده الذين أسهموا في كتابة الفصول الأخيرة من الكتاب . فهم لم يكونوا عرباً أو من الشعوب التي تجيد الكتابة باللغة العربية . بل كانوا من قبائل السوننكة ولغتهم إحدى لغات السنغاى، ويبحث هذا الكتاب في تاريخ ونظم دولة سنغاى تحت حكم أسرة أسكيا التي اتخذت جاغ قاعدة لها منذ تولى الحكم الحاج محمد أسكيا (١٤٩٣- ١٥٢٩) حتى غزا المغرب سنغاى عام ١٥٩١ ، بالإضافة إلى تاريخ سنغاي،

تناول المشتركون فى تأليف « الفتاش » تاريخ الدول السودانية الإسلامية الأخرى.كايا باجا ، ودبارة ومالى . وقد وقفت الأحداث التى تناولها محمود كعت المؤلف الأول للفتاش عند السنوات الأولى للغزو المغربى .

ومحمود كعت ابن الحاج المتوكل كعت وهو اسم المؤلف الذى ذكره السعدى فى كتابه «تاريخ السودان» . ولد حوالى عام ١٤٦٨ وبدأ كتابة مؤلفه وهو فى الخمسين من عمره أى عام ١٥١٩ كما ذكر فى كتابه . وكان من أصـــدقاء الحاج محمد أسكيا المقربين ، صاحبه فى تأدية فريضة الحج إلى مكة . وكان موضع ثقته وثقة خلفائه . عاش طويلاً وكان شاهد عيان لحوادث الغزو المغربى أحمد بن الحاج أحمد والد العلامة أحمد بابا . ويلاحظ أن أحداث «الفتاش» انتهت أصلا عام ١٥٩٩ أى بعد وفاة محمود بست سنوات» ويبدو أن أحد أحفاده هو الذى كتب أحداث السنوات الست التالية لوفاته ، ولم يقم بهذا العمل واحد من أبنائه الذين عملوا فى وظائف الدولة ولم يضيفوا إلى مخطوط أبيهم شيئاً حتى تناوله أحفاد أبنائه ثم أحفادهم فأتموا كتابة المخطوط بعد ما نسقوا أوراق جدهم الكبير . وهكذا نرى « الفتاش » قد أسهم فى كتابته أسرة العالم الكبير وهو الملهم البادىء الأول فى تأليف هذا السفر الجليل . وللأسف لم يذكر واحد منهم اسمـــه مع أنه ذكر أنه والد المختار «جبيلة وأن والدته كانت ابنة العالم ألفا محمود كعت كما تحدث عن أخواله : القاضى إسماعيل كعت ، والثانى القاضى محمد الأمين كعت ، والثالث يوسف كعت .

قلنا إن الأحداث الأولى التى أضيفت إلى الفتاش تنتهى فى عام ١٥٩٩، ثم أضاف الأحفاد أحداث زمانهم فانتهوا بها إلى عام ١٦٦٥. وهكذا رأينا أن محمود كعت بدأ تأليف كتابه عام ١٥١٩ وأنجزه الأحفاد عام ١٦٦٥

وربما بعد ذلك أى بعد مرور عشر سنوات على انتهاء السعدى من تأليف كتابه «تاريخ السودان» . ولذلك استصوبنا ذكر كتاب السعدى قبل الفتاش.

وقد تحدث كعت فى مقدمة كتابه ، عما يمكن أن يسمى النقد العلمى فى البحث التاريخى ، فقال .

« لما رأيت إهمال الناس للتاريخ ، على ماله من فائدة جليلة فى معرفة البلاد ، والوقوف على أخبار أبطالها ، التمست من الله تعالى، جلت قدرته، أن يساعدنى على كتابة هذا التاريخ الذى يبحث فى سلاطين السودان » .

باباكور بن الحاج محمد بن الحاج الأمين كانو :

يقول عنه محمود كعت مؤلف «الفتاش» ، إنه كان من مهاجرى كانو ، ونسب إليه تاريخ «دور الحسان فى أخبار بعض ملوك السودان» . وقال عنه إنه معين لا ينضب من المعلومات التاريخية . ومما يؤسف أن هذا المرجع لم يصل الينا .

وحينما يتقدم بنا الزمن إلى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، نلمس تطوراً كبيراً فى الثقافة العربية فى غرب أفريقيا، يشهد به الرحالة البريطانيون الذين زاروا مدنها خلال هذين القرنين .

القرن الثامن عشر

الحاج عبد السلام الشبينى .

وهناك رسالة للحاج عبدالسلام الشبينى ، وهو مغربى من تيطوان، رافق

والده فى رحلة للتجارة إلى تنبكتو وبلاد الهوسا حول عام ١٧٨٧ لما كان فى السابعة عشرة ثم وقع أسيراً فى قبضة الروس عام ١٧٩٥ فى أثناء عودته من رحلة للتجارة إلى هامبورج لشراء الكتان وبعض السلع. ثم نزل ميناء دوفر بإنجلترا واستقر بعض الأعوام فى تلك البلاد، حيث حكى لبريطانى اسمه جاكسون أخبار مشاهداته فى بلاد الهوسا وتنبكتو (١). ومع أن ما جاء فى هذه الرسالة لا يعتبر من المراجع الرئيسية، إلا أنها هامة لتناولها وصف أحوال تلك البلاد فى أثناء النصف الثانى من القرن ١٨ قبيل أيام الحركة الإصلاحية التى تزعمها الشيخ عثمان دان فوديو.

عثمان دان فوديو (١٧٥٤ - ١٨١٧) وشقيقه عبد الله وابنه :

وهذا زعيم جليل لقبائل الفولة فى بلاد الهوسا. ومصلح بكل معنى الكلمة، تفقه فى العلوم الدينية ثم نهض بحركة إصلاحية كبرى شملت مناطق فسيحة فى غرب أفريقيا حتى برنو، وكان لهذه النهضة أثر عظيم فى تقدم أحوال المسلمين فيما يعرف اليوم بمالى ونيجيريا. وكانت هذه الحركة أيضاً لإعلاء الثقافة العربية فى تلك البلاد. فلم تكن دعوة فى الدين مبنية على صوفية، إنما أسست على حركة علمية وعلى دراسة أصيلة، والدليل على ذلك ما صدر من المؤلفات فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر، وفى طليعتها مؤلفات عثمان بن فرديو، فقد ألف حوالى العشرين كتاباً وبحثاً، معظمها فى الجهاد والسياسة والفقه، منها: أصول الولاية، وإحياء السنة، بيان البدع، علوم المعاملة، عمد العلماء، نصائح الأمة. وغيرها (٢) وكان شقيقه عبد الله بن فردى محدثاً قوى الحجة، ألف عدة كتب وقصائد،

---

(١) Jackson, G. : An account of Timbuctoo and Hausa. London 1820.

(٢) المرجع السابق ذكره Kensdale ; Catalogue.

منها تزيين الورقات ، وضياء السياسة ، وضياء الحكام ، وقد وصل إلينا من أعمال السلطان محمد بلو بن عثمان ، كتاب إنفاق الميسور فى تاريخ بلاد التكرور (١) جمع فيه أخبار القتال بين والده الشيخ عثمان والزعيم محمد الأمين الكانمى وكذلك الرسائل المتبادلة بينهما . وقد وصف محمد بلو فى كتابه بلاد الفولة والهوسا وذكر فيه أسماء بعض علمائهم .

* * *

وفى أوائل القرن العشرين ، تقابلنا مؤلفات الشيخ أحمد بامبا والحاج مالك سى ، وموسى كالم ، وتعتبر استمراراً للحركة الثقافية فى العصور السابقة ، فقد أنشأ زعماء الطريقة المريدية إحدى شعب الطريقة القادرية مدارس تعلم فيها اللغة العربية إلى جانب العلوم الدينية التقليدية. وأحمد بامبا هذا هو أمادوا بامبا من قبيلة الولوف الكبيرة وأصله من التوكولور . اضطهدته الإدارة الفرنسية ونفته من البلاد مراراً لاشتغاله بالسياسة . ثم قصر نشاطه على الشئون الدينية . ولما توفى عام ١٩٢٧ كان عدد أنصاره بلغ حوالى ٤٠٠,٠٠٠ شخص ، ولا يزال ضريحه مزاراً إلى اليوم فى بلدة طوبا التى تقع شمال شرقى دكار وهى أهم مراكز المريدية .

والمعروف أن الاستعمار بذل جهوداً جبارة لمقاومة الثقافة العربية وإحلال الثقافة الفرنسية محلها . وكان من أصالة الثقافة العربية فى صدور الناس أن عمد المسلمون إلى إنشاء المدارس فى المناطق التى تسيطر عليها الوثنية ، كما حدث فى شمال ساحل العاج ونيجيريا فى أقاليمها الجنوبية .

* * *

أدرك علماء الغرب منذ وطد الاستعمار الأوروبى أقدامه فى أفريقيا ،

---

(١) أصدر هذا الكتاب فى لغته العربية مستر وتنج Whiting المحاضر بمدرسة العلوم العربية بكانو عن نسخة خطية ونشرته مكتبة لوزاك بلندن عام ١٩٥٧

أهمية المخطوطات العربية ، فنقلوا كثيراً منها إلى مكتبات بلادهم (كالمتحف البريطانى ، والمكتبة الوطنية فى باريس وغيرهما ، ودأبوا على بحثها وترجمتها إلى لغاتهم ، كما نشطت الجمعيات والمعاهد الخاصة بالدراسات الأفريقية وأسهمت فى نشرها وطبعها ، ولا سيما ما اتصل من هذه المخطوطات بتاريخ الشعوب الأفريقية ، كما أنه تتكدس فى المعهد الفرنسى للآثار بدكار عاصمة سنغال أكثر من ثلثمائة مخطوط عربى تنتظر الباحثين . ومع ذلك فلا تزال هناك إلى اليوم مخطوطات عربية كثيرة فى غانا وغينيا وسنغال ونيجيريا لم تحقق بعد تحقيقاً علمياً تنتظر جهود المؤرخين العرب والأفريقيين ونأمل أن أن يكون الوقت قد حان للوفاء بهذا التراث العربى الجليل .

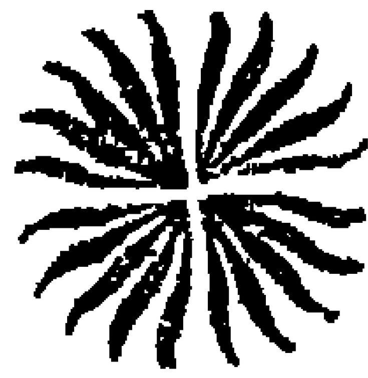
ومما يدعو إلى الغبطة ، أن فى هذا اليوم فى غرب أفريقيا حركة نشيطة تهدف إلى جمع هذا التراث العربى ، تنهض به جامعات غانة ونيجيريا وغينيا وسنغال ، الغرض منها تصنيف جميع المخطوطات العربية الموجودة فى المكتبات الخاصة والمتاحف والمعاهد ودراستها وتبويبها ، ثم نشر الكتالوجات العلمية الوصفية لكى تكون فى متناول العلماء والباحثين . وقد صدر منذ عامين ثبت عام للمخطوطات العربية الموجودة فى مكتبتى متحف جوس ولوجارد فى مدينة كادونا (١) بنيجيريا ونهضت جامعة أيبادان بنيجيريا منذ أعوام بالتعريف عن المخطوطات العربية التى فى حوزة مكتبتها وأصدر القائم على هذه المكتبة ثبتاً طيباً عن تلك المجموعة (٢) . وتتركز موضوعات غالبية مخطوطات إيبادان فى الدين والأدب ووصف الأحوال

---

(١) Aida S. Arif and Ahmad M. Abu Hakima ; Descriptive Catalogue of Arabic Manuscripts in Nigeria. Luzac, London 1965,

(٢) Kensdale, W. E. N, . A Catalogue of the Arabic manuscripts preserved in the University Library, Idadan, Niheria. 1955 - 58.

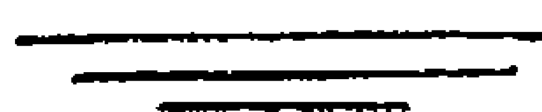
الاجتماعية التى سادت شمال نيجيريا فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ولا سيما خلال حركة الإصلاح الدينية التى تزعمها الشيخ المصلح عثمان دان فوديو، والتى أسهم فيها شقيقه عبدالله بن محمد، وابنه محمد بلو، وعبد القادر بن مصطفى حفيد الشيخ عثمان، وغيرهم من رجال الفكر بين المسلمين .



القســـــــــــم الثـانى

الإسلام فى شرق أفريقيا

فى العصـــور الوسطى



الفصل الثالث عشر

« الإسلام فى النوبة والسودان »

أخذت المسيحية تتسرب تسرباً بطيئاً إلى بلاد النوبة منذ أواخر القرن الثالث الميلادى ، وأخذت هجرة الجماعات المصرية المسيحية إلى الجنوب تزداد تدريجياً ، لما نالها من الاضطهاد بسبب الخلاف الذى نشب بين المسيحيين فى القرن الرابع ، حول طبيعة المسيح ، حتى تطلب الأمر إنشاء أسقفية فى فيلة فى القرن المذكور، كما أنشىء عدد من الأديرة والكنائس فى منطقة طيبة وأسوان (١) ويعتبر عصر الإمبراطور جستنيان (٥٢٧-٥٦٥) المرحلة الحاسمة من مراحل الدعوة المسيحية فى النوبة ، وفى ظل المسيحية ازدهرت ثلاث ممالك ، أولاها : مملكة النوباويين ، جنوبى الشلال الأول، وثانيتها : مملكة أطلق اليونانيون على سكانها اسم الوادى (علوة) ، وهى فى أقصى الجنوب من بلاد النوبة ، وثالثتها : مملكة مقرة ، وموقعها بين المملكتين السابقتين . وقد أطلق العرب على هذه الأقاليم جميعاً اسم النوبة.

والمعروف أن صلة النوبيين بالعرب قديمة ترجع إلى ما قبل ظهور الإسلام ، فلم يكن البحر الأحمر حاجزاً يمنع الاتصال بين شاطئه الآسيوى الغربى وشاطئه الأفريقى ، ولعل التجارة كانت أهم وسائل الاتصال بين

---

١) ذكرت بعض المراجع أن المسيحية دخلت النوبة على يد المبشرين المصريين فى القرنين الأول والثانى الميلاد ، بدليل أن بطريرك السكندرية المصريا منذ عهد المرحلة الأولى يحمل لقب بطريرك الإسكندرية والديار المصرية والنوبة والحبشة والمدن الخمس الغربية ؛

النوبة وبلاد العرب منذ العصور القديمة فى أثناء حكم دول سبأ والبطالمة والرومان .

ومنذ أن تم للعرب فتح مصر اتجهت سياستهم إلى فتح النوبة ، وذلك لضمان المحافظة على حدود مصر فى الجنوب ، وتأمين التجارة بين البلدين ، فأرسل عمرو بن العاص حملة من الفرسان ، بقيادة عقبة بن نافع ، لغزو النوبة عام ٦٤١ م . ولم تلق هذه الحملة القليلة العددالنجاح . ثم اتفق الفريقان على عقد هدنة بينهما ، وأن يستمر تبادل التجارة بين البلدين .

لم يحافظ النوبيون على العهد ، بعد أن علموا بعزل عمرو بن العاص ، فأرسلوا سراياهم إلى الصعيد للتخريب ، وقام عبد الله بن أبى السرح ، الذى خلف عمرا ، لردهم والانتقام منهم وتمكن جيشه من التوغل جنوباً حتى دنقلة عاصمة المملكة المسيحية الشمالية سنة ٦٥٢ م ، وحاصرها حصاراً شديداً ، واستخدم المنجنيقات فى ضرب المدينة ، وخربت كنيستهم . الأمر الذى من أجله طلب قليدور ملك النوبيين الصلح ، ووافق القائدالعربى على عقد صلح عرف باسم البقط ، ومؤداه أن يدفع ملك النوبة لبيت مال المسلمين ٣٦٠ رأساً من الرقيق ، ووعد عبد الله ابن سعد بهدية سنوية من حبوب وملابس . وكتب عبد الله بن سعد للنوبيين عهداً يعتبر أساساً للعلاقات بين مصر الإسلامية والنوبة المسيحية (١) — كما أنه يعتبر معاهدة حسن جوار تحقق للمسلمين الاطمئنان على سلامة حدودهم من ناحية الجنوب ، وفتح البلاد للتجارة ، والحصول على سواعد أهل النوبة فى خدمة الدولة ، وحفظ مصالح المسلمين وحريتهم الدينية ، ونشر الثقافية الإسلامية فى النوبة بالطرق السلمية . وقد استمر العمل بهذه المعاهدة حتى قيام الدولة

---

(١) مصطفى محمد مسعد : الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى ، ص ١١٣ ، القاهرة ١٩٦

المملوكية الأولى فى مصر ، ثم أخذت العلاقات بين المسلمين والنوبيين شكلا آخر أدى إلى سقوط المملكة المسيحية الشمالية « مقرة » ونشر الإسلام والثقافة العربية فى البلاد (١) .

وفى أواخر أيام الأمويين أصبح السودان ملجأ يهرب إليه الفارون خوفاً على حياتهم ، ففروا إلى بلاد الحبشة أولا ، ثم قصدوا جبال الفونج حيث تسموا باسمها ، واستولوا على عرش المملكة التى ظلت باسطة نفوذها على بقاع فسيحة فى السودان .

لم يتأثر السودان بالدعوة الفاطمية الشيعية ، وظل على المذهب السنى. ولجأ خصوم الفواطم إلى السودان ، وتعاقبت هجراتهم إليه . ولما حكم الأيوبيون بعد ذلك مصر تعقبوا الفاطميين إلى النوبة .

وجاء فى أعقاب ازدياد النفوذ المملوكى على ساحل البحر الأحمر الأفريقى بداية الاحتكاك بين المصالح المصرية والنوبية ، فى سنة ٦٢٤ م ، احتج السلطان بيبرس إلى كل من صاحب سواكن وصاحب جزر دهلك . قبالة مصوع ، لتعرضهما لأموال المتوفين من التجار المصريين ، ولم يكد يمضى عام وبعض عام حتى أرسل والى قوص حملة حربية لتأديب صاحب سواكن (١٢٦٥ م) الذى انهار نفوذه . ومن ثم استقرت حامية مملوكية بسواكن. ولم يكتف بيبرس بذلك ، فقد أرسل حملة أخرى لغزو النوبة (١٢٧٢ — ١٢٧٣ م) ، وقد تقدمت جنوباً إلى دنقلة ، وعادت بعدد من الأسرى .

وانتهز بيبرس فرصة قدوم أحد المطالبين بعرش مقرة واسمه شكندة ،

---

(٢) المرجع السابق ص ١١٥

فجرد معه جيشاً (١٧٧٦ م.) بقيادة الأميرين آقسنقر الفارقاني الأستادار وأيبك الافرم ، وأوغل الجيش المملوكي في بلاد النوبة ، وتقاتل الجيشان قتالا عنيفاً ، انتهى بهزيمة النوبيين وفرارهم ، ثم أوغلت الحملة في البلاد، حتى إذا دنت من دنقلة خرج داود ملك النوبة للقائها ، واشتبك الفريقان في معركة انتهت بفراره، ثم عادت الحملة إلى دنقلة بعد أن تم إخضاع النوبيين، وتقرر تعيين شكندة ملكا للنوبة بدلا من داود.

وتعتبر هذه الحملة فتحاً حقيقياً للنوبة . وكان من أهم نتائجها أن أضحت مقرة جزءاً من السلطنة المملوكية . فبلغ النفوذ المملوكي في النوبة حداً أقنع ملوك علوة بقوة السلطنة المملوكية ؛ فتقربوا إليها بالهدايا، ولا سيما في أيام السلطان قلاوون الذي دعم كلمته في أرجاء النوبة .

وفي أيام الناصر محمد بن قلاوون (أوائل القرن الرابع عشر) اعتنق ملك دنقلة الإسلام ، وأهم من ذلك قيام دولة الفونج في القرن الخامس عشر ، ومن هذا التاريخ انساق النوبيون من المسيحية إلى الإسلام رويداً رويداً وفي بطء شديد ، ثم دخلوا فيه أفواجاً .

ولم يكد ينتصف القرن الرابع عشر الميلادي حتى كان النوبيون بين أسوان ودنقلة قد اعتنقوا الإسلام ، باستثناء أقلية نوبية ظلت على المسيحية حتى أواخر القرن الخامس عشر الميلادي ، وفي هذا القرن تكونت مجموعات نوبية مستعربة ، وهم الكنوز ، والسكوت ، والمحس ، والدناقلة .

ولا يخفى أن تحول النوبيين من المسيحية إلى الإسلام لا يعود كله إلى القبائل العربية الرحل الذين جاءوا إلى النوبة ، بل الواقع كان هذا من عمل

بعض الدعاة الذين أتوا أو تلقوا علوم الدين فى خارج السودان ، ثم جاءوا إلى السودانيين طرق العبادة الإسلامية ، ولقنوها لهم. وكان فى طليعة هؤلاء الدعاة الصالحين ، عربى من اليمن اسمه غلام الله بن عيض ، عبر البحر الأحمر ، ثم استقر فى دنقلة ، حيث شيد المساجد ، وقام بتحفيظ القرآن وتفسيره وتلقين العلوم الإسلامية . والمعروف أن استيطان غلام الله فى دنقلة كان فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر. وعلى مر الأعوام ألف أحفاده وذريته قبيلة الركابية نسبة إلى أحد أبنائه ركاب ابن غلام الله .

أدى سقوط مملكة مقرة المسيحية إلى ازدياد الهجرات العربية، وربما كان أشدها عنفاً هجرة جهينة ، وهى خليط من القبائل العدنانية والقحطانية وبطونها المختلفة التى تجمعت فى انحاء النوبة الشمالية - استولت تلك القبائل بالتدريج على معظم أقاليم علوة ، واستقرت فى كثير من أنحائها ، وظهرت منذ القرن الخامس عشر عدة ممالك ومشيخات إسلامية فى حوض النيل الأوسط، وكان لظهورها أثر فى تطور الحياة الاجتماعية والسياسية مما ساعد على زوال المملكة المسيحية فى علوة ، ومن أهم تلك الآثار ازدياد انتشار الأسلام بين كثير من أهل البلاد .

ففى منتصف القرن الخامس عشر ، وفد داع آخر من طراز مختلف عن غلام الله ، واستقر فى بربر، كان اسمه حمد أبو دنانة. قال إنه من سلالة النبى. وقد كان أبو دنانة داعية ينتسب إلى طريقة الشاذلية الصوفية ، وقيل إنه كان متزوجا من ابنة العالم الجزولى الذى قام بالدعوة إلى هذه الطريقة فى فى المغرب. وكان استيطان أبى دنانة فى السودان حوالى عام ١٤٤٥، ويقال إن إحدى بناته تزوجت من عبدالرحمن جماع، وأخرى كانت أماً لإدريس ابن أرباب .

سلطنة الفونج الإسلامية «سنار»

اختلف المؤرخون حول أصل الفونج، ويقال إنهم من ذرارى الأمويين الذين لجئوا إلى ملك الحبشة فراراً من بنى العباس ، هرب بعضهم إلى شمال أفريقية ثم الأندلس ، كما وصلت منهم أفواج إلى الحبشة والسودان. وتذكر المراجع السودانية أن عمارة دنقس زعيم الفونج جمع رجاله فى جبل موبا[1] ثم تحالف مع عبد الله جماع شيخ عرب القواسمة من جهينة وأصحابه الآخرين على إخضاع السكان السابقين للفونج ، ودارت فى أربجى معركة سنة ١٥٠٥ ، انتصر فيها الحليفان ، وفر الفنج (الانج) إلى جبال فازوغلى وكردفان ، ومن بقى منهم اختلط بالغزاة واعتنق الإسلام (٢) .

وهكذا قامت سلطنة الفونج الإسلامية على انقاض مملكة علوة المسيحية، وامتدت من الشلال الثالث شمالا إلى أقصى جبال فاذغلى جنوباً ، ومن سواكن شرقاً إلى النيل الأبيض غرباً وتداول حكم سنار سبعة وعشرون سلطاناً . كان آخرهم بادى السادس الذى سلم سنار للجيش المصرى التركى عام ١٨٢١ .

كانت أساليب الدعوة الإسلامية زمن الفونج سلمية ، وإن استخدم العنف أحياناً ضد الجماعات الوثنية ، وتميزت هذه المرحلة من تاريخ الدعوة بظهور

---

(١) يقع جبل موبا على بعد عشرة أميال غرب سنار الحالية ، ويرى الأستاذ مكى شبيكة أنها تقع فى مكان بين كركوج والرصيرص.

(٢) هناك رأى آخر يقول بأن تأسيس مملكة الفونج يرجع إلى حوالى عام ١٥٠٢ وليس إلى عام ١٥٠٥ . معالم تاريخ سودان وادى النيل ، الأستاذ الشاطر بصيلي ص ٢٣ .

طبقة من الفقهاء ورجال الصوفية ، وكان مصدر هذه الحركة مصر والحجاز والمغرب والعراق ومن هاجر من الأفراد والأسر من تلك البلاد إلى جهات حوض النيل الأوسط ليعيشوا فى خيراتها ، ولينشروا الإسلام فى وطنهم الجديد بعد أن ضاقت بهم بلادهم.

وفى الوقت نفسه كان كثير من أبناء مملكة سنار «الفونج» يرحلون إلى مصر لتلقى العلم بالأزهر ، ثم يعودون إلى وطنهم ، أو يحجون إلى بيت الله ، ويأخذون العلم عن أحد فقهائه ، أو يأخذون الطريقة عن أحد مشايخ الطرق فى الحجاز ، وكان لهؤلاء جميعاً أثر واضح فى نشر الثقافة الإسلامية فى سنار (١) ، ومن هؤلاء محمود العركى ، الذى تلقى علومه بمصر ، وتتلمذ لناصر الدين اللقانى وأخيه شمس الدين ، فى أوائل القرن السادس عشر ، ولما عاد إلى وطنه أسس سبع عشرة مدرسة لتفقيه الناس (٢) . ويبدو أن محمودا كان صوفياً ، شيد رباطا لطريقته . ومنذ ذلك الحين أصبحت منطقة النيل الأبيض ملتقى الدراسات الإسلامية ، بيد أن تلك المدارس خربها الشلوك فى أثناء غاراتهم أيام انتشار المجاعة عام ١٦٨٤ .

ومن أهم أماكن العلم فى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر : الخلوة ، والمسجد ، والزاوية . ولا نعرف مبدأ تأسيس الخلوة فى السودان ، إلا أن المعروف أن الخلوات عرفها سكان جزيرة سنار فى مبدأ عهد الفونج ، بفضل الشيخ محمود العركى الذى قدم من مصر «١٥١٠ - ١٥٢٠» وأسس خمس عشرة خلوة . أما المساجد فهى فى السودان وفى سائر البلاد

(١) مصطفى محمد مسعد : الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى ص ٢١٢ .
(٢) المرجع السابق ص ٢١٢ .

الإسلامية أقدم تاريخاً من الخلوات ، وقد عرفت المساجد قبل عصر الفونج في السودان ، بدليل أنها ذكرت في معاهدة عبدالله بن سعد .

وفي النصف الثاني من القرن ١٦ زاد عدد السناريين الذين رحلوا إلى مصر لطلب العلم بالأزهر ، ومن هؤلاء أولاد جابر الأربعة، ونخص بالذكر منهم إبراهيم البولاد (١) ، وكانوا قد ورثوا حب العلم عن جدهم الكبير ، غلام الله بن عيض ، في أواخر القرن الرابع عشر الميلادي . وحوالي سنة ١٥٤٣ قدم من مصر الشيخ محمد القناوي المصري الأزهري الثقافة وتوطن بربر ، ثم شيد فيها مسجداً لتدريس الرسالة والعقائد والنحو، وولي القضاء ، وتخرج على يديه عدد من أبناء بربر وغيرهم . ثم قدم إلى سنار العالم المصري الشيخ محمد بن علي بن قوم الشافعي المذهب ، فأقام في بربر ، ودرس المذهب الشافعي في بربر وأربجي . كما وفد من الحجاز أحد أئمة الصوفية، وهو تاج الدين البهاري البغدادي خليفة الطريقة القادرية الجيلانية ، وفي هذا الوقت أيضاً قدم التلمساني المغربي على الشيخ محمد بن عيسى سوار الذهب، وكان له باع طويل في العقائد ، كما أنه ضرب في الزهد والصلاح شوطاً بعيداً، مما جذب إليه الطلاب والمريدين من أنحاء مملكة الفونج وقد كتب لأحد ملوكهم عهداً يعطى فيه الإمامة له ولأهله ولذريته ... الخ . وكان هذا الامتياز يعرف في دولة الفونج بالجاه ، ولا يتمتع بهذا الجاه ، إلا كبار العلماء من المقربين إلى ملوك الفونج ، وكان هذا في القرن السابع عشر .

---

(١) كان إبراهيم عالماً في الشريعة وليس صاحب طريقة للصوفية . وإليه يرجع الفضل في إذاعة كتابين هامين في الشريعة الإسلامية . كان لهما أثر كبير بالسودان . أولهما رسالة ابن أبي زيد القيرواني الفقيه المشهور الذي توفي عام ٩٩٦هـ ١٥٨٨ . وثانيهما مختصر الخليل بن اسحق توفي سنة ١٣٦٥ في المذهب المالكي .

وفى القرن ١٨ حينما وهنت قبضة الفونج - عبد الآب - على المنطقـة النيلية . كانت جماعة «المجذوب» - وهى أسرة من الفقهاء ، قد أقاموا حكومة قبلية من الجعليين ، جنوب التقاء نهر العطبرة بالنيل . وكان مؤسس هذه الحكومة « حمد بن محمد » المجذوب « ١٦٩٣ - ١٧٧٦ » ، وكان قد تلقى تربية دينية على أيدى الشيوخ السودانيين، ثم أدى فريضة الحج ، والتحق بطريقة الشاذلية . وكان محمد ذا مكانة محترمة بين الجعليين ، جعلته فى الواقع الحاكم المطلق فى المنطقة التى تتوسطها الدامر .

ولما زار الرحالة بورخاردت الدامر عام ١٨١٤ ، عنى بوصف الحكومة المجذوبية فى مرحلتها الأخيرة ، وكان زعيمها آنذاك الفقيه الكبير محمد المجذوب « ١٧٩٦ - ١٨٣١ » حفيد مؤسس المجذوبية. وقد أثنى بورخاردت على أحوال الدامر العلمية ونظم إدارتها ، احتوت على المدارس التى قصدها الطلاب من أنحاء السودان ، وكان بأيدى الأساتذة كتب الفقه الصادرة عن القاهرة . ولاحظ بورخاردت كذلك أن معظم الفقهاء تلقوا علومهم فى الأزهر أو فى مكة المكرمة .

وفى أوائل القرن التاسع عشر ، قبيل الفتح المصرى ، اتسمت الحياة الدينية فى السودان بظهور مؤثرات جديدة . وكانت تلك . ترديد الموجة التجديد والإحياء الإسلامية التى دوت فى العالم الإسلامى ، فى أخريات القرن الثامن عشر ، وفى طليعتها الحركة الوهابية التى قامت فى شبه الجزيرة العربية ، وكان من أهم وجوه الإحياء ، قيام روح نشيطة فى الطرق الصوفية ، وعلى رأسها الطريقة الخلوتية التى قامت فى القرن ١٤ ونشطت فى القرن ١٨ ، حينما أرسل دعاتها للإرشاد فى أفريقيا . وكذلك الطريقة السمانية ، وبخاصة أحد فروعها ، وقد جلبها إلى السودان حوالى عام ١٨٠٠ أحمد الطيب البشير

السودانى بعد رجوعه من المدينة ، ثم انضم إليها نفر من الأتباع المتوطنين بالجزيرة بمحاذاة النيل الأبيض .

ويذكر من الفقهاء الذين كان لهم أثر كبير بالسودان فى تلك الآونة ، أحمد بن إدريس الفاسى ، الذى نشأ فى فاس ، وقضى مدة طويلة فى بلاد العرب ، حيث توفى عام ١٨٣٧ ، وكان مصلحاً اشبه طريقته المذهب الوهابى ، وتتخلى عن كثير من الخزعبلات ، وقد كان لأحمد تأثير كبير فى أفكار محمد المجذوب حينما كان هذا فى منفاه بمكة عقب الفتح المصرى للسودان ، ومحمد عثمان الميرغنى «١٧٩٣-١٨٥٣» الذى كان أحمد بن أدريس قد أوفده داعية للسودان ، وقد تبعه كثير من المريدين من القبائل النوبية بين أسوان ودنقلة ؛ ثم وصل إلى سنار « ١٨١٦ - ١٨١٧ » ، ولكنه كما يبدو لم يلق كثيرين من الأنصار ، فغادر السودان ولم يعد إليه ثانية (١) .

وفى أعقاب وفاة أحمد بن إدريس ، نظم الميرغنى أتباعه فى طريقة جديدة ، عرفت بالميرغنية أو الختمية ، وقد استمال الحكم المصرى التركى أتباعها فيما بعد لمناهضة أتباع المهدية .

الإسلام فى القرن التاسع عشر

حرص الوالى محمد على ، على أن يظل السودانيون على عقائدهم ومذاهبهم ، فبعث مع حملته العسكرية لفتح السودان نخبة من علماء الدين ، وهم القاضى محمد الأسيوطى الحنفى ، والسيد أحمد البقلى الشافعى ، والشيخ أحمد السلاوى المالكى ، حتى يكون لكل مذهب من المذاهب الشائعة شيخ يشرف على

---

(١) انظر الطرق الصوفية فى السودان فى نهاية الفصل .

شئونه . وقد ظهر تشجيع محمد على للعلماء عندما زار السودان في عام ١٨٣٨ / ٣٩ ، واجتمع بالقضاة والمفتين والعلماء ، وأنعم عليهم كبارهم وصغارهم بالخلع الفاخرة ، عندما أصدر إرادته بإنشاء مسجد لتعليم العلم .

وأقبل أهل السودان على التعليم بالأزهر ، فأسس رواق السنارية بالأزهر سنة ١٢٦٣ هـ / ١٨٤٦ ، وحضر لطلب العلم بالأزهر سوداني اسمه : محمد على وداعة سنة ١٢٥٣ هـ / ١٨٣٦ . فوجد بالرواق ستة من السنارية قد سبقوه إليه ولذلك قدم محمد على وداعة وزملاؤه السناريون المجاورون طلباً بالتماس إنشاء رواق خاص لهم في الأزهر للإقامة فيه ، أسوة بالصعايدة والمغاربة وسائر الأجناس ، فوافق الوالي ولا يزال هذا الرواق قائماً الآن ملاصقاً للأزهر ، ويقع في شارع محمد عبده . في بناية تقع في الطابق الأول مكتبة للأتراك ومكتبة المغاربة ، أما الطابق الثاني ففيه على شمال الصاعد رواق السنارية ، وعلى اليمين رواق المغاربة .

وشيد « الجامع العتيق » في حوالي عام ١٨٤٧ ، وقد درس فيه الشيخ ابراهيم عبد الدافع مفتي السودان ، والشيخ الأمين الضرير ، وغيرهما من العلماء .

وفي أيام إسماعيل جدد مسجد كردفان بمبلغ يزيد على ألف جنيه ، كما جدد مسجد الأرباب بالخرطوم ، ومسجد الحلة الهلالية بسنار ، وزيد في عدد الزوايا ، وقامت بعض السودانيات يساهمن في تعليم القرآن والعلم ، نذكر منهن : أمونة ، بمديرية دنقلة ، فقد أدارت مكتبين ، أحدهما للغلمان ، والثاني للبنات ، وكانت تنفق على المكتبين من كسبها بغزل القطن وتشغيله ، وكان يقصد منزلها الفقراء وأبناء السبيل والقاصدون بيت الله الحرام (١) . وكان

(١) مناهج الألباب المصرية ص ٢٦٢ – ٣١٣ .

بالسودان كثيرات غير هذه السيدة ، ومنهن اثنتان بناحية شركيلة ، تسمى إحداهما عائشة ، والثانية آمنة ، وكان لهما مسجد لتعليم أولاد المسلمين القرآن، وكانتا منقطعتين لهذه الوظيفة ، وقد كبرت سنهما (١) .

وهناك بعض المصريين من موظفي الحكومة كانوا يقفون من أموالهم الخاصة على المساجد ، فهذا جامع بسنار وقف عليه أحد ضباط الجيش برتبة صاغ ، منزلا وست أشجار . ولما كان إيراد هذا الوقف لا يكفي خطيب الجامع وخدمه، قدم هذا الخطيب ، الفقيه صادق عبدالقادر، شكوى رفعت إلى الخديوى بمصر فصدرت إرادته بتقرير مرتب لإمام المسجد وخطيبه ، وأن يمنح كل منهما إردب ذرة ، وللمؤذن وللخادم بعض الذرة أيضاً، وأمر بأن تنفق نفقات فرش الجامع وإنارته ليلا من قبل الحكومة . ومثل هذا كثير جداً ، بالإضافة إلى تعيين المرتبات للصالحين والمدرسين .

وفي عام ١٨٦٧ أوفد حاكم السودان جعفر باشا مظهر الفقيهين أحمد وعثمان من أبناء مديرية كسلا إلى الأزهر ، ليتفقها في الدين، وأوصى الشيخ مصطفى العروسى شيخ الجامع الأزهر ، من ١٢٨١ إلى ١٢٨٧ ، بأن يعنى بهما ليعودا إلى وطنهما عالمين جليلين . ورأى جعفر باشا أن يوضع نظام ثابت يكفل إعداد القضاة والواعظين والمدرسين في السودان ، فكتب رسالة مطولة للقاهرة أوضح فيها طلبه (٢) وقد أشارت الوقائع المصرية إلى مشروع هذا الحاكم ، قالت فيه :

---

(١) دكتور عبد العزيز أمين عبد المجيد : التربية في السودان في القرن ١٩ ، جـ ٢ ، ص ٥٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٦٢ ، انظر: الوقائع المصرية ٢٤٢ بتاريخ ٢٥ شوال ١٢٨٦

« إن درجة العلوم الشرعية والعبادات الدينية ، لما كانت قليلة بين الأمة السودانية ، صدر أمر الجناب الخديوي الأعظم في ٢٩ جمادى الآخرة سنة ١٢٨٦ (نمرة ٣ تركى) ، إنشاء جملة مساجد ومدارس ومكاتب منسقة ، لإحياء العلوم الشرعية والمعالم الدينية ، ورتبت اليوم المدرسون والمعلمون وما يلزم لهم من مؤونات وكسوات ، وعدل ما كان قبل ذلك ولم تظهر نتيجته . فعند ذلك رفعوا أكفهم بالدعوات الخيرية للحضرة الكريمة الخديويه » .

وبادر الحاكم إلى تنفيذ مشروعه بالرغم من الصعوبات التي اعترضته .

التبشير المسيحي

يمكن القول أنه كان بفتح السودان في أوائل القرن ١٩ ، قد استتب الأمن في ربوعه ، وسهل الاتصال بزنوج أواسط أفريقيا في جنوب السودان ، وكانوا ما زالوا على الوثنية ، ولذلك ظهرت فرصة سانحة لنشر المسيحية في تلك الربوع فأعلن البابا جريجوري السادس عشر « ١٨٤٦ » قراراً بتأسيس مركز تبشيري في الخرطوم يعمل على تنصير الزنوج وإصلاح الحال الروحية . وقد نجح المونسيونور موريكاستر ، أحد أعضاء البعثة التبشيرية التي قرر البابا إيفادها ، في أن يحصل من محمد علي والى مصر على فرمان بوساطة قنصل بريطانيا في القاهرة « ١٨٤٧ » يسمح له بالمرور على الصعيد والتجول في السودان .

وصل موريكاستر الخرطوم في فبراير ١٨٤٨ ، مع بعثته المؤلفة من ريللو البولندى، وأنجلو فنشي، وبيد مونتي الإيطاليين، والدكتور اجناتيوس

كنبلنفر النمساوى، ولحق بهم بعد ذلك ثلاثة من غير رجال الكنيسة . وكان ويللو رئيس هذه البعثة . وبعد قليل اشترت الجماعة قطعة أرض بالخرطوم لبناء كنيسة ومكاتب لتعليم الرجال والنسوة وتنصيرهم . ولكى يخفوا مقاصدهم اشتروا منزلا سكنوا فيه، ثم اشتروا الأرض المجاورة له . وكانوا يجتمعون كل يوم أحد للصلاة . وبدأت أعمالهم تتضح لرجال الإدارة بالخرطوم ، وعلى رأسهم خالد خسروا باشا الحاكم . وبالرغم عما حدث بينه وبين موريكاستر فقد ضاعت جهود الحاكم وموظفيه سدى ، ولم يستطيعوا أن يعرقلوا بناء الكنيسة ، وقد بدئ فعلا فى بنائها هى ودار الإرسالية سنة ١٨٥٣ فى أيام حكم عباس الأول .

وفى أثناء دعم موقف رجال البعثة فى الخرطوم، قصد بعضهم بنى شنقول على النيل الأزرق ، ومنهم من ذهب إلى أعالى النيل الأبيض ، حيث أسسوا محطة جوندوكرو التبشيرية سنة ١٨٥١ ، وتعاقب وصول القسس والمبشرين إلى السودان . وكانت آخر جماعة وصلت إلى السودان هي تلك التى جاءت مع الأب أوهر فالدر النمساوى، الذى وصل إلى الخرطوم فى يناير عام ١٨٨١ ، أى قبل قيام الثورة المهدية بشهور . غير أن الأب أوهر فالدر ورفقاءه قصدوا دار النوبة فى جنوب كردفان ، وهناك فى الدلنج بدءوا بناء كنيستهم . واستمر العمل نشيطاً حتى فوجئوا بالثورة فى أبريل ١٨٨٢ ، ولكنهم ظلوا قليلا مهددين حتى أخذوا أسرى فى ١٨ سبتمبر ١٨٨٢ . وهكذا قضى على جهود التبشير الى أن استعيد السودان فى عام ١٨٩٨ ، وعاد الأمن إلى نصابه . ثم استأنف النشاط الإسلامى العلمى جهاده .

النشاط الإسلامى

فى عام ١٩٠١ نهض المعهد العلمى فى أم درمان برسالته كمؤسسة إسلامية وطنية . وكانت تلقى دروسه الدينية فى جامع أم درمان ، ويشرف

على إدارته مجلس أعلى تعين الحكومة أعضاءه تحت إشراف مدير التعليم ، وتمده الحكومة بنفقاته بالإضافة إلى الهبات الخاصة .

وعلى مر الزمن نهض المعهد برسالته ووصل عدد طلابه حوالى ٦٠٠ وفدوا (١) إليه من أنحاء السودان . وكانت أهم أهداف المعهد : إلقاء المحاضرات فى العلوم الدينية بفروعها ، وتخريج العلماء لهداية الناس إلى العقيدة السليمة ، والعمل على تجنب الخزعبلات والشوائب . وكانت مدة الدراسة بالمعهد ١٢ سنة ، يمنح الطالب بعدها شهادة العالمية .

وبالمعهد مكتبة كبيرة مزودة بالمراجع والمؤلفات الدينية ، وبعض هذه الكتب ضم إليها من طريق الوقف أو التبرعات .

ثم أنشئت مشيخة علماء السودان ، وكان أول شيخ بها الشيخ أبو القاسم أحمد هاشم وكان قاضياً شرعياً ، وظل يشرف على المشيخة من يناير عام ١٩١٢ إلى عام ١٩٣٠ (٢) وقد تعاقب بعده ستة من العلماء (٣) ، كان آخرهم الشيخ محمد المبارك عبدالله الذى درس فى الأزهر وتخصص فى التوحيد والفلسفة . وقد طبق كثيراً من نظم الأزهر فى المعهد الدينى .

---

(١) كان عدد طلاب المعهد فى عام ١٩١١ فى أيام الشيخ أبى القاسم ستين طالباً وكان الطالب يمنح جراية رغيف خبز . ثم استبدلت بها ثلاثون قرشاً شهرياً ؛ وكان مرتب المدرس فى المعهد العلمى لا يتعدى ثلاثة جنيهات إلا فى أحوال نادرة .

(٢) شيد فى عهده دار للمشيخة العلمية ومكتبة . فبنيتا داخل سور جامع أم درمان من جهة الجنوب .

(٣) نذكرهم بالترتيب : الشيخ أحمد محمد أبو دقن . والشيخ أحمد الهاشم دفع الله . والشيخ أبو شامة عبد المحمود . والشيخ هاشم أبو القاسم . والشيخ الأمين محمد الأمين .

ونشطت الجمعيات التي تحارب الخرافات والأوهام . ومن هذه الجمعيات، جمعية أنصار السنة التي أنشئت عام ١٩٣٩ ، وتهدف إلى التوحيد الخالص المطهر من مظاهر الشرك ، والتزام الكتاب وصحيح السنة ومجانبة البدع ، والتمسك بالفضيلة . وفي عام ١٩٤٨ تأسس المجلس الأعلى للمعهد العلمي بأم درمان وتولى رياسته الشيخ أحمد الطاهر قاضي قضاة السودان ، ثم عين فضيلة الشيخ حسن مدثر خلفاً له في نوفمبر ١٩٥١ .

وقد تولى مشيخة علماء السودان بالمعهد ، منذ تأسيسه حتى اليوم ، سبعة مشايخ وكان منهم الشيخ محمد المبارك عبد الله الذي تولى رياسة المعهد منذ عام ١٩٥٦ ، وقد تخرج في الجامعة الأزهرية، ثم عاد إلى وطنه، واستأنف جهاد الديني في خدمة الإسلام .

الإسلام في جنوب السودان

يستوطن جنوب السودان القبائل النيلية ، أكبرها قبائل الدنكا، والشلوك، والنوير ، والأنواك ، والأزاندي ، وغيرهم ، وغالبيتهم وثنيون .

يقدر عدد الدنكا بحوالي ٨٥٠٠٠٠ ، وهم ينقسمون إلى عدة قبائل منفصلة، يعيشون في منطقة فسيحة تمتد إلى ضفتي النيل الأبيض : شمالا عند رنك، وجنوباً إلى بور مالك ، وهناك جماعة كبيرة منهم تعيش في حوض بحر العرب ، وقد اتصلوا بقبائل البقارة : الرزيقات ، والحبانية ، وقد اعتنق بعض أفرادها الإسلام في أثناء الثورة المهدية ، ثم ارتدوا عنه بعد سقوط المهدية ، ويختلط البقارة بالدنكا ويعملون معاً ، ولكنهم لم يؤثروا عليهم دينياً إلا في بعض العادات .

ويبلغ عدد الشلوك ٥٠٠،٠٠٠ نسمة وهم يعيشون فى شريط ضيق بمحاذاة الشاطىء الغربى للنيل ، من بلدة كاكا إلى بحيرة نو ، وعلى مسافة صغيرة على الشاطىء الشرقى إلى التوفيقية حتى السوباط .

أما قبائل النوير فيقدر عددهم حوالى ٥٠٠،٠٠٠ منتشرون فى الأرض الممتدة بمحاذاة السوباط الأعلى ، وبيبور ومنطقة الزراف . وهم ينقسمون إلى : ١ — الزراف النوير ، ٢ — الريل النوير ، غربى بحر الجبل ، ٣ — الدرك النوير . والنوير محاربون مهرة وهم ميالون إلى الاستقلال ، ويعتمدون على أنفسهم ، وفى شرق منطقتهم توجد الناصر ، وهى مركز تجارى يؤمه مسلمون قدموا من الشمال يعرفون هناك بالعرب ، وقد أثروا فيهم قليلا (١) .

ويلاحظ أن أفراد هذه القبائل حينما يقصدون إلى شمال السودان طلباً الرزق أو للعمل فى الجيش ، يعتنقون الإسلام .

كان المعروف منذ سنوات أن أثر الإسلام بين القبائل الوطنية كان واضحاً فيما بين خطى العرض ١٢ و ١٠ ، ولا سيما بين أفراد القبائل الصغيرة ، ولكن لأسباب شتى لم يعم انتشاره بين القبائل الكبرى . وفى طليعة تلك الأسباب ، كانت سياسة فصل الجنوب عن الشمال ، بوساطة السلطات الاستعمارية قبل استقلال السودان . أضف إلى هذا ما قام به عمال المهديين حينما غزوا بعنف مديريات خط الاستواء .

---

(١) هناك فى أقصى جنوب غرب السودان قبائل الأزاندى ، وغالبيتهم يحترفون الزراعة وصيادون مهرة . ولا يملكون إلا قليلا من الماشية .

ومع ذلك فقد كانت الاتصالات الثقافية والتجارية أقوى العوامل فى انتشار الإسلام فى الجنوب ، فالإسلام ينتشر بمحاذاة طرق التجـــارة ومراكزها حيث يوجد الفقهاء أيضاً ، ويجتذب إليه أفراد القبائل الرحالة الموجودين خارج نطاق القبيلة . ولا يؤثر كثيراً على أفراد القبائل المستوطنين الزراعيين إلا بعد جهود .

لقد أثر الإسلام أولا على زعماء النوبة الذين طمحوا للوصـول إلى مستوى رفيع بين المسلمين، وليصبحوا موظفين مقربين إلى الحكومة، فالإسلام والتجارة . شيئان متحالفان برباط وثيق ، ولذلك فان الإسلام عن طريق مراكزه التجارية ، ولنأخذ منطقة النوبة مثلا « جنوب كردفان » فإن محمد توتو — وكان زعيما قديراً للمورو — كان مسلماً استطاع بوسائل المحبة أن يجتذب إلى الدين الحنيف أتباعاً كثيرين دون جهد ، بالرغم من مضى زمن طويل . ولدينا مثل آخر ، فإن مأمور ديلامى بعد أن أدى فريضة الحج قام بدعوة مواطنيه النوباريين إلى الإسلام ، نشيد مسجداً وأخذ فى دعوتهم إلى حفلات الذكر فى المناسبات والأعياد ، ثم نجح فى اكتساب بعض الزعماء إلى حظيرة الإسلام ، ديلامى وكوديرى » ، وظفر هؤلاء بتحويل رجالهم من وثنيتهم إلى الإسلام . وينبغى أن نذكر أيضاً فضل الطـــرق الصوفية : الميرغنية ، والقادرية ، والإسماعيلية ، والتيجانية ، فى اكتساب الكثيرين إلى صفوفها . وهناك العامل المهم فى الدين الإسلامى نفسه ، فهو دين متسامح إلى أقصى حد ، لا يتدخل إلا بقدر معين فى عادات الناس وتقاليدهم التى نشئوا فيها منذ أجيال ،

مســـجد جوبا

كان السيد المصرى عبد الرحيم سماحة قد أرسل فى أوائل عام ١٩٢٧ إلى

المرحوم الأمير عمر طوسون كتاباً يقترح فيه فكرة تأليف لجنة لتجمع التبرعات لإنشاء مسجد جوبا فى أقاصى السودان . فتلقى كتاباً من الأمير يشكره فيه ، ثم شكلت اللجنة برياسة السيد إبراهيم عامر وعضوية السادة فؤاد أباظة ، ومحمود الجمال ، ومصطفى أبو العلا ، وعبدالله حسين ، ومحمد حسين الرشيدى ، ومحمد عبد الرحيم .

وفى ١٩٣٨ وافقت حكومة السودان على إنشاء مسجد جوبا . فقررت اللجنة إرسال ألف جنيه مساهمة منها فى إقامته . وقد احتفل بافتتاح المسجد فى يوم ٢٦ جمادى الأولى عام ١٣٥٨ / ١٤ يوليو ١٩٣٩ بحضور كثير من علماء السودان والموظفين المصريين والسودانيين . فكان أول جامع كبير أقيم بالمنطقة الاستوائية السودانية . وكان الشيخ العوضى محمد سمساعة أول إمام للجامع .

المذاهب فى السودان :

منذ دخل السودانيون فى الإسلام وهم سنيو المذهب ، يدينون بمذهب الإمام الأشعرى فى العقائد التوحيدية ، وقد غلب عليهم مذهب مالك فى الفقه ، وقد أقبل فى زمن الفونج قليل من علماء الشافعية ، وكان لهم أثر واضح فى تعليم الدين فى السودان . ولكن علماء المغرب الذين هاجروا من شمال أفريقية إلى السودان أثروا فى تلامذة السودان ، وكان لمذهبهم -مذهب مالك - الغلبة على السودان الغربى أولا ، ثم على سائر أنحاء السودان . والظاهر أن الفونج حملوا معهم من غرب السودان هذا المذهب ، وكانوا من أوائل الذين نشروه فى منطقة الجزيرة ، وهذا على الأقل فيما يتعلق بالجانب التطبيقى من مذهب مالك . أما دراسته العلمية فربما تكون قد انتقلت إلى

السودان على أيدى خريجى الأزهر ، كالشيخ إبراهيم جابر أحد أحفاد الركابية.

الطـــرق الدينيـــة

غلب على أهل سنار مذهب مالك، الذى انتقل إلى الفونج على يد خريجى الأزهر من السناريين والمصريين . فقد كان لعلماء الشافعية أثر واضح فى نشر تعاليم الإسلام، ومن هؤلاء محمد بن قرم الكيمانى المصرى وتلاميذه(١) وانتشرت علوم القرآن فى مملكة سنار فى أواخر القرن السادس عشر .

ودخلت الطريقة الشاذلية السودان قبل قيام مملكة الفونج على يد الشريف حمد أبى دنانة سنة ١٤٤٥ ، وكانت أول طريقة صوفية عرفها السودان قامت فى بربر ، ورسخت دعائمها زمن الفونج بفضل الشيخ خوجلى عبدالرحمن (ت ١٧٤٣) الذى كان قادرياً .

أما الطريقة القادرية فقد دخلت السودان سنة ١٥٤٥ بفضل الشيخ تاج الدين البهاوى (٢) وقد دخل الطريقة الختمية فى أواخر عهد الفونج السيد محمد عثمان الميرغنى تلميذ السيد أحمد بن إدريس ، وكان السيد محمد قد

---

(١) محمد ضيف الله ؛ طبقات ص ١٦٩ .

(٢) للطريقة القادرية اليوم عدة فروع أولها طريقة الشيخ الجملى ، وهى المنتشرة فى بربر وشندى وما حولها ، ورئيسها الشيخ أحمد الجملى . والكباشية التى أسسها الشيخ إبراهيم الكباشى ؛ وطريقة أولاد حسونة ؛ وأتباع الشيخ عبيد ؛ ثم أتباع الشيخ الكاشف — ومن فروعها : طريقة البدوية أو الأحمدية ؛ نسبة إلى الشيخ أحمد البدوى ومقامه بطنطا، وقد دخلت السودان حوالى عام ١٨٢١ ؛ ومن فروعها الدسوقية والبيومية ،

استقر فى كسلا وأسس ضاحية الختمية ، والتف حوله أتباع كثيرون ، ثم عاد إلى مكة حيث توفاه الله ودفن بها (١) . وتعرف الختمية بالسودان باسم الطريقة الميرغنية .

والطريقة الإسماعيلية وقد تفرعت عن الميرغنية فى القرن التاسع عشر ، وكان رئيسها من أكبر أنصار الخليفة . ونفوذها اليوم مقصور على منطقة الأبيض وبعض جهات غرب السودان ، وتعتبر فرعاً للختمية . .

والطريقة السمانية ، وأصلها فرع من طريقة قديمة تسمى الخلوتية ، يرجع تأسيسها إلى القرن الرابع عشر ، ودخلت السودان على يد الشيخ أحمد الطيب البشير فى أوائل القرن التاسع عشر ، وكان رئيسها فى أوائل أيام المهدى هو الشريف نور الدايم الذى كان شيخاً للمهدى نفسه ، ثم تخلى عنه المهدى واتخذ له طريقته الخاصة ، وانتشر أتباع السمانية على ضفاف النيلين الأبيض والأزرق فى جيلى ودار كباشى وفدنج ، ولها فرع فى سنار . وقد تفرعت عن السمانية طريقة أخرى تسمى الهندية ، وكان رئيسها الشريف يوسف الهندى .

وكان للطريقة المجذوبية فيما مضى شأن كبير فى السودان ، أسسها شيخ من الجعليين يسمى محمد المجذوب فى القرن الثامن عشر ، ومركزها فى الدامر التى كانت مركزاً علمياً دينياً كبيراً فى السودان . وقد انتشرت هذه الطريقة بين الجعليين والهندندوه وبعض البشاريين ، وكذلك بالقرب من سواحل البحر الأحمر ، وبخاصة فى سواكن .

---

(١) راجع فصل ٦ من كتاب ترمنجهام « الإسلام فى السودان » ؛ ص ١٨٧ ـ ٢٤٠ ويتناول انتشار الطرق الدينية فى السودان .

والطريقة الإدريسية (يقال إن الختمية فرع منها) أسسها أحمد بن إدريس الفاسى ، وتعرف أيضاً بالطريقة الأحمدية ، وكان رئيسها الشيخ الحسن الإدريسى الدنقلى .

والطريقة التيجانية من أشهر الطرق فى السودان ، وكان لأتباعها فضل كبير فى نشر الإسلام فى غرب أفريقيا ، وتغلب عليها النزعة الصوفية، وأهم مجالها فيما بين أم درمان والدامر ، ولها أنصار كثيرون فى دارفور ،ومؤسسها أحمد التيجانى الفاسى فى القرن الثامن عشر .

وإلى جانب هذه الطرق أتباع السيد محمد أحمد المهدى زعيم السودان الكبير (توفاه الله عام ١٨٨٥) ، وهم منتشرون فى جميع أنحاء السودان ، ولا سيما فى الغرب.وكان رئيس هذه الطائفة السيد الكبير عبدالرحمن المهدى (توفى ١٩٥٩) .



الفصل الرابع عشر

الإسلام فى إثيوبيا

استقرت المسيحية فى الحبشة منذ القرن الرابع الميلادى، وكان للكهنوت بعض الأثر فى المجتمع الحبشى، كما كان للعرب صلات تجارية قديمة لهذه البلاد، وللأحباش مثلها فى اليمن وشبه الجزيرة العربية.

ولما انبثق نور النبوة، ولاقى قوم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الأذى من قريش، أشار على أصحابه بالهجرة من مكة إلى الحبشة، ليسلموا من أذى مواطنيهم، وقال لهم: إن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لهم فرجاً مما هم فيه (١).

ففى السنة الخامسة من النبوة خرج المهاجرون الأولون، وكانوا أحد عشر أو اثنى عشر رجلا، وأربع نسوة أو خمساً.. خرجوا خفية فى شهر رجب، فوصلوا إلى ساحل البحر حيث ركبوا سفينتين إلى الحبشة، وما كادوا يستقرون حتى أشيع بينهم أن كفار قريش فى مكة قد آمنوا بالنبى صلى الله عليه وسلم، فعاد المهاجرون ثانية إلى مكة فى شوال من نفس السنة(٢). وفى هذه السنة ذاتها، بدأت هجرة ثانية إلى بلاد الحبشة، فيها فريق كبير من

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٣٣٢.

( ) هنا رأى يقول إن أفراد هذا الفوج الأول لم يكونوا مهاجرين، بل كانوا بعثة إسلامية أرسلها النبى إلى ملك الحبشة لتتعرف مدى رغبة النجاشى واستعداده لقبول المهاجرين.

الصحابة ، قيل إن عددهم بلغ الثمانين ، عدا النساء والأطفال ، ولما وصلوا رحب بهم النجاشي ، وأسكنهم مجتمعين ليقيموا شعائر دينهم ، ويقال إنه أسلم على يد جعفر بن أبي طالب .

خشي كبار قريش أن يؤلف المهاجرون قوة للدعوة للإسلام في الحبشة وأنهم قد يعودون بصحبة جيش حبشي لنصرة الرسول ، ولم يكن القرشيون قد نسوا حملة أبرهة الأشرم على بلادهم ، فجمعوا هدايا نفيسة ليقدمها وفد منهم إلى النجاشي والبطارقة ، وكان الوفد مؤلفاً من عمرو بن العاص وعبدالله ابن أبي ربيعة وغيرهما .

اجتمع الوفد بالنجاشي ، وطلب أعضاؤه منه ألا يصغي إلى كلام المهاجرين . ولكنه أبى أن يبت في مطالبهم قبل أن يسمع كلام المهاجرين . وكان جعفر بن أبي طالب أول المتكلمين من هؤلاء ، فوصف للنجاشي فضائل الإسلام وأهدافه ، وكفر القرشيين وعبادتهم الأصنام ... الخ .

ولما تغلبت حجته على خصومه ، قال النجاشي لعمرو ورفيقه : انطلقا، والله لا أسلمهم إليكما . ورد اليهما الهدايا . وقال للمهاجرين اذهبوا فأنتم آمنون (١) .

بقي المهاجرون في الحبشة إلى العام الثاني للهجرة (٦٧٩ م) حتى أرسل النبي في طلبهم ، فعادوا إلى المدينة بعد أن أقاموا نحو ست عشرة سنة ، ولم يستطع المهاجرون في أثناء إقامتهم بالحبشة أن يحولوا أحداً إلى دينهم ، وقد تبادل النبي والنجاشي الهدايا بعد ذلك كما وفد إلى بلاد العرب عدد كبير من الأحباش .

---

(١) ابن هشام : السيرة ج ١ ص ٣٥٨ - ٣٥٩ .

أول سرية للإسلام

وأراد الخليفة عمر بن الخطاب نشر الدعوة الإسلامية فى الحبشة، فوجه إليها سرية من المسلمين فى عام ٢٠هـ - ٦٤١م برياسة علقمة بن محرز المدلجى، فلم توفق ونالها الأذى، ثم عاد من بقى من أفرادها.

ومنذ ذلك الحين ظل المؤرخون والجغرافيون من العرب يجهلون جغرافية الحبشة وأخبارها، حتى جاء المقريزى (٨٤٥هـ) فكان أول مؤرخ ذكر أخباراً صحيحة عن الحبشة وتاريخها فى عصره (١).

وفى عام ٨٣هـ - ٧٠٢م أغار الأحباش على جدة، وأثروا على تجارة مكة، مما كان له رد فعل عند العرب. فقرروا لحماية متاجرهم فى البحر الأحمر، أن يحتلوا جزائر دهلك، المواجهة لميناء مصوع، وبذلك أقام المسلمون رأس جسر يعينهم فيما بعد على احتلال قواعد على ساحل الحبشة، تمهيداً للتسلل التدريجى فى داخل البلاد، فاستولوا على مصوع وزيلع وجزء كبير من الساحل، واستطاعوا العمل لنشر الإسلام بين القبائل الوثنية دون قتال.

قبائل البجة

كان لقبائل البجه التى تعيش فى المناطق المتاخمة للحبشة أثر فى تسرب الإسلام إلى شمال الحبشة (مملكة أكسوم)، وكان لهؤلاء خمس دول مستقلة تشغل البقاع الواقعة بين البحر الأحمر والنيل، انتشرت فيها متاجم

(١) « الإلمام بمن فى أرض الحبشة من ملوك الإسلام » طبع بمصر عام ٨ ٩ ٩ ؟ وقد كتب المقريزي هذه الرسالة في أثناء إقامته بمكة عام ٨١٩ هـ / ١٤١٤ - ١٤٣٣ م.

الذهب والأحجار الكريمة ، ويعمل فيها المسلمون . وكان بداية انتشار الإسلام بين البجة على يد هؤلاء المسلمين . وفى أعقاب عام ٢١٦هـ-٨٣١م يمكن القول باعتناق البجة الإسلام ، ثم شيدت المساجد الصغيرة فى هاجر عاصمة الناقس ، وفى صنجات ، وهما من مسالك البجة .

وفى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) رحل رجل اسمه الشيخ أبادير إلى مدينة هرر بالحبشة ، ونشر الإسلام بين أهلها، ومنذ ذلك الحين أصبحت هذه المدينة مركزاً لنشر الدعوة الإسلامية .

إمارات الساحل الإســـلامية

كان فى أثر تبادل التجارة بين اليمن والحبشة رحيل التجـــار اليمنيين والحجازيين إلى الحبشة ، وكان من بينهم جماعة من قريش من سلالة «عقيل بن أبى طالب » قد سكنوا فى «جبرت» (أوفات) من أراضى زيلع ، وسموا بعد ذلك بالجبرتية . قام هؤلاء بإنشاء أول دولة إسلامية فى الحبشة، وأخذ نفوذهم يمتد ، حتى إذا جاء القرن الرابع عشر كان قد تم لهم تأليف سبع ممالك زاهرة ، سميت : « الطراز الإسلامى » على سواحل الحبشة ، وهى :

مملكة أوفات ، ودوارو ، وأرابينى ، وهديا ، وشرخا ، وبالى ، ودارة .

وقد تكلم عنها شهاب الدين العمرى فى مؤلفه « مسالك الأبصار » ونقل عنه القلقشندى فى كتابه المعروف « صبح الأعشى » (١) .

وتمدنا المراجع العربية ، ولا سيما ماكتبه القلقشندى فى صـــبح

---

(١) صبح الأعشى : ج ٥ ص ٣٢٥ - ٣٣١ .

الأعشى[1] ، بمعلومات وافية عن الممالك والإمارات الإسلامية التي نهضت في شرق أفريقيا ، في خلال العصور الوسطى ، ونقصد بهذه الممالك ، ما اتصل بدولة الحبشة وساحل البحر الأحمر ، وبحر العرب إلى الجنوب. وكانت الحبشة آنذاك تضمها الأراضي التي تقع بين النيل غرباً والبحر الأحمر شرقاً ، ومن النوبة شمالا إلى ماوراء خط الاستواء جنوباً. أي أنها كانت تشمل ما هو معروف اليوم باسم السودان والحبشة وأريتريا والصومال (٢) . أما أثيوبيا الحالية فقد رسمت حدودها الحالية (تقريبا) بمقتضى معاهدة أديس أبابا عام ١٩٠٢ ، بينها وبين السودان ، وذلك من ناحية الشمال والشمال الغربي، وحدودها الشمالية الشرقية أريتريا والصومال بأقسامه ، ويحدها من الجنوب كينيا .

ويمكن القول بأن فترة التوسع المنظم للإسلام ، في أفريقيا الشرقية ، تقع بين القرنين « العاشر والثاني عشر » ونحن هنا لا نعني بتلك الامارات العربية التي قامت في مدن متناثرة على ساحل أفريقيا الشرقي ، ابتداء من مقديشيو شمالا إلى جنوب سفالة (في موزمبيق اليوم).

ويلاحظ أيضاً أن الرقعة الإسلامية ، التي نقصدها، قد أحاطت بالحبشة من الناحية الشرقية ، وقد نعتها المؤرخون بمنطقة الطراز الإسلامي ، لأنها

---

(١) الجزء ٥ ص ٣٢٢ - ٣٧٤ طبعة القاهرة . أنظر أيضاً:
العمري : مسالك الامصار ، التعريف بالمصطلح الشريف ؛ الحنفي القنائي الجواهر الحسان في تاريخ الحبشان ، مصر ١٣٢١ هـ ؛ السيوطي . أزهار العروش في أخبار الجيوش (مصور عن نسخه بالاسكوريال — ميكروفيلم رقم ٢٧ تاريخ ، بدار الكتب المصرية) .
المقريزي : الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام مصر ١٨٩٥ عبدالمجيد عابدين . بين الحبشة والعرب ، القاهرة ١٩٤٧.
(٢) دكتور إبراهيم علي طرخان : « الاسلام والممالك الاسلامية بالحبشة » ؛ مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد ٨ ، عام ١٩٥٩ ، ص ٦٨ .

على جانب البحر كالطراز له . وقد اشتهر من هذه الإمارات : أوفات ، ودوارو ، وأرابيني ، وهديه ، وشرخا ، وبالى ، وداره . ولم يكن يجمع هذه الإمارات سوى الصلة الروحية فقط ، وكانت المنافسات بين كل منهما والأخرى تسود علاقاتها ، ولذلك كانت ضعيفة إلا فى فترات محدودة . ولو اتفقت هذه الممالك السبع واجتمعت كلمتها ، لقدروا على التماسك ، ولكنهم مع ما هم عليه من الضعف وافتراق الكلمة بينهم ، والتقرب إلى ملك الحبشة ، والخضوع له كان أمراؤها لا يتولون العرش إلا بأمر من بيت الأحياش وموافقته . وكانت هذه الممالك زراعية ، تعيش عيشة متوسطة ، ومساكنها متواضعة ، تبنى من الطين والحجارة والخشب، ويحافظ أهلها على دينهم ، وعندهم المساجد والجوامع حيث تقام صلاة الجمع والجماعات . ومع وجود العلماء والفقهاء والزهاد ، فليس لديهم مدارس ، أو خانقات ، أو ربط على النحو المعروف فى مصر. والمذهب السائد فيها جميعاً هو المذهب الحنفى ، باستثناء أوفات ، فإن غالب أهلها شافعية .

وكان التعامل فى سائر هذه الممالك بالمقايضة ، سوى أوفات التى جرت فيها العملة المصرية بأنواعها، ودوارو حيث يوجد نوع من العملة وحدتها قطعة من الحدود تسمى الحكنة .

كانت سلطنة أوفات أقوى سلطنة إسلامية قامت بالحبشة . أسسها قوم من قريش من بنى عبد الدار ، أو من بنى هاشم من ولد عقيل بن أبى طالب. ومدينة أوفات هى جبرة أو جبرت من أكبر مدن الحبشة، وتقع غربى زيلع . وكانت أوفات تتحكم فى الطريق التجارى الذى يربط الداخل بميناء زيلع على البحر الأحمر . ولم يتضح تاريخ أوفات إلا قرابة عام ١٣٠٠ حين أورث عمر هذه السلطنة لأولاده الذين تولوا عرشها واحداً بعد واحد ، وذلك بموافقة ملك الحبشة . وكان أول من خرج منهم على سلطان هذا

الابن هو «على» حفيد عمر ، لكنه لم يلبث أن عاد لطاعته. كما أن أول من استبد بالأمور وحارب ملك الحبشة وأسر الكثير من عساكره ، هو السلطان حق الدين الذى هزم جيوش الملك الحبشى سيف أرعد (١٣٤٤-١٣٧٢) بعد أن حدثت منازعات بين أفراد أسرة حق الدين ، كان من نتائجها أن هجر مدينة أوفات العاصمة ، وأمر الكثير من أهلها بالهجرة معه إلى عاصمة أخرى أسسها فى منطقة شوا ، وسماها وحل ، حيث سكن ومن جاءوا معه ومن ذلك الوقت انحطت مدينة أوفات .

وكانت قوة سلطان أوفات العسكرية قرابة ١٥ ألف فارس وأكثر من ٢٠ ألف راجل ، وتتبعه إمارتان إسلاميتان صغيرتان ،هما : مورا ، وعدال . ولا يعرف بالدقة ، الوقت الذى اعتنق فيه رعايا أوفات الإسلام ، إلا أنه من أوفات وتوابعها أخذ الإسلام يتسرب وينتشر فى منطقة شوا المحاذية غرباً . وكان يتكلم أهل أوفات ، العربية والحبشية .

وسلطنة أوفات هى التى تزعمت حركة الجهاد الإسلامى ضد الحبشة ، واستطاعت فى فترة قصيرة ان تستقل عن الحبشة (١) .

سلطنة بالى :

كانت تقع جنوب سلطنة دارة ، ويحدها شمالا نهر وابى ، ومن الجنوب نهر جرانا إلى دوريا . تحكمت فى وادى الصومال وعنصر السيداما هو العنصر الذى ساد سكانها . وكانت تعتبر هذه السلطنة أكثر بلاد الزيلع خصوبة ، وقد اختلفت عن شقيقاتها الإسلامية فى أن الملك فيها لم يظل كغيرها ، محفوظاً فى أسرة معينة . بل حدث فى القرن ١٤ أن انتقل الحكم

---

(١) ص ٦٧ Trimingham: Islam in Ethiopia

إلى رجل ليس من بيت الملك . وذلك بمساعدة ملك الحبشة .

سلطنة هديا :

تقع غرب السلطنات الإسلامية وتجاور أرابيني، وتشغل مساحة واسعة بين نهرى حواش وجيبى، ورغم أنها دون أوفات فى المساحة والإمكانيات، إلا أنها أقوى الممالك السبع وأكثرها رجالا وخيلا ، فيقال إن جنـــود سلطانها بلغت قرابة ٤٠ ألف فارس سوى الرجالة الذين يبلغون ضعف هذا العدد تقريباً (١). ومع أن الطبقة الحاكمة فيها مسلمة ، إلا أن أغلب رعاياها على الوثنية وهم من السيداما والجوارحى والشابو ، وتقترن شـــهرة هديا بتجارة الخصيان الذين يجلبون اليها، وهؤلاء يعرفون فى مصر باسم الطواشية.

سلطنة دارة :

تقع على حدود أوفات الغربية ، شمال شرق هديا فى منطقة السيداما ، وتعتبر أضعف أخواتها ، وأهلها مسلمون على المذهب الحنفى ، ومعاملها بالمبادلة .

أما الإمارات الإسلامية الأخرى ، دوارو وأرابينى ، وشرخا ، فهى إمارات صغيرة قليلة الأهمية .

رأينا أن الأراضى التى سيطر عليها المسلمون فى الحبشة ، كانت تزيد فى مساحتها عن أرض مملكة الحبشة ، وأن هذه الرقعة الإسلامية كانت تحيط بها من الجنوب والشرق ، فضلا عن إحاطة الإسلام بها من ناحية السودان،

---

(١) صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٣٢٧ — ٣٢٨ .

من الشمال والغرب ، وقد أدى هذا إلى عزل مملكة الحبشة عزلا تاماً عن العالم الخارجي ، ولا سيما بعد استيلاء المسلمين على ميناء عدل قرب مصوع. ولذلك لا ندهش، فإنه لما وليت الأسرة السليمانية عرش الحبشة عام ١٢٧٠، أخذت هذه الأسرة خطة لدعم سلطان الحبشة ، وتوسيع ملكها على حساب جيرانها المسلمين الذين كانوا يسيطرون على التجارة ،كما أن الموانىء فى أيديهم.

ولما كانت أوفات أقوى الممالك الإسلامية فى الحبشة ، فقد تزعمت حركة الجهاد ضدها وانضوى تحت لوائها بعض الولايات الإسلامية المجاورة ، ومن ثم أخذت أوفات تركز قوتها وتستعد لمواجهة الأخطار التى تهددها من جانب الحبشة . وقد بدأت هذه الأخطار تتضح على أيام الملك يا جبيا صيون (Yagbea Seyon) (١١٨٠ — ١٢٩٤) ، فقد شن حملة حربية ناجحة ضد إمارة عدال التابعة لأوفات (١). ويقال إن إمارتين إسلاميتين عاونتا ملك الحبشة فى هجومه الناجح الذى انتهى بنهب عدال وعقد هدنة بين الطرفين.

ثم استطاع المسلمون تقوية مراكزهم ودعم سيطرتهم على الساحل الحبشى (٢) وقد حدث خلال تلك الفترة (نهاية القرن ١٣) أن قام أحد المسلمين ، ويسمى الشيخ محمد أبو عبد الله ، وأعلن أنه قد أوحى إليه بجمع جيش جرار لفتح الحبشة والقضاء عليها . فقام عام ١٢٩٨ / ١٢٩٩ وحشد طائفة كبرى من الجالا والصومال ، وأعدهم للجهاد وغزا الحبشة ، فاضطر ملكها إلى النزول للمسلمين عن بضع ولايات على الحدود ، نظير اعتراف

---

(١) إبراهيم طرخان . المرجع السابق ذكره . ص ٤٩

(٢) Budge, William ; History of Ethiopia and Nubia, London 1928'

المسلمين بسيادة ملك الحبشة العليا (١) فازدادت قوة المسلمين على عهد الملك وودم أرعد (Wedem Arad) (١٢٩٩—١٣١٤) الحبشى ، فلم يستطع رد هجماتهم . وحين تحققت سلطنة أوفات (أو عدل) من ضعف مـــلوك الحبشة وعجزهم ، رأت أن الوقت قد حان للقيـام بحركة جديدة لإعلان استقلالها وانفصالها عن السيادة الاسمية التى تفرضها الحبشة عليها ، ومن ثم بدأت هجمات المسلمين ضد الأحباش، وقد استمرت هذه الهجمات نحو ثلاثة قرون بعد ذلك ، مما أدى فى نهاية الأمر إلى تدمير مملـكة الحبشة تقريباً .

ولم تلبث الحبشة أن قويت وازدهرت خلال حكم عمدا صيون الأول (١٣١٣ / ١٣١٤) — ١٣٤٣ / ١٣٤٤) ، وهو ابن ودم أرعد ، وبدأت أعمـال عمدا صيون الحربية ضد الإمارات الإسلامية بالحبشة ، على أثر السياسة التى انتهجتها أوفات للاستقلال عن الحبشة والتوسع فى أملاكها . فقد تقدم السلطان حق الدين وتوغل فى أملاك الحبشة ، فغزا الولايات المسيحية ، وأحرق كنائسها ، وأجبر المسيحيين على الدخول فى الإسلام... ومن ثم خرج ملك الحبشة عام ١٣٢٨ وهجم على أوفات من جميع نواحيها، حتى فرق شمل الدفاع الإسلامى، وأسر حق الدين ووضع يده على مملـكته وكذا مملـكة فاتاجار الإسلامية ، وجعلها ولاية واحـــدة ، وعين عليها صبر الدين ، وهو شقيق حق الدين ، بشرط الاعتراف بسيادة الحبشة. غير أن صبر الدين لم يطق صبرا على هذه التبعية ، وكون حلفاً إسلامياً من إمارتى هديا ودوارو ، ثم تقدم غازيا الحبشة ، فاستولى على كثير من الغنائم ، وهدد ملك الأحباش الذى خرج على رأس جيشـــه ، وهاجم الأحلاف منفردين ، بادئا بمملـكة هديا ، فحطمها قتلا ونهباً وأســراً ، وأرغمها على الخروج من الحلف ، وحمل ملـكها أسيراً إلى عاصمته ثم أرسل فرقة عنيفة من جيشه (فرقة الذئاب) إلى قصر صبر الدين فنهبه ، وكانت

(١) الفاطر بصيل ص ١٢

هذه الفرقة مقدمة لجيشه الذى تبعها ، ودمر المدينة ونهب معسكر المسلمين. ثم تقدم ملك الحبشة إلى فاناجار واستولى عليها ، وكذلك إلى مملكة دوارو وملكها حيدورة . ولما علم صبر الدين بهزيمة قواته ، قيل إنه سلم نفسه (١) .

ويمكن القول بأنه فى هذه الفترة ، انتهى استقلال الممالك الإسلامية فى أوفات وهديا وفاناجار ودوارو ، وجعل من الثلاث الأول مملكة واحدة، أسند الحكم فيها إلى جلال الدين أخى صبر الدين ، فقبل أن يكون تابعاً للحبشة، وأن يدفع لملكها الجزية ، وهكذا اتسعت مملكة الحبشة وضعف أمر المسلمين ، ولا سيما بين عنصر السيداما حديث العهد بالإسلام (٢) .

وفى الفترة ما بين عامى ١٣٣٢ و ١٣٣٨ ، اجتمعت كلمة المسلمين على إرسال سفارة إلى سلطان مصر الناصر محمد بن قلاوون ، برياسة عبدالله الزيلعى ، ليتدخل السلطان فى الأمر لحماية مصالح المسلمين فى الحبشة ، فطلب الناصر محمد من البطريق بالاسكندرية أن يكتب رسالة إلى ملك الحبشة فى هذا الصدد (٣) .

غير أن عمدا صيون لم يكف عن مهاجمة المسلمين بالحبشة ، وهؤلاء لم يكفوا عن انتهاز الفرص للثأر منه . ثم تكون حلف إسلامى قوى جمع غالبية المسلمين بالحبشة (عدل ومورا وطيقو وباجوما ولباكالا وزراجا وحبلة) وجعل خطته القضاء على الحبشة . وبدأ بعمليات الكر والفر فى ستر الظلام . واستمر الملك يطارد أتباع هذا الحلف، لكنه عند ما عسكر

---

(١) صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٣٢ .
(٢) إبراهيم طرخان . المرجع السابق ذكره ص ٥٣ .
(٣) برمنجهام ص ٧١ — ٧٢ .

فى مورا الإسلامية ، تقدمت إليه امرأة مسيحية وأفضت إليه بخطة المسلمين ضده ، فلما عرفها الملك تعقب المسلمين حتى حدود مملكة عدل ، ثم استعان أميرا مورا وعدل بأحد أشراف مكة ، وكان له نفوذ روحى كبير فى منطقة هرر ، وفى ذلك الحين ثار جمال الدين واتصل بأمير عدل . فلما علم ملك الحبشة بتحالف المسلمين ضده وتقدم جحافلهم نهض لقتالهم وتقدم فى الأراضى الأسلامية حتى وصل إلى مدينة عدل ، فقبض على سلطانها وذبحه ، فتقدم أولاد السلطان الثلاثة إلى ملك الحبشة مظهرين الخضوع وطلبوا إلى الحكام المسلمين أن يكفوا عن القتال ، غير أنهم رفضوا . فاستأنف النجاشى تخريبه وقتاله ودافعت النساء مع الرجال ، واستمر هو فى نهبه وسلبه المدن الأسلامية الواحدة بعد الأخرى . وفى أثناء تلك المعارك ، انتاب سلطنة أوفات بعض الفتن الداخلية بسبب النزاع بين أعضاء الأسرة الحاكمة ، وانتهى النزاع بانفراد حق الدين الثانى وإعلان استقلاله عن الحبشة ، فهزم جيوش ملكها وظل على خطة الجهاد فترة طويلة ، وربما استمرت حتى عام ١٤١١ ، ثم تولى أخوه سعد الدين (أبو البركات) حركة الجهاد من بعده ، فدحر الأحباش واستولى على زمدوه وبالى ، وتوغل فى أرض أمهرة (مملكة النجاشى) ، وتكلل جهاده بالنصر . ولكن حدث فى معارك تالية أن هزم سعد الدين ، واضطر إلى الالتجاء إلى جزيرة زيلع ، حيث حوصر وقطع الماء عنه ، إلى أن دل أحد الخائنين العدو على صبر الدين الذى قاتل فترة من الزمن حتى خر صريعاً وذلك عام ١٤٠٢ .

ويعتبر احتلال الأحباش لزيلع نهاية سلطنة أوفات ، إذ ضعف أمر المسلمين ، واستمر الأحباش فى تخريب البلاد ، وتفرق أولاد سعد الدين العشرة ، وكان أكبرهم صبر الدين الثانى، وهاجروا إلى شبه الجزيرة العربية، حيث نزلوا فى جوار ملك اليمن الملك الناصر أحمد بن الأشرف ، فأجارهم

وجهوهم لاستئناف الجهاد ضد الحبشة ، فعاد هؤلاء إلى أفريقيا ، واستقروا في موضع يقال له سيارة حيث انضم إليهم من بقوا من جنود والدهم، فقوى أمرهم واستأنفوا النضال . وأصبحت مملكة أوفات تعرف منذ ذلك الحين باسم بر سعد الدين .

أحرز صبر الدين الثانى عدة انتصـــارات ، واستولى على عدة بلاد حبشية ، منها مرحان ، وتبودل القتل والأســـر والتخريب بين الجانبين، وحرق صبر الدين قصر النجاشى . وبعد وفاة صبر الدين الثانى عام (١٤٢١/ ٢٢) ، خلفه أخوه منصور (ت ١٤٢٥) وأهم ما يذكر عنه أنه وقع فى قبضته قرابة ٣٠,٠٠٠ أسير ، تخيرهم بين الإسلام أو العودة إلى قومهم ، فأسلم منهم حوالى عشرة آلاف وعاد الباقون .

وكان النجاشى اسحق بن داود الذى حكم الحبشة (١٤١٤ - ١٤٢٩) قد اتفق مع رجال دولته على انتزاع ممالك المسلمين وإجلائهم عن البلاد فأوقع بهم فى عدة معارك قتل فيها وسبى واسترق ، ثم كتب إلى ملوك الإفرنج يحثهم على مساعدته لإزالة دولة الإسلام من بلاده ولكنه مات عام ١٤٢٩.

أصاب الحبشة ومملكة عدال اضطراب ، ففى عدال وقعت الفتنة بين أعضاء الأسرة الحاكمة ، وقتل السلطان جمال الدين (١٤٣١)، ثم استأنفت نشاطها على أيام السلطان شهاب الدين أحمد بدلاى ، فاسترد بالى ، بيد أن هذا النشاط لم يستمر طويلا ، ففى أيام النجاشـــى « بئيد مريم » الذى ولى العرش ١٤٦٨ ، بسط سيادته على سلاطين عدال فترة من الزمن ، ثم تلاحقت هزائمه على يد المسلمين، فقد أبادوا جيشه عام ١٤٧٨ ، وخلفه عدد من الحــــكام استمروا في عدائهم ضد المسلمين .

وفى أيام النجاشى لبنا دنجل بدأت الأوضاع السياسية والعسكرية تتبدل، ورجحت كفة المسلمين على الأحباش ومن والاهم ، وتميزت هذه الفترة ببروز قوة المسلمين وانتصارهم ، بل اتسعت رقعة الممالك الإسلامية فى الحبشة ؛ بحيث أضحت تضم قرابة ثلاثة أرباع مملكة الحبشة ، وفى نفس الوقت ازداد انتشار الإسلام بازدياد قوته السياسية ، بينما انحطت قوى الأحباش وتدهورت ، والتزموا خطة الدفاع .

وفى أوائل القرن السادس عشر ظهر فى الأفق عامل جديد فى منطقة البحر الأحمر يتمثل فى ظهور الأتراك العثمانيين وقيام حـــركة الكشف الجغرافى بزعامة الملاحين البرتغاليين ، كذلك أدخلت أسلحة جديدة لم يعرفها مسلمو الحبشة أو الأحباش فى معارك النضال السابقة.

ويتسم القرن السادس عشر بأعمال القتال المتواصلة من الحبشة ضد المسلمين فى الجنوب والجنوب الشرقى، وقد بلغت أشدها حين تولى النجاشى « لبنا دنجل » وولده كلاوديوس من بعده ، فنهض المسلمون لدفع اعتداء الأحباش ؛ وفى سبيل ذلك عانوا شديداً، وكادت دولتهم (وحاضرتها هرر) تنهار ، لولا أن قام شاب مسلم مقدام اسمه أحمد بن إبراهيم جرانى، ووحد كلمة المسلمين ، وتولى زعامتهم ، وعزم على فتح الحبشة . وقد استطاع بمؤازرة الترك فى اليمن وجده التوغل فى الحبشة حتى وصل إلى أقاليمـها الشمالية فى «تيجرى» ، ودارت بينه وبين الحبشة عدة معارك كان منها معركة باد ومعركة صمبر كورى (١٣٥٠ هـ - ١٥٢٨) . ولقد استعان الأحباش بالبرتغاليين الذين كانوا احتلوا جزءاً على ساحل شرقى أفريقيا فأمدوهم بالمدافع والجنود المدربين .

وبقى أحمد يقاتل الحبش بجيشه من سنة (١٥٢٨ - ١٥٤٣) ثم استشهد فى إحدى المعارك (١٥٤٣/١٥٤٤) ، وخلفه ابن اخته الأمير (نور بن مجاهد) على قيادة المجاهدين ، فكان من أقدر القادة ، وقد أطلق عليه المسلمون «صاحب الفتح الثانى» ، حتى هزم ١٥٥٩ .

أحمد الجـــرانى

وهنا نسلط بعض الضوء على أعمال هذا البطل المسلم أحمد جرانى ، فنقول إنه غزا بلاد الجالا وسائر الشعوب التى تجاور مدينة هرر ، ثم وصل إلى هرر ، ثم زحف شمالا إلى غندار فاكسوم ، ولبنا دنجل ، وفى الأثناء ظل يتنقل هاربا من مدينة إلى أخرى ، وجرانى يطارده ، ويقتل من الأحباش خلقاً كثيراً ، ويخرب الكنائس ، وقد كان لغزوته أثر كبير فى نشر الإسلام فى البلاد .

ويروى أحمد جرانى عن نفسه أنه كان ابن أحد قساوسة ايجو ، وكان قد ترك موطنه واعتنق الإسلام فى «عدل» ، ولما قام بغزوته الكبرى انضم إلى جيشه كثير من زعماء الحبش مع أتباعهم ، ودخلوا فى الإسلام ، كما رضى سكان بعض الأقاليم التى فتحها بدفع الجزية والبقاء على دينهم. وقد استغل زعماء المسيحيين الذين انتقلوا إلى الإسلام نفوذهم فى تحويل جيوشهم إلى اعتناق الإسلام ، وانتهز كثير من المسلمين الذين كانوا قد أقاموا فى الحبشة قبل هذه الغزوة فرصة انتصار هذا الملك المسلم، وساعدوا بإخلاص فى نشر الدعوة الإسلامية بين الأحباش .

ولم ينقض حكم دلبنا دنجل، سنة ١٥٤٠ ، حتى كان العرب قد جعلوا من أنفسهم سادة على الحبشة . بيد أن ذلك لم يطل كثيراً ، ولم يعد المسلمون مصدر خطر جدى يهدد الأحباش .

وإننا لندين إلى أحمد بن عبد القادر شهاب الدين (١) المؤرخ العربي المعروف « بعرب فقيه » بما كتبه عن تاريخ غزوة جرانى فى القرن السادس عشر ، وقد ذكر لنا أماكن كثيرة فى الحبشة ، قلما نعثر عليها فى المراجع العربية الأخرى .

وكان من أثر تدخل البرتغاليين فى شئون الحبشة ، عقب معاونتهم للأحباش ، أن نشأ نضال عنيف بين مسيحى الحبشة ، وأعلن بعض القادة صراحة أن من الخير لهم أن يخضعوا للحاكم المسلم ، لا أن يظلوا على محالفة البرتغاليين . وسرعان ما أخذت الحركة شبه الدينية وشبه الوطنية التى استقرت هنا لك ، مثل هذه الخطوات الواسعة التى أدت حوالى عام ١٦٢٣ إلى طرد البرتغاليين وإخراج المسيحيين الأجانب من البلاد ، وسرعان ما أصبحت حالة الحبشة فى ذلك الحين ضرباً من الفوضى وسوء النظام (٢) .

الـكارميــة

ومن العوامل التى ساعدت على نشر الإسلام فى الحبشة ، الجهود التى قام بها التجار المسلمون الذين كانوا كثيرى التردد على الحبشة ، وكان هؤلاء من اليمنيين أو الحضارمة أو من الأفريقيين أنفسهم ، وكانوا ينتشرون فى بلاد الصومال والحبشة ، يتاجرون ويعملون للدعوة إلى الدين الحنيف ، إلا أن الفضل الأكبر فى نشر الأسلام فى الحبشة عن طريق التجارة كان يرجع إلى طائفة من التجار المسلمين نشأت بمدينة قوص المصرية ، وتألفت من مهاجرين من أهل التكرور (غرب أفريقيا) ، وبعض الهنود والعرب ، وقد اتخذت لنفسها اسم « الكارمية » نسبة إلى بلاد « كانم » حول بحيرة تشاد وإلى الشرق من برنو ، وقد أخذت تشتغل فى تجارة التوابل ، وسرعان ما تضاعفت ثروتها ، وانضم إليها المسلمون التجار من جميع البلاد . وكان

---

(١) عرب فقيه أحمد بن عبد القادر شهاب الدين : فتوح الحبشة ج ١ القاهرة طبعة ١٩٠٩
(٢) عبد المجيد عابدين : بين الحبشة والعرب ، القاهرة .

التجار الكارمية على جانب كبير من الورع والتقوى ، جعلوا من أنفسهم دعاة للإسلام إلى جانب اشتغالهم بالتجارة .

وقد دخل هؤلاء الكارميون بلاد الحبشة تحت ستار التجارة، ووجدوا من الأمراء والحكام ترحيباً . بسبب نشاطهم الاقتصادى الجم ، واشتغالهم بتجارة الرقيق بمساعدة ملوك الحبشة أنفسهم ، وساعدهم على بث الدعوة طول إقامتهم فى البلاد ، واختلاطهم مع الأهالى ومعرفتهم بعاداتهم وتقاليدهم ، حتى أسلم على أيديهم كثير من أهل الحبشة .

ومما ساعد على نجاح هؤلاء الدعاة أن الحبشة فى القرن السابع عشر قد انقسمت إلى إمارات تكاد تكون مستقلة ، وسادتها الانقسامات والحروب الطائفية ، وكانت الطبقات الفقيرة من المسيحيين المثقلة بالضرائب أكثر الناس تحولا إلى الإسلام . هذا إلى ما كان ينعم به المسلمون من مكانة اجتماعية وحرية موفورة .

والجدير بالذكر أن الإسلام فى القرن الثامن عشر ، كان ينتشر بين قبائل الجالا وهم ينزلون جنوب شرقى الحبشة نفسها وشمال مقاطعة شوا . وفى خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أحرز الإسلام تقدماً بطيئاً .

عوامل انتشار الإسلام
فى أثيوبيا

نوجز فيما يلى أهم عوامل انتشار الإسلام فى أثيوبيا ، وظهور الولايات الإسلامية فيما يلى :

١ — فى أعقاب حركة الردة التى تعرضت لها الدولة الإسلامية فى بدء تكوينها فى أيام خلافة أبى بكر الصديق رفض القائمون بهذه الحركة سيطرة

قريش عليهم ، ولم يروا الخضوع لأبى بكر بعد وفاة النبى . ولم يكن أمام هؤلاء الناس إلا أن يخضعوا لهم أو يهاجروا إلى حيث لا يمتد نفوذ قريش ففضلوا الهجرة بالرغم عن متاعبها . وكانت أثيوبيا خاصة المهجر الأول لهم، وشرق أفريقيا عامة .

٢ — ولما حكم الأمويون الدولة الإسلامية بعد مذابح ومعارك ضد آل على ، سرى فى أنحاء الدولة شعور بالفزع ، فأيقنت بعض القبائل العربية أن لا سبيل إلى الحياة الحرة تحت ظل الدولة الأموية ، كما أيقن آل على أن أية محاولة جديدة من جانبهم لن تزيدهم إلا الخسائر . فأخذوا يتفرقون فى البلاد ، أو يمعنون فى الهرب ، قاصدين أماكن لا يمتد إليها سلطان الأمويين. فقصدت جماعة منهم شواطىء أفريقيا الشرقية . .وكان على رأس هذه الجماعات زيد بن الحسن بن على وبعض أنصاره من الزيدية . . . فاستقروا عند نقطة بساحل أفريقيا الشرقى الجنوبى ، وصارت تتوسع رقعتهم بفضل من كان يتوالى عليهم من المهاجرين من الجزيرة العربية . إلا أن استيلاء بنى أمية على مجموعة جزر دهلك المواجهة للساحل الأثيوبى يدل على اتجاه موجات أخرى من المهاجرين الهاربين .. .

وحدث فى أعقاب ثورة الحجاز ضد الأمويين لاسيما فى أيام ولاية عبد الله بن الزبير التى واصلت ثورته فى الحجاز تسع سنوات يناضل أثناءها الأمويين حتى تغلب عليه الحجاج بن يوسف الثقفى سنة ٧٣هـ/ ٦٩٢م وقتله .

كانت نتائج هذا الصراع المرير أن هاجر كثير من أهل الحجاز واليمن إلى حيث طاب لهم العيش . وإلى شرق السودان والحبشة وشرق أفريقيا .

٣ — وفى عام ١٣٢هـ /٧٤٩م جاء دور الأمويين حينما حلت بهم الهزيمة وشردوا فى الأرض ، فخرجت جيوش العباسيين والشيعة من الشرق يقودها أبو مسلم الخراسانى ، وأوقعوا بجيوش نصر بن سيار عامل الأمويين على

خراسان ، وفر مروان (الحمار) إلى مصر ، ثم لاقى حتفه فى أثناء مقاومته للوالى صالح بن على . ففر أبتاع مروان جنوباً حتى وصلوا إلى النوبة واستقر عدد منهم هناك ، وواصل بعضهم السير إلى أعالى النيل وذهب آخرون إلى مصوع ، وعبرت قلة منهم البحر إلى جدة تحاول العودة إلى مواطنها الأصلية .

٤ — لم يكد العباسيون ينتهون من بنى أمية حتى التفتوا إلى الشيعة الذين أفاقوا إلى ماوقع منهم فى غفلة ، فقاموا ينازعون العباسيين الأمر .. واستمر النزاع بين العلويين والعباسيين طوال العصر العباسى . . . ونتج عن هذا الصراع السياسى أن التجأ الكثيرون إلى شرق أفريقيا .

ثم جاء دور الخوارج ، وهؤلاء ناصبوا الدولتين الأموية والعباسية العداء ، وأمضوا فى نزاعهم . فثاروا فى الجزيرة أيام الخليفة المنصور ، لكن قتل قائدهم قضى على حركتهم وفرقهم فى البلاد ، وهاجر كثير منهم إلى جهات قاصية . وكانت أثيوبيا بموقعها الجغرافى وخصبها ووفرة مواردها . . . كان فيها إغراء كبير على أن تقصدها أعداد كبيرة من هؤلاء الفارين .

الثورة المهدية وعلاقتها بالحبشة

ولما قامت الثورة المهدية فى السودان (١٨٨٢ — ١٨٩٨) ، كان طبيعياً أن تحتك مع الحبشة المسيحية ، وقد بعث محمد أحمد المهدى كتاباً إلى يوحنا ملك الحبشة يدعوه إلى الإسلام والمهدية ، ويحذره من المخالفة ، وأرسل فى الوقت نفسه رجلا من أعيان الأحباش ، كان قد لجأ إلى المهدى وآمن بدعوته وهو محمد جبريل ـ أرسلة يدعو المسيحيين إلى الإسلام ، ويبشر بمهدوية محمد أحمد ـ وقد أحنق هذا كله يوحنا ، فأخذ يضطهد مسلمى الحبشة ، حتى اضطر كثير منهم إلى الهجرة للسودان[1] ، واللجوء إلى المهدية . وقد أقاموا لأنفسهم

---

(١) محمد محمود الصياد : السودان والحبشة . المجلة التاريخية المصرية ، المجلد ٤ ، العدد ١ مايو ١٩٥١ ، ص ٢٢٩ — ٢٤٤ .

فى عهد التعايشى حلة فى « عراديب » (شمالى الجلابات) . وأطلقوا عليهم اسم « تبارك الله » ، وولى عليهم الخليفة رجلا من أنصاره هو « النور واد فقراء » وكانت الجلابات قد احتلها « محمد واد أرباب » فى مارس ١٨٨٥ .

أما على الحدود الشمالية . فقد كتب عثمان دقنة بعد سقوط كسلا يهدد الرأس « ألولا » الذى أجاب على التهديد بالهجوم على جيوش المهدية فى كوفيت . وهزمها هزيمة منكرة . ثم توالت هزائم المهديين . فاضطرب الخليفة التعايشى وسارع إلى تجهيز جيش كبير . عقد لواءه إلى أحد أقاربه . هو « يونس الدكيم ».وأرسله عاملا على الجلابات فى ١١ مارس ١٨٨٧ ، وبعث إلى النجاشى بخطاب يدعوه فيه إلى الإسلام. وهدده بالغزو وإذا لم يستجب. ولكن النجاشى لم يرد على كتاب التعايشى . وكان يونس قد استرد الجلابات . واتخذها مركزاً يناوش منه الأحباش فى داخل حدودهم . وكان رد النجاشى أن أمر بتجهيز حملة للاستيلاء على الجلابات وطرد الدراويش منها . فلما علم التعايعشى بذلك سارع فأعد جيشاً من أربعين ألف مقاتل . بقيادة خير قواده حمدان أبو عنجة يعاونه الزاكى طمل . والنور عنقرة . ووصل الجيش إلى الجلابات فى ٢ ديسمبر عام ١٨٨٧ ، واستلم أبو عنجة القيادة من يونس الدكيم الذى عاد إلى أم درمان .

وفى ٩ يناير ١٨٨٨ بدأ أبو عنجة الزحف على غندار . عاصمة الحبشة القديمة . فلما وصل إلى أبواب المدينة . احتدم القتال بينه وبين الأحباش . ثم انتهت المعركة بهزيمة الحبشة . ودخل أبو عنجة غندار . فنهبها وأحرق كنائسها وغنم كثيراً . ثم بعث إلى الخليفة بخطاب يوضح فيه مراحل الحملة .

وبعد شهور أغار أبو عنجة مرة أخرى على الحبشة فى يونيو ١٨٨٨ ، ثم عاد إلى قواعده فى الجلابات . وفى أواخر السنة وصله خطاب من النجاشى بالعربية والأمهرية . يدعوه فيه إلى الصلح . ويطلب إليه ألا يتعدى أحدهما

على حدود الآخر . ويدعوه إلى الاتفاق والتحالف فى سبيل رد الأفرنج . فهم « أعداء لنا ولكم ، فإن غلبونا وهزمونا لم يتركوكم . بل خربوا دياركم . وإذا غلبوكم وكسروكم فعلوا بنا كذلك ، فالرأى الصواب أن نحاربهم ونغلبهم » .

ولكن هذه الدعوة إلى الدفاع المشترك ، لم تلق قبولا عند أبى عنجة الذى رد بخطاب شديد اللهجة ، يرفض فيه الصلح إلا إذا اعتنق يوحنا الإسلام ، ويصفه بضعف العقل . ولذلك صمم يوحنا على طرد الدراويش من الجلابات وردهم حتى أم درمان . فجمع جيشاً يقدر بربع مليون مقاتل . وسير معه من حكام البلاد الرأس عدار ، والرأس أولولا ، وهيلا مريم . وصالح شنقة . وغيرهم . كما بدأ أبو عنجة يحصن الجلابات استعداداً للقاء جيش النجاشي . ولكنه مات فى يناير ١٨٨٩ . وخلفه الزاكى طمل . فأتم الاستعداد للمعركة التى بدأت فى ٩ مارس وانتصر الأحباش فى أول الأمر إلى أن أصيب ملكهم بجرح مميت . فدب الذعر فى صفوفهم . وأخذوا فى التقهقر . فتبعهم الزاكى إلى نهر عطبرة . حيث أنزل بهم هزيمة ساحقة . فقتل وغنم وسبي . وعاد إلى الجلابات . وكتب للخليفة التعايشى رسالة مطولة يشرح له ظروف المعركة بالتفصيل . كما أنه أرسل إلى أم درمان رأس يوحنا وتاجه المرصع وأمتعته الخاصة .

وبعد هذه المعركة . اتجه التعايشى وقواده إلى غزو مصر من الجنوب . وكانت مصر قد أعدت جيشاً كبيراً لاستعادة السودان من قبضة المهديين . وقد تم لها النفوذ فى نهاية سنة ١٨٩٨ . وانتظمت فى الخرطوم حكومة جديدة وعقدت فى ١٥ مايو عام ١٩٠٢ بين الحكومة البريطانية والإمبراطور منليك الثانى اتفاقية عينت خط الحدود بين السودان والحبشة .

* * *

ولما تولى «ليج ياسوع» حفيد منليك الثانى الحكم (١٩١٣-١٩١٦)، وكان هذا الملك الشاب مبصراً بالأخطار المحدقة بيلاده . عن طريق بريطانيا وفرنسا، ترنو كل منها إلى اختلاس واحدة من مناطقها، أنكر الدين المسيحى وتزيا بزى المسلمين، ونقش على العلم الحبشى «لا إله إلا الله محمد رسول الله» بل إنه فكر فى إعلان الجهاد والقضاء على المسيحيين، وأعد جيشاً لتنفيذ خطته، وقرر فى عام ١٩١٦ أن يتبع البلاد لتركيا فى الشئون الدينية، فتدخلت الدول الأوروبية، وأرغمته على النزول عن العرش، وعمل خلفاؤه على دعم المسيحية، والحد من النفوذ الإسلامى .

الإسلام فى أثيوبيا اليوم

تقدر مساحة أثيوبيا بحوالى ٣٩٥٠٠٠ ميل مربع (بعد اندماج أريتريا)، ويبلغ عدد السكان حوالى ٢٢ مليون نسمة .

وأهم أجناس الأثيوبيين هم الأمهرة، ويسكنون الهضبة الأثيوبية الوسطى . ويعيش قبائل التيجرة فى الشمال، والأمهرة والتيجرة يعتنقون الإسلام، وهم من أصل سامى وحامى مختلطين . أما قبائل الجالا فغالبيتها مسلمة . وفيها مسيحيون ووثنيون، يؤلفون أكثر من نصف سكان أثيوبيا، ومعظمهم يقطن المناطق الشرقية والجنوبية باستثناء الجنوب الغربى من البلاد، وهم إما رعاة أو مزارعون، وهم من أصل حامى . أما مكان مديرية هرر وهضبة الصومال فهم من الأوجادن أو العيسى أو الصوماليين، وهم مسلمون، شأنهم فى ذلك كالدناكل، وفى أثيوبيا قبائل السيدامو (Sidamo)، وقبائل نيلية وأخرى نيلية — حامية، يعيشون فى الجنوب الغربى من البلاد، أما الفلاشا وهم من أصـــل يهودى، فيعيشون شمال بحيرة تانا منبع النيل الأزرق .

اعتنق الأمهرة الدين المسيحى فى القرن الرابع عن طريق مصر ، وارتبطوا منذ ذلك الحين بكنيسة الإسكندرية ، بوساطة أحد كبار رجال الكهنوت الأقباط الذى كان يعينه بطريرك الكنيسة المرقسية . وظل الحال على هذا المنوال حتى تأزم الموقف بين الكنيسة المصرية والحكومة الأثيوبية فى عام ١٩٤٨ حول تعيين رئيس مطارنة إثيوبيا ، واتفق أخيراً على تعيين إثيوبى لهذا المنصب ، وفى يناير ١٩٥١ رسم « ابونا باسليوس » رئيساً لأساقفة أثيوبيا وفى عام ١٩٠٩ استقلت الكنيسة الأثيوبية عن المصرية ، وأصبح الأب باسليوس بطريركا للبلاد .

وتنتشر النصرانية فى مديريات الشمال : تيجرى ، بيجميدرى ، جوجام ، شوا . أما سكان مديرية « وولو » فى الشمال الشرقى ، فنصفهم من المسيحيين والنصف الآخر مسلمون ، وفى النصف الجنوبى من أثيوبيا تؤلف الأغلبية الساحقة من المسلمين فى مديريات هرر والعروسى . وفى مديريتى جيما وكفا جيما فلاحظ أن الأقلية من المسلمين . وفى مديرية جموجوفا Gamn Gofa التى تقع على الحدود الكينية ، وفى بعض أجزاء سيدامو ، عناصر وثنية كثيرة أما سكان أريتريا فغالبيتهم مسلمون والأقلية مسيحيون .

وعلى العموم ، يتجاوز عدد مسلمى أثيوبيا نصف عدد السكان ، إن لم يكن أكثر من ذلك . وينتشر الإسلام كما لاحظنا فى جنوب وشرق أثيوبيا وفى الجهات الشمالية الغربية المتاخمة للسودان . وتعتبر هرر أكبر المراكز الإسلامية فى أثيوبيا منذ العصور الوسطى . وتنتشر المساجد والمدارس الحكومية الخاصة بأبناء المسلمين فى أكثر المدن .

ولا يزال الإسلام ينتشر فى أثيوبيا ، وخاصة بين سكان الأقاليم التى أخضعتها أثيوبيا فى أوائل القرن العشرين ، سواء أكانوا مسيحيين أم وثنيين ، وقد بلغت سرعة انتشار الإسلام فى هذه الأقاليم درجة أقضت مضاجع كثير

من المبعوثين المسيحيين فى أثيوبيا ، الذين أوجسوا خيفة من أن يصبح يوماً دين الأكثرية ، ليس فى هذه الأقاليم فحسب ، بل فى أثيوبيا جميعها .

الإسلام فى قبائل إثيوبيا

١ — قبائل جبرت :

يقطن أفرادها فى المنطقة المسماة باسمها فى شوا ، المحيطة بأديس أبابا ، والجبرت أثيوبيون مسلمون ، يتكلمون اللغة الأمهرية ، ومحافظون على التقاليد الوطنية ، ويؤدون أحكام الشريعة بدقة . وتدعى كبرى أسرات الجبرت الانتساب إلى سيدنا عثمان بن عفان . وتتناثر قرى الجبرت فى حماسن ، أكيلى جوزاى ، سيراى ، عدى تيجسس فى تيجرى ، وتقابلنا قراهم فى أنحاء شتى من البلاد . وهناك مجموعات من الجبرت فى المدن الرئيسية ، كما هو الحال فى أسمرة ، ومعظم مدن أريتريا : دبارك ، دارا ، إسلاجى ، دبخيلا ، ديسيه، أديس عالم (ضاحية جوندار) وقد أقاموا المساجد فى كل هذه المدن .

والجبرت أرقى القبائل الأثيوبية ، لا فى أثيوبيا فقط ، بل فى شرق أفريقيا أيضاً . وهم يميلون إلى التفقه فى الدين ، ويتعاونون فى حب دينهم ، ويشتغلون فى التجارة ، ويمتهنون الحرف ، ومنهم مزارعون ، والجبرت إما شافعية أو مالكية أو حنفية ، ولا يتزوجون إلا من واحدة ، ونساؤهم غير محجبات .

٢ — قبيلة عاد شيخ Ad Sheikh

يرجع أصل هذه القبيلة إلى رجل عربى ، عرف باسم الشريف حسين ، هاجر من شبه الجزيرة العربية ، ولكن يبدأ تاريخهم بوصول الشيخ الأمين ابن حامد — فى أوائل القرن التاسع عشر — إلى ساحل البلاد ، فاكتسب

شهرة لما نسبه إليه من المعجزات أتباعه الذين كانوا يستمدون منه البركة ، وفى طليعة هؤلاء أسرة « بيت عسجادة » ، وقد عرفت هذه الأسرة كيف تستفيد من صلاح هذا الرجل وتقواه ، فاشتد نفوذها وزادت ثروتها عن طريق الهبات التى كانت تمنح للشيخ الأمين ، وعلى مر الأيام نمت هذه القبيلة وازدهرت وتفرعت منها بعض الجماعات ويقدر عدد القبيلة بحوالى ٨٠٠٠ ، ومنها قبيلة عاد شيخ الأصلية ، وأفرادها يرعون الحيوان .

٣ — بنو عامر :

إحدى مجموعات قبائل البجا الأربع الرئيسية ، وهى : البشارين ، والعمرار والهدندوه ، وبنو عامر . وقد اختلطت القبائل الثلاث الأولى مع بعض قبائل الهضبة الحبشية . أما بنو عامر فما زالوا محتفظين بوحدتهم القبلية ، فى شمال إريتريا بالقرب من كسلا .

ولقد خضعوا فترة طويلة من تاريخهم لنفوذ دولة الفونج (سنار) ، واعتنقوا الإسلام من ذلك الحين ، وتعمق الإسلام فى صدورهم فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، حينما دعاهم محمد عثمان الميرغنى إلى طريقته واقتدى به أبناؤه . وفى أيام الثورة المهدية قاوم بنو عامر وبطونهم : (معالة وسنكا تكناب ، وغاسه ، وليبات) ، الدراويش وحاربوهم مدة ثم صالحوهم ليتجنبوا أذاهم .

ويقدر عدد بنى عامر بحوالى ٦٠٫٠٠٠ فى أرتيريا ، ٣٠٫٠٠٠ فى السودان . ويطلق على زعيمهم لقب « ديجلال » ويعرف نائبه بلقب شيخ المشايخ ، وهم يتكلمون لغة تيجرى ، بينما احتفظ بعضهم بلغتهم الحامية الأصيلة . وغالبية بنى عامر رعاة رحل . وقد برز فيهم زعيم دينى أصله من « عاد شيخ » ، اسمه السيد مصطفى واد حسن ت (١٩٤١) ، ومقبرته فى أجور دات ، يتبارك الناس

بزيارتها ، كما أنهم يتبركون أيضاً برجل صالح آخر هو الشيخ عمر عاد الشيخ حامد .

٤ — قبائل بيت اسجيد (حباب وعاد تكليس وعاد تماريام) :

تعيش هذه القبائل فى أريتريا ، ويقدر عددها بحوالى ٥٠٫٠٠٠ نسمة ، ويرجع إسلامهم أصلا إلى أسباب سياسية واجتماعية ، حينما كان للمصريين نفوذهم السياسى فى سواحل البحر الأحمر وفى السودان (بالقرب من كسلا). وقد انضم غالبيتهم إلى الطريقة الميرغنية .

٥ — قبائل منسا وبيت جوك :

يحترف المنسا الزراعة فى أريتريا ، وكان أفراد الطبقة الحاكمة مسيحيين قاوموا الإسلام مدة طويلة ، ولكنهم فترت مقاومتهم فى القرن التاسع عشر ، ثم تحولوا إلى الإسلام بفضل جهود المصريين فى منتصف القرن المذكور . أما قبيلة بيت جوك فيقطن أفرادها فى وادى عنسابة بين قبائل منسا وبيلين ، ويعملون فى الزراعة ويقدر عددهم بحوالى ٥٠٠٠ ، وقد انتشر الإسلام بينهم بفضل نفوذ مصوع الإسلامى ، ولاتصالاتهم التجارية مع قبائل الحباب ، وجميعهم اليوم مسلمون .

٦ — قبائل بيلين[١] والبوغوص :

كانت قبائل بيلين يعتنقون المسيحية ، ويعيشون فى المرتفعات ، ولما وضع المصريون أيديهم على منطقة نهر الفاش ، زاد خطرهم ، ولما تولى إلياس بك (١٨٥٠) منصب محافظ التاكا (كسلا) ، اتفق مع زعماء قبيلة بنى عامر على الإغارة على أراضى بيلين ، لكنهم فشلوا ، وفى أيام خسرو بك (١٨٥٤)

---

(١) كانوا يعرفون بقبائل أجاو (Agse) وأحياناً بالبوغوص .

نجحت خطته المفاجئة ، وأوقع الهزيمة بهم . وفى أعقاب الكارثة التى حلت بهم أخذوا يدخلون أفواجاً فى الإسلام ، ليدفعوا عنهم الأخطار . وكانت أولى قبائلهم التى اعتنقت الاسلام — قبيلة بيت تجوى (Bact Tagwè) .

ولما احتل المصريون منطقة كيرين ، أخذت قبيلة جابرى تاركيه (Gabrà Tarkè) تتحول تدريجياً إلى الدين الحنيف . ولكن بعد أن احتلت إيطاليا كيرين (١٨٨٨) شجعت الأهالى على اعتناق المسيحية ، ومع ذلك فقد ظل المسلمون على دينهم .

٧ — قبائل ماريا (Màrya)

يقدر عدد هؤلاء بـ ٢٥٫٠٠٠ ، وهم يعيشون فى شمال غرب قبائل بيلين الآنفة الذكر ،فى وادى عنسابة (Ansaka) ، وقد توطنوا فى أراضى القبائل التى تتكلم لغة التيجرى من النصف الثانى من القرن الرابع عشر . وتنقسم ماريا إلى عدة بطون . وكانت هذه القبائل مسيحية ، وما زالوا يحملون أسماء مسيحية ، وتنتشر الكنائس فى أراضيهم ، ولما اعتنق كثير من أفراد التيجرى الاسلام ، اقتدوا بهم ، ولا سيما الطبقة الحاكمة ، وكان ذلك فيما بين ١٨٢٠ ، ١٨٣٥ . وقد تأثرت بذلك — إلى حد كبير — نظمهم القبيلة وتقاليدهم .

٨ — وفى أريتريا عدة مجموعات قبلية إسلامية ، نذكر منها على سبيل المثال .

عاد سورا ، وعاد معلم . وبيت مالا . وقبائل سمهر (Samhar) . وسمهر هى المنطقة الساحلية لمصوع ، ويتفرع منها عدة بطون . وقبائل سيدرات عند الحدود السودانية . وقبائل الجزر المحاذية لساحل البحر الأحمر . فى أرخبيل دهلك : (جزر نوكرا . ونورا . ودوهول . وهارات . وكوبارى . ودركة وغيرها) والمعروف أن أهالى دهلك كانوا أول من اعتنق الإسلام

فى شرق أفريقيا فى القرن الثامن . ويؤيد ذلك ما عثر عليه من شواهد قبور المسلمين التى نقشت عليها التواريخ الإسلامية .

٩ – عفار أو الدناكل:

تحتل أراضى الدناكل منطقة فسيحة . تمتد من خط سكة الحديد – جيبوتى/ ديرداوة جنوباً إلى شبه جزيرة بورى شمالا . ومن سواحل البحر الأحمر إلى المرتفعات الشرقية للهضبة الحبشية غرباً ا وهذه المنطقة قاحلة جداً . والمعروف أن الدناكل حاميون كالصوماليين ، ذكرهم الرحالة ابن سعيد (القرن ١٣) ، وكانوا يؤلفون السكان الرعاة فى مملكة عادل الإسلامية ، ويكونون القطاع الخطير فى جيوش الامام أحمد جران . ولكن لما توفى وتفرقت جيوشه ، عاد الدناكل إلى صحاريهم القفراء . واستوطن بعضهم فى أراضى سلطنة العوسى (Ayssa) . وفى ١٨٧٤ احتل المصريون المدن الساحلية فى منطقة العوسى ولكنهم بعد أن حاولوا اختراق البلاد ردهم سلطان العوسى على أعقابهم بعد عام واحد ، فاستقروا فى مدن الساحل قرابة عشرة أيام .

وقد بلغ عدد « العفار » (Afar) فى إرتيريا فى عام ١٩٣١ حوالى عشرين ألفاً ، وفى الصومال الفرنسى ٦٣٠٠٠ ، أثيوبيا ٦٣٠٠٠ ، وهم جماعتان رئيسيتان : آسامار (الحمر) ، وآدوما (البيض) ويتفرع منهم قبائل عدة . ونلاحظ أن الذين يقطنون منهم المدن الساحلية ، يتبعون قواعد الدين الحنيف أدق ممن يعيشون فى داخل منطقتهم .

١٠ – ساهو :

تتكلم قبائل ساهو لغا قريبة من عفار ، وأكبر قبائلهم « أساؤرتا » ، وكلهم مسلمون بفضل المهاجرين العرب ، ويتبع غالبيتهم الطريقة الميرغنية منذ

القرن ١٩ . والأساورتا ينقسمون إلى خمس قبائل صغيرة . وهناك عدة قبائل من ساهو مازالت على دينها النصرانى .

١١ — سيداما :

قبل غزوات قبائل الجالا ، كان يعيش السيداما فى معظم أنحاء جنوب أثيوبيا امتدت أراضيهم نحو الشرق إلى « ويبى » ، وفى الغرب إلى وديان الصوبات وديديسا ، واحتلوا فى الشمال جزءاً كبيراً من شوا (Shon) ، وفى الشمال الغربى عبروا النيل الأزرق ، ووصلوا إلى أجاو - ميدر (Agao-Meder) ولما توسع الأحباش امتصوا عدة مجموعات من قبائل سيداما الشمالية وأقاموا المسالح فى قلب أراضيهم ، ثم جاء « الجالا » ، وامتدت غزواتهم إلى أراضى سيداما الشمالية والشمالية الغربية والشرقية أيضاً ، وامتصوهم فى قبائلهم .

وهكذا تقلصت أراضى السيداما واقتصرت على مناطق أخدود وادى النيل العظيم .

وفى أثناء جميع هذه التقلبات ، حافظ السيداما على الوثنية ، فيما عدا زعماء هاديا وبالى فقد اعتنقوا الإسلام فى القرن ١٤و١٥ ، ولكن أخذ يقل هذا التحول فيما بعد - وفى القرن ١٩ نجح الإسلام ثانية بين قبائل هاديا وآلابا وطامبارو (Tambaro). ومعظم قبائل سيداما التى تعتنق الإسلام ، تعيش فى سيداما الشرقية ، كطامبارو ، وألابا ، وجاروا (بوشه) ، وماديا ، أضف إليهم من يعيش فى المراكز التجارية .

ويطلق الهاديا على أنفسهم (جديله) وهم بقايا مملكة ، هاديا الإسلامية القديمة وفى معظم أراضى السيداما نجد الأقليات الإسلامية ، ويشتغل أفرادها فى التجارة .

وكانت سياسة الإيطاليين فى أثناء احتلالهم للحبشة : دعم الإسلام فى أثيوبيا

الجنوبية ، يدل على ذلك كثرة المساجد التى شيدت فى تلك الفترة ، وعلى سبيل المثال : مسجد داليه (Dallé) الكبير ، وفى هولا (Hula) وفى كافالنكا حيث كانت عدة مواطن إسلامية هامة . أضف إليها : المركز الإسلامى فى كاليتو . وفى آبرا (Aberrà) شيدت مدرسة لتحفيظ القرآن ، ومسجد صغير ، وفى قرية ماجى (Magi) .

١٢ — قبائل الجالا :

يطلقون على أنفسهم كلمة (أرومو أى الشعب) وهم منتشرون فى أنحاء كثيرة من أثيوبيا ، نهضوا من المنطقة التى فى جنوب نهر ويبى غازين فى خلال النصف الأول من القرن ١٦ ، على أيام فتوح الزعيم أحمد جران ، وانتشروا على جبهة واسعة (على شكل مروحة) مخترقين بعمق داخل المرتفعات الأثيوبية . وظلوا مدة طويلة مصدر تهديد مروع ضد الدولة الأثيوبية ، حتى تم للأمبراطور منيليك الثانى أن يخضعهم لسيادته بين ١٨٧٢ و ١٨٨٨ .

لما بدءوا فى توسعهم المذكور كانوا رعاة رحلا ، يتمتعون بنظام سياسى خاص . ولكن فى أعقاب جولاتهم القبلية وتوطنهم فى بيئات مختلفة ، طرأ على كثير من مجموعاتهم تغيير عميق .

وفى أثناء هذا التوسع الآنف الذكر اتصلوا بالإسلام ثم بالنصرانية الأثيوبية . وكان اعتناقهم هذا الدين ، أو ذاك بطيئاً وتدريجاً ، يجرى حسب المناطق أو القبائل. وقد كانوا على حذر شديد فى أثناء احتكاكهم بالقبائل التى اعتنقت الإسلام منذ زمن طويل (كالبجا، والساهو ، والعفار ، والصومال)

ويلاحظ أن أفراد الجالا الذين يعيشون فى الجنوب الشرقى من منطقة هرر اعتنقوا الإسلام فى القرن ١٩ . ومع ذلك فلا ينبغى أن تتجاهل مكانة منطقة هرر الإسلامية منذ زمن بعيد فى نشر الدعوة قبل القرن المذكور .

وقرابة نصف عدد سكان مديرية هرر ، إن لم يكن أكثر من ذلك ، هم من الجالا المسلمين ، وهم يتبعون البارنتو (ثانية أكبر مجموعات الجالا)

والعروسى من أكبر مجموعات الجالا أيضاً وهم يعيشون فى المنطقة الواسعة ، شمال سيدامو وبورانا ، وجنوب سهل كارايو الفسيح ، الذى يرويه نهر الجاش بين سيداما فى الغرب ووادى رميس فى الشرق[1].

المذاهب فى إثيوبيا

تنتشر الشافعية والحنفية والمالكية فى أنحاء أثيوبيا (بما فى ذلك أرتيريا)، والشافعية أكثر المذاهب انتشاراً (ولا سيما بين الجالا وأهل الصومال) ، وأقلها انتشاراً فى أريتريا حيث يسود المذهب الحنفى الذى عمل على نشره المصريون فى أثناء احتلالهم البلاد فى أواخر القرن التاسع عشر . وفى أريتريا قليل من أتباع مذهب الأباضية ، وكذلك الزيدية بين مهاجرى المذهب الشافعى .

- منطقة عفار من إقليم عصب بين الدناكل - قبائل رهينة واد وبيلول
- مهاجروا اليمن والصومال فى أريتريا وبعض المغارة ومنطقة جبرته
- قبائل الشمالية (والو - باجو - رايا) .
- مدينة هرر وقبائل الجالا المحيطة بها :
- قبائل الجالا الذين يعيشون فى الجنوب الغربى من أثيوبيا ، وقبائل العروسى .
- قبائل جوراجيه ، قبائل سيدامه بنوع نقول .

---

(١) Trimingham. J. S, : lalam in Ethiopia. Oxford Ptess, 1952.

المذهب الحنفى :

مصوع أريكو ، موتكولو ، أبلات ، وبعض المدن الساحية ، جزر دهلك العرب المهاجرون من الحجاز ، الهنود المسلمون ، قبائل ساهو ، بعض أفراد قبائل الحباب ، بعض أهالى هرر .

المذهب المالكى :

بنو عامر ، بعض قبائل الحباب بأريا وكوتامه المهاجرون من السودان الشرقى والغربى .

الطرق الصوفية

كانت الطريقة القادرية أولى الطرق الصوفية التى عرفت فى شرق أفريقيا ، بفضل المهاجرين اليمنيين والحضارمة ، وكان من أهم مراكزها ، مصوع وزيلع ومقديشو ويقال إن الشريف أبا بكر بن عبد الله العيدروسى (مات بعدن عام ١٥٠٣) أدخل هذه الطريقة إلى هرر ، ومنذ ذلك الحين أصبحت أكثر الطرق انتشاراً فى إقليم هرر .

ولا يعرف شىء عن أية طريقة أخرى دخلت إلى أتيوبيا حتى القرن التاسع عشر . وكانت أولى الطرق التى جاءت إلى شرق أفريقيا هى السنوسية (بفضل محمد ابن على السنوسى . أهم أتباع السيد أحمد بن إدريس الفاسى منشىء الطريقة) ثم تسربت إلى الصومال ومنها اتجهت إلى قبائل الجالا فى منطقة العروسى .

وكان السيد أحمد بن إدريس قد أوفد تلميذه السيد محمد عثمان الميرغنى (١٧٩٣ — ١٨٥٢) للسودان المصرى فى بداية القرن ١٩ . داعيا لطريقة بنى عامر فى أريتريا . وبعد وفاة أستاذه عمل على نشر طريقته (المنبثقة عن

السنوسية) . وقد عرف أتباعها بالميرغنية أو الختمية . ويرجع الفضل إلى ابنه الحسن (ت ١٨٦٩) فى نشرها . وقد جعل من كسلا أهم مراكز الختمية فى شرق أفريقيا .

وأدخلت الطريقة السمانية بين سكان جبرت هضبة أريتريا بفضل الشيخ المغربى آدم الكنانى . وضريحه اليوم فى عبى عدى . وقام بنشرها شيخ آخر بين قبائل الجالا فى جيمة أبا جفار وليمو أناريه .

والطريقة التيجانية أكثر الطرق كلها نفوذاً بين الجالا فى جيمة أباجفار وجومه ولها أتباع بين بنى شنقول وفى جوبه .

وللشاذلية عدة زوايا فى مصرع وأسمره وتعرف الطريقة الحدادية بين أفراد قلائل فى أريتريا .

المساجد فى إثيوبيا وإريتريا

فى أثناء الاحتلال الإيطالى لأثيوبيا (١٩٣٦ — ١٩٤١) اعترف بحقوق المسلمين رسمياً وعنيت الحكومة ببناء المساجد حيث وجد المسلمون ففى مصوع مثلا وبعض المدن الساحلية التى اعتنق أهلها الإسلام منذ زمن بعيد أعيد بناء المساجد القديمة وكان الخراب قد لحق بمعظمها ، وشيد المسجد الكبير فى أديس أبابا وأصلحت مساجد سوكونا وشيلجا وذباريك واسلامجة ودنجيله وشيدت أخرى فى حيث ودسيه ومتحه وغوندار . أما فى جنوب البلاد فقد شيدت المساجد فى هرر وديرى داوه وجحيحا وميسو واسبا ليتوريو وجيه وكذلك فى مناطق قبائل الجالا وسيدامه وعين القضاة المسلمون للنظر فى أحوال المسلمين الشرعية وعلاوة على هذا فقد اهتمت الحكومة بتدريس اللغة العربية فى جميع مدارس المسلمين ، واستخدمت فى الأوامر والقوانين الحكومية فى مناطق وجمة وهرر . وفى جمة ، وهى مركز إسلامى هام ، أسست دار العلوم الإسلامية لتدريس الفقه .

ومن أكبر المساجد مسجد أسمرة ومسجد مصوع (افتتح عام ١٩٥٣) وفى الأول توجد المدرسة الإسلامية الابتدائية التى أنشأها الحاج محمد عبيد باحبيشى (١٩٤٢) وهو من التجار الحضارمة ، وهناك مؤسسة صالح باشا كخيا بهرفيقو إحدى ضواحى مصوع ، وتضم خمس مدارس هى : المعهد الدينى ، والمدرسة الأولية ، والوسطى ، ومدرسة البنات ، والمدرسة الفنية الصناعية ، وبها أيضاً معهد مصوع الدينى الذى أسسه الحاج أحمد عبد الرحمن هلال

الإسلام فى إريتريا

اتحدت أريتريا مع أثيوبيا فى السنوات الأخيرة ، فأصبحت إحدى ولاياتها الإسلامية الكبرى ، وتقع على ساحل البحر الأحمر ، ويحدها غرباً السودان وتقدر مساحتها ١٢٥٢٥٨ كم٢ وفيها جالية إيطالية كبيرة . عاصمتها أسمرة ، ويبلغ عدد سكانها ١٢٥٠٠٠ ، وميناؤها مصوع ، ومن ثغورها عصب وكيرين

وأريتريا مقسمة إلى ثمانى مقاطعات : حماسين ، وسيرايا ، وأشيلى جوزاى مصوع ، وكيرين ، وجاسور ، وستيت ، وعصب .

ويرجع الفضل فى انتشار الإسلام فى أريتريا فى أثناء القرن الثانى عشر إلى حكام جزر دهلك التى تواجه ساحلها ، وفى خلال القرن السادس عشر تسرب الإسلام بواسطة زعماء الساحل الصومالى وبمعاونة الأتراك فى أثناء الجهاد الكبير الذى تزعمه الإمام أحمد جران وخلفاؤه ، وازداد نشاط المسلمين فى القرن ١٩ بمعاونة المصريين الذين كانوا يعملون بالسودان ، وبعد استيلائهم على مصوع والمنطقة الساحلية من أريتريا منذ ١٨٦٦ حتى ١٨٨٤ .

وقد كان لقبائل البجة المسلمين وبطونها البشارين والهدندوة وغيرهم الفضل فى نشر الإسلام ، منذ كان العرب يعملون فى المناجم المتناثرة فى

شرق السودان ، ولا سيما من جهات النوبة منذ اعتنق أهلها الإسلام فى منتصف القرن ١٦ .

وتنتشر القبائل المسلمة من غرب أريتريا إلى شرقها بالترتيب التالى :

١٥٠٠٠٠ من قبائل أوبيليت وبنى عامر (من قبائل البجة)
٦٥٠٠٠ من قبائل مارياوبيت تأكيل وبيت أبرها وبيت شهاجين .
١٥٠٠٠ من قبائل بيجو وبيت ويوغوص ومنسا (أسلموا فيما بين ١٨٣٠ — ١٨٥٠)
٢٥٠٠ قبائل باريا وكنامة .
١٦٠٠٠ قبائل ساهو أو عز محمد .
١٢٠٠٠ قبائل دناكلة (عفار) وقد أسلموا منذ القرن ١٣ .

وفى الوسط يعيش حوالى ١١٥٠٠٠ من الأحباش المسيحيين اليعاقبة ، وقد أحرز مسلمو أريتريا نصيباً كبيراً فى التعليم الدينى بواسطة طلابهم الذين تلقوا علوم الدين فى الأزهر أو فى المعهد الدينى بأم درمان .

وتنتشر الطرق الصوفية فى أريتريا ، وأهمها التيجانية والقادرية والسمانية والخلوتية والمرغنية والشاذلية .

الفصل الخامس عشر

الإسلام فى صوماليا (*)

كان انتشار الإسلام فى صوماليا ذا طابع سلمى بفضل المهاجرين من جنوب شبه الجزيرة العربية ، من تجار أو دعاة أو هاربين من أعدائهم السياسيين ، وكان هؤلاء المهاجرون يختلطون بأهالى الصومال ويتزوجون منهم وينشرون الإسلام بينهم ، ولا يخفى أن الصلات بين الصومال وبين شبه الجزيرة العربية قديمة ترجع إلى ماقبل ظهور الإسلام بعدة قرون .

وعند ماترعرع الإسلام أخذ نشاط العرب يتزايد على ساحل الصومال المقابل ولجأ كثير من المسلمين إليه ، حيث أسسوا المراكز التجارية فى زيلع وبربرة ومقديشو وبراوة . وقد ذكر ابن حوقل الجغرافى العربى (القرن ١٠م) أن أهالى زيلع كانوا مسيحيين فى النصف الثانى من القرن الثامن ، ويرجع ذلك إلى أنهم كانوا تحت سيطرة الأحباش ، ثم تحول أهلها إلى الإسلام تدريجيا ، حتى إذا ماوصلنا إلى القرن الثانى عشر وجدنا المسلمين قد ألفوا مايشبه رابطة إسلامية قوية ضمت أمراء أفات وهادية ودوارو (إمارات الطراز الإسلامى) .

ويقال إنه فى القرن الخامس عشر جاءت من حضرموت جماعة مؤلفة من أربعة وأربعين عربياً ، نزلوا فى بربرة ، وانتشروا فى بلاد الصومال يدعون للإسلام ، وقد شق أحد هؤلاء - وهو الشيخ إبراهيم أبو زرباى - طريقه إلى هرر حوالى عام ١٤٣٠ ، واستطاع أن يحول كثيراً من الأهالى إلى الإسلام ، ولا يزال قبر هذا الشيخ موضع تبجيل فى تلك المدينة[1] .

(*) راجع الفصل الثالث عشر عند مطالعة هذا الفصل للربط بينهما

(١) حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام والعروبة ، ص ١٣٣ - ١٣٤

وازدهرت زيلع فى القرن السادس عشر حينما أصبحت دولة عدل إسلامية تناوئها الحبشة ، ودخلت معها فى نضال مرير ، وتمكن أميرها أحمد بن إبراهيم الغازى الذى عرف بالإمام أحمد جران ، بمساعدة أتباعه الصوماليين المتحمسين وبمعاونة القوات العثمانية ، من غزو أجزاء كبيرة من الحبشة ، واستمر فى غزوها بين عامى ١٥٢٩ و ١٥٤٣ ، حتى تحالف البرتغاليون مع الأحباش وفاجأوا أحمد جران وهزموه ، ثم قتل وقضى على حركته ، واسترد النجاشى المناطق التى غزاها الصوماليون(١) .

وفى الصومال اليوم جاليات عربية تستوطن المراكز التجارية ، وغالبيتهم من اليمن وحضرموت ، هاجروا إلى الصومال فى أثناء عدة قرون . كما يوجد بها جالية هندية وباكستانية تعيش فى مقديشو وقسمايو ، وغالبيتهم من المسلمين وجالية إيطالية تعيش فى المدن . كما أن هناك عنصراً مولداً نتج عن زواج الإيطاليين بالصوماليات ، ويطلق الصوماليون على هؤلاء « كافيلاطا » أى قهوة باللبن ، من باب التفكه ، كما أن هناك عدداً من الصوماليين يعيشون خارج الوطن الصومالى ، على الساحل الجنوبى لبلاد العرب ، وساحل الخليج العربى ، وفى موانى الهند ، وفى بعض الموانى الأوروبية مثل مارسيليا وليفربول وكارديف .

وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وفى أثناء التوسع المصرى دخلت جيوشها المقاطعة الإسلامية الكبرى الغنية (١٨٧٥ م) ، ومنذ ذلك الحين عملت مصر على تحسين أحوال تلك البلاد ، فأنشأت بالقرب من بربرة منارة تهدى السفن ، ومراسى وأرصفة من الحجر ، وشيدت بها الدور المنتظمة والطرق ، وبستاناً ، ومسجداً ، وأقامت مستشفى وصيدلية ، وأمدت المستشفى بالأطباء والممرضين ، كما أنها أنشأت المخابز والطواحين .

---

(١) راجع ماذكرناه عن الإمام أحمد جران فى فصل « الإسلام فى أثيوبيا »

وفى أعقاب ذلك أسهمت مصر فى نشر الإسلام ، فأرسلت بعض العلماء من الأزهريين لتعليم الصوماليين المبادىء الإسلامية الصحيحة ، وأدخل المصريون تحسينات كثيرة فى زيلع وبلهار وتاجورة ، وانتشعت التجارة فيها وعلى ذكر تاجورة التى تقع اليوم فى الصومال الفرنسى ، نذكر أنه يوجد بها ثمانية مساجد ومدرستان لتحفيظ القرآن ، كما يوجد فى جيبوتى وهى عاصمة الصومال الفرنسى المسجد الكبير ومسجد النور (١٩٠٥ م) ومسجد سيدى حسن ، ومقام لعبد القادر الجيلانى .

وفى عام ١٨٨٤ أجبرت بريطانيا حكومة مصر عقب الثورة العرابية ، على مغادرة ممتلكاتها فى شرق أفريقيا . وضمت الصومال إليها ، ثم تسللت قواتها إلى داخل البلاد وبدأت تخضعها تدريجاً ، وكان أحد زعماء الصوماليين - وهو محمد بن عبدالله حسن - قد بدأ يثير المتاعب فى وجه المستعمرين ، وأعلن الجهاد ضدهم وضد الحبشة ، متخذاً فى ذلك أساليب المهدى ومن جاء بعده فى السودان ، وقد جمع هذا الزعيم قوات كبيرة لمحاربة الإنجليز ، ولم ينضم إلى دعوته فى بادىء الأمر الكثيرون ، ولكنه ظل يدعو لمبادئه ، ودعا قومه إلى الوحدة لطرد الإنجليز ، ومن هنا لقيت دعوته آذاناً صاغية .

عمت الفوضى فى الصومال ، ولم يقو الإنجليز إلا على السيطرة على السواحل ، ولم ييأسوا ، وأخذوا فى توجيه الحملات الحربية لقمع حركة ابن عبدالله ، حتى عام ١٩٢١ حين توفى ، وانتهت حركته بعد أن كلف الإنجليز خسائر فادحة .

فى الصومال الجنوبى

تتصل أحداث الإسلام فى الصومال الجنوبى بتلك الأحداث المتعلقة بشرق أفريقية عامة .

حدث أول استيطان عربى فى صدر الإسلام على الساحل الشرقى الأفريقى فى القرن السابع وذلك فى أثناء حكم الخليفة عبد الملك بن مروان الأموى (٦٨٥ - ٧٠٥ م) ، فقد قام شعب عمان فى أقصى جنوب شرق شبه الجزيرة العربية — تحت زعامة سليمان وسعيد — بثورة فى وجه الخليفة ، وقد نجح الثائرون فى بادىء الأمر ، ثم تغلبت عليهم قوات الخليفة فى عمان ، واضطر سعيد وسليمان إلى الفرار للخلاص بحياة رجالهم ، تاركين موطنهم ، وهاموا فى جموع من أسراتهم موالين شطر الساحل الشرقى الأفريقى ، ولا يعلم بالدقة أين نزلوا على البر ، ويحتمل أن يكونوا قد نزلوا فى باتا .

وفى بداية القرن الثامن الميلادى فرت جماعة ثانية من مهاجرى العرب ، على أثر نشوب نضال بين الشيعة ، وانقسموا إلى طائفتين متخاصمتين . وقد كان على رأس الطائفة الأولى « زيد » أكبر أحفاد سيدنا على بن أبى طالب ؛ وأطلق على هذه الجماعة أهل زيد (الزيدية) ، وقد هزم رجال الخليفة هذه الجماعة فى عام ٧٣٩ م وقتل زيد واضطر أتباعه إلى الفرار ، وجاء بعضهم إلى شرق أفريقيا حيث استقروا عند ساحل بنادر ، وفى خلال مائتى سنة استطاع الزيديون السيطرة على ساحل بنادر حتى جاء إليهم طوائف من ولاية الأحساء (شرق الجزيرة العربية) وكان على رأسهم سبعة أخوة جاءوا فى ثلاث سفن ، ونزلوا عند شاطىء بنادر حيث شيدوا مدينتى مقديشو وبراوة . ورفض الزيديون الاعتراف بسيادة هؤلاء ، وفضلوا الارتداد إلى قلب البلاد واختلطوا بالأهالى .

وتتابعت هجرات المسلمين إلى ساحل شرق أفريقيا ، ولعل من أهمها هجرة

الحسن بن علي وأبنائه الستة ، وهم شيرازيون من الشيعة ، قدموا على رأس جماعة من أتباعه فى أسطول مؤلف من سبع سفن ، ونزلوا فى عدة أماكن ، فى منباسة وبمبا وكلوة وجوهانا ، وتجنبوا ساحل البنادر لوجود جماعة الأحساء السنية المذهب . وعلى مر الأيام استوطن العرب إقليم سفالة فى جنوب موزمبيق .

ويظهر أن جماعة الأحساء هى التى نشرت الإسلام على ساحل الصومال الجنوبى بدليل أن المذهب السائد فى تلك المنطقة إلى اليوم هو المذهب السنى .

وقد وصل إلينا كثير من المعلومات عن تلك المنطقة الساحلية بفضل ما كتبه عنها الرحالة والجغرافيون العرب، ومنهم المسعودى، والإدريسى ، وابن بطوطة الرحالة العربى المشهور ؛ الذى أمدنا بوصف عدد كثير من المدن الأفريقية وأحوال سكانها المسلمين ؛ ولا سيما مقديشو .

فقال عن زيلع التى زارها قرابة عام ١٣٣٢ :

« يسكنها طائفة من السودان شافعية المذهب ، لهم أغنام مشهورة السمن وأهل زيلع سود الألوان ، وأكثرهم رافضة ، وهى مدينة كبيرة لها سوق عظيمة ، إلا أنها أقذر مدينة فى الوجود وأوحشها وأكثرها نتناً . وسبب نتنها كثرة سمكها ودماء الإبل التى ينحرونها فى الأزقة . ولما وصلنا إليها اخترنا المبيت بالبحر على شدة هوله ، ولم نبت بها لقذرها . ثم سافرنا منها فى البحر خمس عشرة ليلة حتى وصلنا مقدشوه ، إلى أن ينتهى هذا الوصف القصير لزيلع .

وزيلع - اليوم - ثغر ضئيل الأهمية لا يزيد عدد سكانه على ثمانية آلاف إذا أضفنا إليه سكان جزيرة سعد الدين المواجهة له .

أقلع ابن بطوطة إلى مقديشو (مقعد الشيخ) ، وقد بناها العرب فى القرن العاشر على أكمة بحرية لغرض الدفاع بعد وصولهم من الأحساء على الخليج

العربى ، وقد ذكرها ياقوت فى معجمه الجغرافى (القرن الثالث عشر) ، وعنى بوصفها ابن بطوطة ، فقد استقر بها أسبوعاً ، وأتيح له فى خلال تلك الأيام أن يتصل بقاضيها وعلمائها وسلطانها الشيخ أبو بكر بن الشيخ عمر الذى استضافه مدة إقامته . وقد أمدنا الرحالة المغربى بوصف طعام أهلها وفاكهتها وملابس شعبها وتقاليد سلطانها حينما يقابل القاضى والوزراء والفقهاء والشرفاء والأمراء والمشايخ . وموجز القول أن مقديشو كانت مدينة إسلامية عربية تنقسم إلى قسمين : أحدهما يعيش فيه الشانجنية ، وفى الآخر الحروية ، وكان لهؤلاء الكلمة العليا . وكان لآل المظفر حكم المدينة منذ القرن الثالث عشر . وقد ازدهرت مقديشو فى القرن الرابع عشر ، واستمرت السيادة لهم حتى القرن السادس عشر ، حينما انحطت منزلتها كمركز تجارى ، وانتشرت التجارة بين عدة مدن ساحلية أخرى منافسة لمقديشو ، وقد تعرضت هذه لاعتداءات قبائل « هادية » (التى اخترقت الصومال نحو الجنوب) ، وفى منتصف القرن الثامن عشر أصبح للصوماليين اليد العليا فى مقديشو وما يحيط بها ، ونصبوا إماماً منهم حاكماً على المدينة .

وينبغى علينا أن نذكر حقيقة هامة ، وهى أن مقديشو فى الجنوب وزيلع فى الشمالى الصومالى ، كانتا أهم منفذ للعرب والإسلام فى اختراق الصومال ، وتسربهم عبر مناطق القبائل من الشرق والجنوب إلى الحبشة .

وفى أخريات القرن الخامس عشر ظهر شبح الاستعمار البرتغالى فى مياه المحيط الهندى على أثر الاكتشافات البحرية الكبرى ، فبدأت فترة من الصراع العنيف بين البرتغاليين وبين أهالى المدن الإسلامية الساحلية — فقد هاجم هؤلاء كلوا ، ومنباسا ، وزنجبار ، وغيرها . وبدءوا أعمال القرصنة ضد مقديشو ، وبراوة ، وزيلع ، وبربره فى الصومال الشمالى ، فقد ضرب فاسكو دى جاما مقديشو ، بالمدافع فى أثناء عودته من الهند عام ١٤٩٨ ، ثم استولى « دى كنها والبوكرك » على براوة عام ١٥٠٧ ، ثم حاولا الاستيلاء على مقديشو ،

ولكنهما فشلا ، وغزا « لوبىسوارز » زيلع وأضرم النار فيها عام ١٥١٥ ، كما حاصر « صلدانها » بربرة ونهبها عام ١٥١٦ . وهكذا نرى البرتغاليين يشنون حروباً صليبية ضد المسلمين فى شرقى أفريقيا والصومال . ومن المدهش حقاً أنه كان من نتائج تلك الحملة الوحشية أن انتشر الإسلام ، ذلك لأن السكان المسلمين تركوا الساحل أمام نيران المعتدين ، ولجأوا إلى الداخل حيث اختلطوا بالقبائل الصومالية ونشروا الإسلام بينها .

وفيما بين ١٨٧٢ و١٨٧٦ احتلت مصر قسما كبيراً من الصومال الجنوبى ، وتم لها فى تلك الفترة القصيرة أن تقيم العدل بين الأهالى ، ونهض المهندسون العسكريون بمسح الأراضى المجاورة للساحل التى يكتنفها نهر جوبا ، ولكن الاستعمار الأوروبى وقف أمام جهود مصر ، وانتهز فرصة الأيام الصعبة التى مرت بها فى أخريات القرن التاسع عشر ، وأجبرها على الانسحاب من تلك البلاد .

الطرق الصوفية

أسهمت الطرق الصوفية فى إنشاء عدة مراكز إسلامية عنى فيها بتدريس أصول الدين للمسلمين ، ولها إلى اليوم مكانة مبجلة عند الصوماليين ، ومن أهم تلك الطرق ، الطريقة القادرية التى تنسب إلى مؤسسها عبد القادر الجيلانى (١٠٧٧ - ١١٦٦م) ، وهى أقدم الطرق الصوفية التى دخلت الصومال بفضل اليمنيين والحضارمة الذين استقروا فى مقديشو وزيلع وغيرهما . واستطاعت القادرية أن تتوغل إلى داخل البلاد حوالى عام ١٨١٩ عندما أسس الشيخ ابراهيم حسن جبرو مركزاً لها مكان بلدة برديرة الحالية ، ثم نشر الشيخ عثيس بن محمد البراوى هذه الطريقة فى جوبا العليا ، وبنى مسجداً وزاوية فى قرية « توججلة » (عام ١٩٠٩) ، وفى ذكرى مولده يقام احتفال كبير حول ضريحه فى بيولى بالقرب من توججلة .

والطريقة الأحمدية : أسسها سيدى أحمد بن إدريس الفاسى المتوفى فى عسيس (١٧٦٠ — ١٨٣٧) ، وقد أدخلها إلى شرق أفريقية الشيخ «على ميه درجبا » الصومالى ، وعمل على نشرها ، وقد التف حوله عدد كبير من المريدين ، وخاصة من سكان وادى شبيلى الأوسط ، وقد توفى فى معركة سنة ١٩١٧ .

والطريقة الصالحية : تنتسب إلى محمد بن صالح المتوفى سنة ١٩١٩ ، وهى فرع من الأحمدية ، وعمل على نشرها ، وبعد وفاته استمر فى الدعوة لها الشيخ محمد جوليد الصومالى أحد تلاميذه ، وكان محمد عينه « خليفة » للطريقة فى الصومال ، فأسس زاويه ومركزاً لها فى منطقة الشدلة من بلدتى جزهر وبلق على نهر شبلى ، وكان من أهم أتباعها الزعيم محمد بن عبدالله حسن الذى عرف بالمهدى الصومالى وعرف بنضاله ضد البريطانيين فى الصومال الشمالى . وتنتشر هذه الطريقه فى منطقة أوجادين التى يعيش فيها غالبية من أهالى الصومال وفى بعض المناطق فى جنوب الصومال .

والطريقة الرفاعية ولها أتباع قليلون من أهالى الصومال . ويتبع الصوماليون المذهب الشافعى . وفى مقديشو خمسة مساجد على الأقل .

وفى مقديشوا مسجدان قديمان : مسجد فخر الدين ومسجد أربع الركن. وللمسجد الأول « قبلة » تحتوى على لوحة رخامية تحيط بها كتابه باسم الحاج ابن محمد بن عبد الله (ربما اسم الصانع الذى صنعها) ، وتاريخ الصنع وهو نهاية شعبان ٦٦٧هـ (٢٧ أبريل — ٦ مايو ١٢٩٦) وينسب بناء المسجد إلى أول سلاطين مقديشو أبو بكر بن فخر الدين . وتطل واجهة المسجد الرئيسية على الشرق ، وله ثلاثة أبواب وبمقربة من هذا المسجد يقوم مسجد أربع الركن ، وقد نقش على قبلته كتابة باسم منشئه « خسرو بن محمد الشيرازى » والتاريخ الهجرى ٦٦٧ هـ (١٢٦٨/٦٩) . وهناك مساجد أخرى أحدث عهداً ، بالإضافة إلى المساجد الحديثة .

وأقدم الآثار اليوم فى مقديشو منارة الجامع الكبير الإسطوانية الشكل وكان قد شيد فى أول المحرم عام ٦٣٦ هـ (١٤ أغسطس ١٢٣٨) ويؤيد هذا الكتابة التاريخية المنقوشة بخط النسخ والمثبتة على أحد أبواب الجامع القديم الذى اندثر وشيد مكانه المسجد الحالى .

مساجد أخرى فى الشمال :

يقدر عدد المساجد فى بربرة (عاصمة الشمال) قرابة خمسة وثلاثين مسجداً من أكبرها مسجد الذندراوية . وفى هرجيسه مسجدان تقام الجمعة فى أحدهما ويبلغ عدد مساجد شمال الصومال (كان يعرف بالصومال البريطانى) ستين مسجداً ، وهى وإن كانت أقل كثيراً من مساجد الصومال الشرقى إلا أنها خير منها بناء ونظافة . وهناك مساجد أخرى غير هذه من الأكواخ والعشش .

إقليم عفار (الصومال الفرنسى سابقاً) :

يوجد فى عاصمته جيبوتى سبعة مساجد ، تقام الجمعة فى ثلاثة منها وهى :

١ – مسجد سيدى حسن .

٢ – مسجد الحمودى .

٣ – مسجد الحاج ديدى .

وبها اثنا عشر كتاباً لتعليم قراءة القرآن وكتابته وتحفيظه .

الفصل السادس عشر

الإسلام فى ساحل شرق أفريقيا

نشأت الصلات بين شبه الجزيرة العربية وشرق أفريقيا منذ قبل الإسلام ، وقام معظم تلك العلاقات على تبادل التجارة ، وقد جاء المسلمون إلى الحبشة لما اشتد إيذاء قبيلة قريش للرسول فى مكة ، واعتداؤها على المسلمين ، فاضطرت جماعة منهم إلى الهجرة إلى بلاد الحبشة ، والاستقرار فيها بعد مالقوه من حسن استقبال النجاشى وامتناعه عن ردهم إلى قريش . ومع ذلك فإن الإسلام لم يستوطن بلاد الحبشة إلا بعد مرور زمن طويل .

وعند مانشب الخلاف بين سادة العرب حول منصب الخلافة ، ولاسيما عقب مقتل عثمان بن عفان ، انقسم المسلمون إلى شيع فى أثناء خلافة على ابن ابى طالب ونشبت المعارك بين الأحزاب المختلفة ، كل منهم ينتصر لمبدئه . ولما كان النضال مريراً ، فقد لجأ بعض المتشيعين إلى الفرار والهجرة من مواطنهم العربية إلى شرق أفريقيا ، وكان المهاجرون من العرب والفرس على السواء . ولما وصلوا إلى الساحل الأفريقى شيدوا محلات ومستوطنات صغيرة ، وأصبحوا بعيدين عن انتقام أعدائهم ، وكان هؤلاء القادمون يعلمون ثروة الموطن الجديد ، ولاسيما فى العاج والذهب والرقيق .

تتابعت الهجرات التى وصلت إلينا بعض أنبائها وأحوال نشاطها . وقد استطاع العلماء ، بوساطة القصص المحلية ، ومن آثار المدن القديمة المبعثرة على الشاطىء ، الاهتداء بمعالم الحضارة العربية الفارسية التى ازدهرت هناك . وقدكان لما دونه الرحالة العرب فيما بعد أهمية كبيرة

فى معرفة أحوال المجتمع العربى فى ساحل شرق أفريقيا وفى أثناء العصور الوسطى .

ومن أهم تلك الهجرات الأسيوية العربية :

١ — هجرة سليمان وسعيد (بين عامى ٧٠٠ و ٧٠٤)

سبقتها هجرة لم تصلنا أنباء مفصلة عنها . وكانت هذه الهجرة الثانية ، وتعتبر أول استيطان عربى وصلنا عنه بعض المعلومات فى القرن السابع / الثامن فى أثناء حكم الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٨٥ - ٧٠٥) ، فقد قام شعب عمان - وموطنه الأصل عند الشاطىء الغربى لخليج العرب - بقيادة زعيمين هما سليمان وسعيد بن عياد وقبيلتهم ، بثورة فى وجه الخليفة ، وقد نجح الثوار فى بادىء الأمر ، ثم تغلبت عليهم قوات الخليفة فى عمان ، واضطر سعيد وسليمان إلى الفرار للخلاص بحياة رجالهم ، تاركين موطنهم ، هائمين فى جموع من أسرهم وقبائلهم ، مولين شطر الساحل الأفريقى ، ولا يعلم بالدقة أين نزلوا على البر ، ويحتمل أن يكونوا نزلوا فى بانا (١) فى أرخبيل لامو عند الطرف الجنوبى للصومال الشرقى .

٢ — هجرة الزيديين (حوالى ٧٥٥ - ٧٦٠) :

فرت الجماعة الثانية من مهاجرى العرب على أثر نشوب نضال بين الشيعة ؛ وكان ذلك فى بداية القرن الثامن عند ما انشق الشيعة إلى طائفتين متخاصمتين ؛ وكان على رأس الطائفة الأولى زيد أكبر أحفاد سيدنا على زوج بنت الرسول ؛ وأطلق على هذه الجماعة أهل زيد . وقد هزم رجال الخليفة هذه الجماعة فى عام ٧٣٩ م وقتل زيد واضطر أتباعه إلى الفرار ؛ وجاء بعضهم

(١) تذكر بعض المراجع أنهم نزلوا فى موقع مدينة حدابو التى أسسوها شمال مدينة منيسة .

إلى شرق أفريقيا حيث استقروا عند ساحل بنادر (الصومال الشرقى) بالقرب من موقع مقديشو .

٣ — هجرة الأخوة السبعة من الأحساء (بعد ٩٠٣ - ٩٠٤ بقليل)

وفى خلال مائتى سنة استطاع أتباع زيد السيطرة على ساحل بنادر حتى وفدت إليهم طوائف من ولاية الأحساء « شرق الجزيرة العربية » ، وكان على رأسهم سبعة أخوة ، جاءوا فى ثلاث سفن ونزلوا عند شاطىء بنادر ، حيث شيدوا مدينتى مقديشو وبروة ورفض رجال زيد الاعتراف بسيادة هؤلاء وفضلوا الانسحاب إلى قلب البلاد واختلطوا بالأهالى .

٤ — هجرة حسن بن على وأبنائه الستة (حوالى ٩٧٥) :

قدم حسن بن على إلى الساحل بصحبة أبنائه وعدد كبير من أتباعه ، ويقال إن حسناً كان ابن سلطان شيراز (فى فارس) أو أنه كان السلطان نفسه ، ولا تعرف الأسباب الحقيقية التى أدت بهم إلى مغادرة شيراز فى عام ٩٧٥ م ، فقد وصلوا فى سبع سفن ونزلوا فى عدة أماكن على الشاطىء الشرقى ، واحدة منها فى ممباسا وثانية فى بمبا ، وثالثة فى كلوة ، « وهى التى كان عليها حسن » ، ورابعة فى جوهانا .

وعلى أثر وصول تلك الجماعات بدأ الأهالى من الأفريقيين الأصليين يدخلون تدريجياً فى الإسلام ، والمعروف أن هؤلاء يتبعون الآن المذهب الشافعى ، وهم « سنيون » . ولما كان حسن بن على ومن صحبه شيعيين من ذوى السيطرة والنفوذ فإنه لا يعرف متى تحول غالبية السكان من شيعيين إلى سنيين [1] .

---

(١) بدأ محمد بن الشافعى صاحب المذهب المعروف باسمه يدعو لمذهبه حول عام ٨١٣ م ويذهب بعض المؤرخين إلى أن ذلك التوغل حدث فى أوائل القرن العاشر على يد جماعة من مسلمى الأحساء الشافعيين .

واستوطن العرب إقليم سفالة جنوب موزمبيق بين عامى ٥١٠ و١٢٢٠م، وانتشر هؤلاء فى جزيرة مدغشقر ، ولا سيما فى الشمال الشرقى والجنوب الغربى وتكون من الأفريقيين والعرب والملايو سكان مدغشقر الجنس الملجاشى .

وعلى مر الأيام أوغل عرب الشاطىء الأفريقى فى أنحاء المناطق الأفريقية المحاذية للساحل ، وشقوا سبيلهم شمالا إلى بلاد الحبشة ، وإلى أوغندا، وتنجانيقا وإلى نياسالند ، وبل ربما أيضاً إلى أقصى القارة جنوباً . ومن المدن التى شيدها العرب على الساحل الشرقى واتخذوا منها مرافىء للسفن ، سفالة ، وكلوه ، وزنجبار ، ومنبسة ، ومالندة [١] .

وفى المدن التى توسطت وصول حسن بن على (٩٧٥ م) ومجىء البرتغاليين (١٤٩٧) ، وهى حوالى خمسمائة عام ، نهضت دويلات الزنج أو زنجبار (كلمة بارهنا معناها أرض) [٢] . وقد قامت فى أثناء تلك الحقبة عدة دويلات من أصل عربى أو فارسى ، ونشأت أيضاً عدة سلطنات على الشاطىء الشرقى ، وكان لدولة كلوه الشيرازية السيادة على معظم الدويلات الساحلية الأخرى ، ولذلك أطلق المؤرخون كلمة إمبراطورية على دويلات الزنج ، وترى فى ذلك المصطلح السياسى شيئاً من المبالغة .

وفى خلال تلك المدة ازدهرت تجارج العاج والرقيق والذهب بين الشاطىء الأفريقى وآسيا ، ونمت ثروة المراكز التجارية عما كانت عليه من قبل .

(١) كان إقليم سفالة يمتد على الساحل الأفريقى فيما يلى مصب نهر زمبيز جنوبا ؛ وقد اختلف فى أصل هذا الاسم ، وكتبه ابن ماجد الملاح العربى ؛ أرض السفال . أما ممباسة فقد أوردها ياقوت فى معجمه هكذا ؛ منبسة ، وقال عنها : مدينة كبيرة بأرض الزنوج ترفأ إليها المراكب .

(٢) أطلقت زنجبار قديماً على بلاد المنطقة الساحلية فى شرق أفريقيا ، وفقدت تدريجياً مضمونها الفسيح ، وصارت تعرف به اليوم بالجزيرة الصغيرة فقط .

واتسعت المدن وبلغت مستوى راقياً فى الحضارة ، ويشهد بذلك مادونه الرحالة العرب ، ولاسيما ابن بطوطة ، والبرتغاليون ، فى مؤلفاتهم .

لم تكن كلوة أقوى دول الساحل فقط ، بل أنها كانت أوفرها حضارة لذلك أثرت كثيراً على تجارتها ، ولما كان مؤسسو كلوة الأوائل من الشيرازيين فلا غرو أن يكون لهم تأثير كبير على أسلوب الحضارة الذى ازدهر هناك خلال القرون ١٠ ، ١١ ، ١٣ ، وكانت حضارة ذات مظاهر فارسية قديمة ، وقد أدخل الشيرازيون أساليبهم فى البناء بالحجارة ، وفى صناعة الجير والأسمنت ، واستخدامها فى البناء وفن النقش على الخشب ونسج القطن ، وشيدوا عدة مساجد ومبان جميلة الطراز مازالت بعض مخلفاتها باقية إلى اليوم ومن أهم خصائص تلك المبانى استخدام العقد المحدب والحجر المنحوت ، وتناسق الأعمدة ، والقباب الصغيرة ، وقد عثر فى الحفائر الأثرية على قطع صغيرة من الخزف الصينى القديم ، وبقايا أوان من السورى والعربى ، وعلى قطع من الحلى الذهبية .

وقد وصل إلينا كثير من المعلومات عن تلك الدول ، بفضل ما كتبه عنها الرحالة والجغرافيون العرب ، ومن الوثائق التاريخية الهامة .

يصف مؤلف « أخبار كلوة العربية » كيف قامت دولة كلوة فى القرن العاشر على يد حسن بن على ، وتضم هذه الأخبار ثبتاً طويلا يشتمل على أسماء السلاطين الذين تولوا الحكم فيها .

وتناول المؤرخ الجغرافى المسعودى (توفى حول عام ٩٥٨) الذى زار ساحل الزنج فى القرن العاشر وصف البلاد وأحوال أهلها ، ويحتمل أن يكون قدم بتلك البلاد حول عام ٩١٩ م وللمرة الثانية ، وإن كنا لانعلم تاريخ رحلته الأولى .

وقد وصف الإدريسى الجغرافى العربى تلك البلاد ، وذكر أن الساحل أجمع كان يعيش فى ممبسة ، وأن أهالى مقديشو وبروه ومركة كانوا مسلمين. وقد أخطأ الإدريسى فى ترتيب مواضع بلاد الزنوج ، وفى تعيين أسماء الجزر الكثيرة المقابلة للشاطىء الأفريقى [1] ، وكذلك أخطأ فى أبعاد المسافات التى تفصل بين كل بلدة وأخرى ، وقد نسى ذكر مدينة كلوة ، وكان تأسيسها سابقاً على عصر الأدريسى بمائتى سنة تقريباً . وكانت جزر بمبا وزنجبار ومافيا تابعة لها ، وكان بيانه خالياً من مدينة مقديشو ، فى حين أنه ذكر مدينتى مركة وبروه التابعتين لها .

ويعتبر ما كتبه ابن بطوطة الرحالة العربى المشهور . الذى قام برحلة من طنجة عام ٩٣٤ لتأدية فريضة الحج من أهم المراجع عن أحوال بحر الزنج وبلدان شرقى أفريقيا فى العصر الوسيط . لقد زار ابن بطوطة مقديشو وقابل سلطانها ، كما زار مدينة كلوة ، وقد قال عن الأولى إنها مدينة كبيرة يقطن فيها السلطان ، واسمه أبو بكر بن الشيخ عمر ، وقال الرحالة عن منبسة إنها جزيرة كبيرة بينها وبين أرض السواحل مسيرة يومين فى البحر ، ولا بر لها ، وأشجارها الموز والليمون والأترج ، وأكثر طعام الأهالى السمك والموز والقمح يأتى لهم من الخارج لأنهم لايزرعونه وهم شافعيون يعنون بأمور دينهم ، ويشيدون المساجد من الأخشاب المتينة [2] .

وبعد أن قضى ابن بطوطة ليلة فى منبسة ركب البحر إلى مدينة كلوة ، وقد قال عنها إنها مدينة كبيرة بيوتها من الخشب وأكثر أهلها زنوج مستحكمو السواد فى وجوههم وهم شافعيون ، ويحكمها السلطان أبو المظفر حسن .

---

(١) القبطاء جيان ؛ وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن أفريقية الشرقية الترجمة العربية ليوسف كمال ص ٤٩ — ١٠٢ .

(٢) راجع الفصل السابق

وقد كان فى قتال دائم مع السكان المجاورين ، وعرف بتقواه وإغراقه فى الصلاح كما كان محسناً كريماً .

وهناك مكانان ساحليان يحملان اسم كلوه فى دويلات الزنج : الأول للجزيرة المسماة كلوكسبسيبوانى ، والثانى بلدة كلوا كيفنجى التى تقع على الساحل شمال الأولى وقد كانت الجزيرة أول قطعة من الأرض نزل فيها حسن بن على فى عام ٩٧٥ م وجاء فى « أخبار كلوا العربية » أنه اشترى الجزيرة من الأهالى ، واشترط أن يحيطها بسياج من القماش ، ثم عمل على تعميق القناة التى تفصل الجزيرة من الساحل ، وذلك لكى يجعلها ذات موقع منيع ، ولما أتم هذا العمل شيد الحصون ، ثم مد سيادته تدريجياً نحو أجزاء الساحل ، وعند وفاته كان نفوذه قد امتد إلى مدينة سفالة فى الجنوب وإلى ممبسة فى الشمال . وكان لسفالة أهمية باعتبارها مرفأ يصدر منه الذهب المستخرج من داخل البلاد ، « روديسيا اليوم » .

وقد خلف حسن ابنه على حكم البلاد نحو أربعين سنة . وفى أثناء حكمه نصب ابنه على منبسة ، وبعد وفاته اعتدى الأهالى ومعظمهم من الوثنيين على الجزيرة ، ودانت لهم ، فاضطر السلطان إلى الفرار إلى زنجبار ، ولكن مالبث رعاياه أن استعادوا الجزيرة وطردوا المعتدين ، ومن ثم عاد السلطان إلى كلوه ودام حكمه فيها نحو ١٤ سنة .

وتتابع على حكم كلوه نحو ٢٩ من السلاطين كان آخرهم فضيل بن سليمان وهو السلطان الذى جاء البرتغاليون فى أيامه عندما انتقلت السيادة إليهم ، وكانت منبسة على أيام الزنج ثغراً زاهراً يعج بالحركة التجارية ـ وقد قيل إن الذين بنوها كانوا إحدى الجماعات التى جاءت مع حسن بن على فى سفائنه السبع ، ونحن لا نعرف الكثير عن سلاطين منبسة ، لكننا نعرف أن آخرهم كان شحاته بن معشم الشيرازى الذى جاء البرتغاليون على أيامه .

زنجبار، وفومبا، وبمبا :

ومازالت معلوماتنا عن تلك الأماكن غير كافية على أيام دويلات الزنج على أن هناك بعض الأطلال التى ترجع إلى العهد الشيرازى تبين لنا قيام عدة مدن فى الجزر الثلاث ، اشتملت على بعض المبانى المشيدة بالحجارة ، وبينها مساجد كبيرة ، ففى قرية كيزيمكازى فى جنوب جزيرة زنجبار يقوم مسجد قديم لعله يكون من أعجب المبانى فى شرق أفريقيا ، ويقع فوق محرابه نقش بالخط الكوفى نصه ـ :

« بأمر الشيخ السيد ابن عمران مقوم(١) الحسن بن محمد أطال الله حياته المديدة ، اللهم اقض على أعدائه ، تم بناء هذا المسجد فى يوم الأحد من شهر ذى القعدة سنة خمسمائة من الهجرة « الموافق ١١٠٧ » .

وهناك أطلال أخرى فى تومباتو ، وهى الجزيرة الصغيرة التى تقع شمال غربى جزيرة زنجبار ، وتشغل هذه الأطلال أكبر الخرائب الأثرية التى عثر عليها فى زنجبار وبمبا ، وتدل على أن المدينة التى شغلت مكانها فى الأصل كانت أكبر مدن الساحل الأفريقى الشرقى ولما جاء البرتغاليون إلى زنجبار عام ١٥٠٠ لم يرد ذكر فومبا وبمبا ، وتدل الأطلال على أن المدينة التى شغلت مكانها فى الأصل كانت أكبر مدن الساحل الأفريقى الشرقى ، وربما دل عدم ذكرها على أنها كانت قد فقدت أهميتها .

وليس لجزيرة بمبا تاريخ مدون على أيام دويلات الزنج . ويشاهد اليوم بعض الأطلال مبعثرة فى أنحاء الجزيرة . ويتناقل الناس فيما بينهم أن الجزر كانت مقسمة إلى خمسة أقسام ، وأنه كان فى كل قسم منها سبع مدن ، وإذا صح هذا كانت بمبا دون شك من أهم الأراضى التى سيطر عليها الزنج ، وقد عرفت بمبا فى زمن ما باسم الكوثرة « الجزيرة الخضراء » وأرضها

(١) كلمة مقوم سواحلية معناها ملك

أكثر خصوبة من زنجبار ، وتمتاز عليها بأنواع القرنفل التى تزرع فيها اليوم .

فومبا :

كانت فومبا دويلة هامة فى عهد الزنج ، وهى تشمل الأراضى التى يرويها نهر أومبا على بعد نحو خمسين ميلا جنوب منبسى « منبسة » ومن سوء الحظ أن المخطوط الفريد الذى كان يضم تاريخ فومبا وعنوانه «أخبار فومبا كو» تلف فى أثناء حوادث عام ١٨٩٥ ، ونظن أن دولة فومبا قامت حول عام ١٢٠٤ م ، وكانت أهم مدنها فومبا كو ، ويمكن القول إنها كانت مدينة كبيرة ، ويدل على هذا ماخلفته من الخرائب التى تشاهد إلى اليوم فى وسط منطقة من الغابات الكثيفة .

وقد كان يطلق على حكام دولة فومبا « مونا شامبى » حتى عام ١٥٤٤ حينما تغير هذا اللقب إلى « موانا شامبى شاندى » ، وفى عام ١٧٠٠ تبدل هذا اللقب إلى « ديون » ، وكان من المتبع أن يكون لكل سلطان منهم اسم مستعار .

أرخبيل لامو :

وأهم الجزر التى يتألف منها أرخبيل لامو هى وماندة وباتا . وتفصل كل منها عن الأراضى الساحلية بقنوات ضيقة ، ويشاهد إلى اليوم بقايا مبان فارسية الطراز فى الجزائر الثلاث ، وينتمى معظم أهالى الأرخبيل إلى أصل فارسى .

مقديشو « مقدشو » :

شيد هذه المدينة الأخوة السبعة الذين قدموا من الأحساء فى بداية القرن العاشر ، وكانت لها أهمية كبرى ولم تخضع مطلقا لكلوا .

سفالة :

أقدم الموانىء على الشاطىء الأفريقى ، قصدها العرب فى عام ٩١٥ للمتاجرة بالذهب ، وقد استوطنها جماعة من المسلمين جاءوا إليها من فارس (شيراز)

حوالى عام ١٩٢٠ م — ازدهرت فى أثناء القرنين ١٣ ، ١٤ ، وكانت فى الواقع مركز الدفاع الأمامى لسلطنة كاوة .

وكانت هذه الناحية والمدينة ، أقصى ما وصل إليه العرب على الساحل الشرقى وتقع اليوم فى الجزء الجنوبى من مستعمرة موزمبيق البرتغالية . ذكرها المسعودى فى كتابه « المروج » : « أن بلاد سفالة هى أقاصى بلاد الزنج ، وأنها بأسفل بحر الزنج وتتاخم بلاد الواق واق » ، وذكر المسعودى فى موضع آخر أنها آخر حدود البلاد التى كانوا ينزلونها ، وغاية مقاصد السفن القادمة إلى عمان وسيراف . وهى بلاد تنتج التبر بكثرة وتنتج غيره من العجائب ، ومناخها دافىء وتربتها خصبة ، وقد أقام فيها الزنج قصبة بلادهم .

وقد ذكر ياقوت سفالة فى معجمه المعروف (أوائل القرن ١٣) « قائلا : إن سفالة آخر مدينة تعرف بأرض الزنج ، والحكاية عنهم كما حكينا عن بلاد التبر بأرض جنوب المغرب من أنهم تجلب إليهم الأمتعة ويتركها التجار ، ويمضون ثم يجيئون ، وقد تركوا ثمن كل شىء عنه ، ويقال لهذا « التجارة الخفية » .

وقال ابن الوردى (ح ١٣٤٠) فى كتابه فريدة العجائب وفريدة الغرائب عن سفالة الذهب ، وهى تجاور أرض الزنج ، وهى أرض واسعة بها جبال فيها معادن (مناجم) الحديد ، ولكن معادن سفالة أطيب وأصح وأرطب ، والهنود يصنعونه فيصير « فولاذاً قاطعاً » . ومن عجائب أرض سفالة أن بها التبر الكثير ظاهراً زنة كل تبرة مثقالان وثلاثة ، وأكثر ، وهم مع ذلك لا يتحلون إلا بالنحاس ويفضلونه عن الذهب . وأرض سفالة متصلة بأرض الواق واق .

وفى أوائل القرن السادس عشر « أدرك البرتغاليون أهمية سفالة فى تجارة الذهب الذى يرد إليها من المناجم الداخلية ، وفى عام ١٥٠٥ صمم عمانويل

الأول ملك للبرتغـال (١٥٠٠) على بناء سلسلة من الحصون فى الأماكن الرئيسية على الشاطىء الإفريقى ، كانت سفالة إحدى هذه المدن ، ففى ١٥٠٥ بدأ بيرودانهايا فى تشييد قلعة سفالة بيد أنه مات قبل أن يكمل البناء وظلت سفالة فى قبضة البرتغاليين مركزاً تجارياً هاماً عدة سنوات ، ولكن لم تكن كميات الذهب وفيرة للدرجة التى كانوا يأملونها .

وفى عام ١٥٨٦ استقر الآباء الدومينيكان فى سفالة وبدءوا ينشرون رسالتهم الدينية فى داخل البلاد .

وقد ذكر باروس البرتغالى أن مملكة سفالة العظيمة ، تقوم فى جزيرة بين ذراعى نهر كواما والبحر ، ويزيد محيطها على ٦٥٠ ـ فرسخاً ، وقد بلغ من عمرانها أن الفيلة أخذت تهجرها ، ويقول أهل البلاد إنه يهلك من الفيلة كل عام أربعة آلاف فيل أو خمسة آلاف ، وهـذا هو السر فى تلك المقادير العظيمة من العاج التى ترسل إلى الهند . وأقرب مناجم الذهب فى منكة على مسيرة ٥٠ فرسخاً تقريباً غربى سفالة ، والذهب الذى يجمع منها تبر أو ركاز وهو على عمق ٦ أو ٧ راحات (حوالى ٥ ـ ٦ أقدام) ، وأبعد المناجم على مسيرة من ١٠٠ إلى ٢٠٠ فرسخ من سفالة ، ثم أنه توجد قلعة شيدت من الحجارة المنحوتة ، وهى متقنة البناء ، شيدت من حجارة ضخمة إلى حد عجيب ، وقد ركبت بعضها فوق بعض من غير ملاط ، ويربى سمك جدار القلعة على ٢٨ راحة (٢٣ قدماً) وارتفاعه لا يتناسب مع عرضه .

كانت سفالة فى أثناء القرن السادس عشر ، الثغر الوحيد فى شرق أفريقيا الذى يصدر الذهب، ثم أخذ التجار تدريجياً يتجهون صوب الشمال إلى كولمانة شمالى نهر زمبيرى . ويبدو أن سفالة القديمة كان لها شأن عظيم إذا حكمنا بأطلال الدور الرحبة التى تدل على رفاهية أهلها فى القرن السادس عشر ، وقد هجرها أهلها فيما بعد وأعيد بناؤها في الأراضي المجاورة للمدينة القديمة ،

وبرزت سفالة الجديدة فى أوائل القرن الثامن عشر ، وهى بلدة صغيرة لا يزيد عدد سكانها على بضعة آلاف .

وقد وصفت سفالة الجديدة فى عام ١٧٦٤ فقيل إنها بلدة صغيرة اشتملت على ٣٥ بيتاً .

البرتغاليون فى شرق أفريقيا

لم تنج بقعة فى القارة الأفريقية من جشع الاستعمار الأوروبى فقد رسخت أقدام البرتغاليين واشتد حكمهم حوالى مائتين وخمسين سنة فى منبسة ولامو وملنده ، وكلوه ، وزنجبار ، وكل ممالك أفريقية الشرقية وجزائرها ، علاوة على مسقط وعمان وخليج العرب .

كانوا هناك إلى عام ١٧١٥ حين نهض الإمام العربى سعيد بن سلطان بن سعيد إمام مسقط وعمان ، فأخرج البرتغاليين من بلاده وأجلاهم عن مسقط والخليج ، ثم جهز الأساطيل وأرسلها محملة برجاله العرب إلى زنجبار وبمبا وساحل أفريقيا الشرقى ، وطردهم من تلك الأصقاع بعد أن حاربهم فى عدة مواقع بحرية ومعارك برية وأعاد البلاد كلها إلى أصحابها من العرب .

ولم يكن حكم البرتغال على الساحل الأفريقى هادئاً كل الهدوء ، ففى خلال المائتين والخمسين سنة من استعمارهم تلك البلاد ، مرت بهم أزمات كثيرة ، وأشعل المواطنون خلالها عدة ثورات ؛ وكان هدفهم هو تخليص البلاد من أخطبوط السيادة البرتغالية .

وكانت أول ضربة أصيب بها البرتغاليون فى عام ١٦١٥ حينما هاجمت جنود الشاه عباس ملك فارس حصن جزيرة القمر بحجة المطالبة بالجزيرة .

وفى عام ١٦٢٢ استطاع الشاة الاستيلاء على مدينة هرمز ، ووقعت فى قبضة جنوده (١) ، نخسرها البرتغاليون نهائياً ، ولم يتمكن الجنود الذين كانوا

(١) كان البرتغاليون قد استولوا عليها عام ١٥١١ .

فيها من الانسحاب محفوظى الكرامة ، وأدت خسارتهم إياها إلى أوخم العواقب . فقد كان مركزها الطبيعى على جانب كبير من الأهمية التجارية والعسكرية ، وكانت فى الواقع أثمن جوهرة يتاح لملك شرقى أن يرصع بها تاجه ، لأنها تعتبر مفتاح الخليج العربى الفارسى ، وسرعان ماضعفت شوكة البرتغاليين فى سائر البقاع المجاورة ، وأخذ زعماء الأهلين يفكرون فى الاستقلال بكل وسيلة .

أما فى أفريقيا الشرقية ، فقد كان السلطان أحمد صاحب منبسة أعقب ولداً أسماه يوسف ، فلما مات الأب كان ولده صغير السن ، فجىء به إلى جوا (بالهند) وعهدت تربيته إلى رهبان كاثوليك ، ويقال إنه اعتنق المسيحية وتسمى فى سنة ١٦٢٧ باسم « دوم جبرونيه وستجوليا » ، ولكن المصادر العربية تؤكد أنه ظل على دينه ، وقد تظاهر فقط بالمسيحية ليجيد الخطة التى سلكها ليخدع البرتغاليين حتى يتخلص منهم .

وفى عام ١٦٣١ دبر السلطان يوسف مؤامرة محكمة ضد حاكم منبسة البرتغالى الذى اشتهر بغطرسته وظلمه ، وقاد بنفسه ثلثمائة من المخلصين ، وانقض بهم على حصن الحاكم ، وقتل الحاكم بيده ، وقتل زوجته وابنته والقس الذى كان يقيم فى المعبد ، وصار يوسف بعد فوزه الحاكم المطلق ، ثم انقض مع رجاله على القسم البرتغالى من المدينة وأضرم فيه النار وقتل جميع سكانه . ولجأ الذين استطاعوا النجاة إلى دير طائفة الأوجستان ، وتحصنوا به عدة أيام ، فعرض عليهم يوسف الخروج متجردين من السلاح ووعدهم ألا يتعرض لهم بسوء ، فما أن خرجوا حتى هاجمهم رجاله وأفنوهم جميعاً

ولما انتهى يوسف من المذبحة بعث إلى زعماء البلاد المجاورة له ليقتدوا به للتخلص من ظلم البرتغاليين ، وسرعان ما انتشرت نيران الثورة واندلع لهيبها فى جميع أنحاء الساحل .

وكانت بمبا فى طليعة الدويلات الثائرة ، ولما وصلت أنباء العصيان إلى الحاكم البرتغالى فى الهند ، أمر بتجهيز سفينتين وأربعة عشر قارباً ، وأنزل بها خمسمائة برتغالى بقيادة ابنه ، وعقد القيادة العامة لفرنسيسكو دى مورا ، وتحركت الحملة من جوا فى ديسمبر عام ١٦٣١ ، فوصلت فى أوائل يناير سنة ١٦٣٢ إلى امبازا .

وفى ١٠ يناير دخلت السفن ثغر منبسة ، بعد أن انضم إليها ثلاث سفن عليها مائة رجل من مسقط ، ثم جاءت إليها عدة سفن أخرى من جهات مدن الساحل ، وبلغ عدد المحاربين نحو ثمانمائة ، واعتقد القائد بعد أن دبر النزول إلى البر أنه سوف ينتصر على الثورة كلها .

حاصر فرنسيسكو منبسة ثلاثة أشهر دون جدوى ، وأخيراً قرر العودة إلى الهند لكى يعود بأعداد كبيرة ، وترك سفينتين أنزل فيهما عدداً كبيراً من الجنود ولما تهيأ السفر كانت الأنباء قد وصلت إلى الثوار ، وسرعان مانصبوا بالممر المشرف على السفن مدفعاً ، وتعذر على البرتغاليين التزود بالماء الصالح ، كما أصبح غير ميسور للسفن البرتغالية العودة إلى الهند ، ولم تستطع الخروج إلى البحر إلا بعد شهرين أى فى أعقاب الرياح الشديدة ، وأتاح هذا التلكؤ لأهالى منبسة أن يستولوا على السفينتين ، وأسرع السلطان بنقل مدافع الحصن إليهما ، ثم خرب أبراج الحصن والمدينة البرتغالية لكى لاينتفع بها البرتغاليون إذا عادوا . واستمر يوسف يضايق أعداءه فى مدغشقر وجزر القمر وغيرها .

ويستفاد من النقوش المكتوبة على باب حصن منبسة أن البرتغاليين عادوا إليها فى عام ١٦٣٤ بقيادة فرنسيسكو دى سكساس اكبرا ، وأخضعها ، وفرض الجزية على عدة دويلات « مشيخات » ، وعاقب سكانها ، وهدم أسوار المدن ، وانتقم من أهل بمبا . وفى نوفمبر عام ١٦٣٨ قتل يوسف

فى معركة نشبت بين رجاله وبعض العرب ، وقد كان آخر سلاطين منبسة .

إن استقرار حكم البرتغاليين فى شرق أفريقية لم يكن طويل الأمد ، فقد ظهر على مسرح الأحداث عدو نشيط جديد . هم عرب عمان ، الذين كان لهم الفضل الكبير فى القضاء على البرتغاليين قضاء مبرماً ، ليس فقط فى بلادهم مسقط وعمان ، بل فى سواحل أفريقيا الشرقية أيضاً .

عمان فى شرق أفريقيا :

كانت تقع دولة عمان فى الطرف الجنوبى الشرقى من شبه الجزيرة العربية ، وكانت أهم ثغورها مسقط . اشتهر أهل عمان منذ القدم بولعهم بالحرب ونزوعهم إلى الاستقلال ، وبالرغم من اعتناق شعب عمان الإسلام منذ عام ٦٣٠ م فقد أعلنت الثورة مراراً ضد الخلفاء .

ولعل أشد تلك الثورات كانت ثورة سليمان وسعيد ضد الخليفة عبد الملك بن مروان الأموى . كما ذكرنا فى بداية هذا الكلام ، وقد كان من أهم ماتمخضت عنه تلك الثورة الفاشلة أن نصب الخليفة على عمان والياً يحكمها ، يعاونه بعض رجاله المخلصين ، وأبعد العمانيين عن مقاليد الحكم . وبعد مضى وقت طويل انتقل الحكم إلى أهل البلاد . ففى عام ٧٥١ م اختار العمانيون « جلند بن مسعود » والياً عليهم . « وكان يلقب بالإمام » . ذلك فى الوقت الذى كان عبدالله بن يحى بن إباض يدعو العمانيين إلى مذهبه الجديد « الإباضية » حول عام ٧٤٤ م ، ومنذ عام ٧٥١ م اعتنق الأهلون هذا المذهب وصاروا ينتخبون إمامهم من بين أصلح رجالهم ليتولى مقاليد الزعامة الدينية والدنيوية .

وقد تسلل البرتغاليون إلى منافذ عمان . فاحتلوا بعض مرافئها . وفى عام ١٥٠٨ م استولى القائد البرتغالى الفونسو دى البوكيرك على مدن الشحر

ومسقط وقريات ، ودانت البلاد للبرتغاليين أكثر من مائة سنة . وفى أثنائها لم تنتقل إدارة البلاد من أيدى العمانيين ، واقتصر الأمر على دفع الجزية سنوياً لملك البرتغال . ولكن مع ذلك لم يكن العمانيون الأحرار ليرضوا بهذا الوضع المهين ، وظلوا ينتهزون الفرصة لاستعادة استقلالهم وحريتهم . فلما تمت هزيمة البرتغاليين فى هرمز سنة ١٦٢٢ استيقظت الروح القومية فى صدور العرب ، وأثمر النضال المعنوى فى أيام الإمام سلطان بن سيف العربى ، ففى عام ١٦٥١ استولى على مسقط من البرتغاليين ، وفى أعقاب انتصاره تمكن من طردهم نهائياً من أراضى عمان وطهرها من الاستعمار الوخيم .

وسرعان ماانتشرت أنباء نصر سلطان بن سيف فى البلاد المحيطة بالمحيط الهندى ومدن ساحل شرق أفريقيا ، ولاسيما منبسة . . التى استنجد أهلها بابن سيف وقد طلبوا إليه أن يمدهم بالمعاونة ليطردوا البرتغاليين من بلادهم ، وكان طبيعياً أن يقدم لهم المعاونة عن طيب خاطر ، بعد أن تحمل العمانيون أهوال الاستعمار .

بعث سلطان بالسفن إلى منبسة لحصارها فلم يوفق إلا بعد جهد طويل دام ٥ سنوات ، وكان ذلك فى عام ١٦٥٢ حينما أرسل أسطولا صغيراً غادر مسقط وهاجم المستعمرات البرتغالية على الشاطىء ولا سيما ما كان منها فى زنجبار وباتا ، ثم وقع فى يده حصن منبسة ونصب عليه حاكماً هو محمد بن مبارك . وشبت الثورة فى معظم الساحل ، ولكن تمكن البرتغاليون من إخمادها بكل قسوة .

وللمرة الثانية استنجد الأهالى بسلطان فأرسل إليهم أسطولا آخر ، وكان قد استطاع بناء بحرية صغيرة . وفى عام ١٦٦٠ عبر المحيط الهندى وحاصر منبسة ثانية واستولى عليها لكنه لم يمكث طويلا فى المدينة فقد

اضطر إلى العودة إلى عمان بسبب نشوب ثورة عنيفة أثناء غيابه .

ولما غادر الإمام البلاد عاد البرتغاليون إلى منبسة وأنزلوا العقاب الشديد بأهلها وانتقموا منهم شر انتقام . وقد كان لهذا المسلك العنيف رد فعل سريع ، فقد تضاعفت كراهية الأهالى للبرتغاليين ووحدوا صفوفهم وصمموا على إلقاء المستعمرين فى المحيط .

كان سلطان بن سيف قد مات (١٦٦٨ - ١٦٦٩) فى عمان وترك ولدين وقد خلفه بعد مدة سيف [1] وقد كان كأبيه شجاعاً ميالا إلى القتال ولم تمض عدة أشهر من توليه مقاليد الحكم حتى استعان به العرب الأفريقيون ، وتوسلوا أن ينجدهم ضد البرتغاليين أسوة بما فعله أبوه من قبل .

وكان سيف قد ضاعف قوة أسطوله وصار يتألف من ٢٨ سفينة مزودة بمدافع وبعضها كان قد أسروه من العدو .

وسرعان مالبى السلطان نداء إخوانه . وفى مارس سنة ١٦٩٦ كان يحاصر منبسة وقد طال أمد هذا الحصار وتجاوز ٣٣ شهراً . وفى ديسمبر سنة ١٦٩٨ نجح السلطان فى الاستيلاء على قلعة المسيح وصار سيد الموقف . ونجح فى العام التالى فى طرد البرتغاليين من بمبا وكيلوه ثم حاول الاستيلاء على موزمبيق أقوى معاقل البرتغاليين فى الساحل فلم يوفق وظلت موزمبيق فى قبضتهم إلى يومنا .

وفى عام ١٧٠٠ كان الساحل بأسره إلى جنوب كلوا فى قبضة العمانيين ، ويهمنا بصفة خاصة منبسة التى احتلتها جنود الإمام وتوطدت سلطته فيها إلى أقصى حد وتعين لها حاكم من قبله وكان هذا الحاكم قد خلفه آخرون

---

(١) تولى الإمامة بعد سلطان ابنه «بلا رعب» نحو سنة ونصف ثم نشبت بينه وبين أخيه سلطان سوء تفاهم انتهى إلى قتال بين الأخوين . وقد قتل بلارعب ومن ثم آلت الإمامة إلى سلطان ..

من أشهرهم سيف بن سعيد ، وناصر بن عبد الله زعيم أسرة المـازورى . أما زنجبار فقد وضعت تحت إمرة أسرة الحارثى . وقد قيل إن أحد أفراد قبيلة النبهانية عين والياً على باتا . أما بمبا فقد كانت تحت إشراف المازورى حاكم منبسة (وربما يكون اسم المازورى تحريفاً لكلمة المزروعى) .

واضطر سيف بن سلطان إلى العودة إلى عمان بعد أن ترك مقاليد الحكم لمن ذكرناهم .

مراحل تاريخ العرب فى ساحل شرق أفريقيا :

ويمكن أن نقسم المراحل الرئيسية التى مر بها تاريخ العرب فى ساحل شرق أفريقيا حتى قيام سلطنة زنجبار إلى المراحل الآتية :

المرحلة الأولى : تتميز بظهور المراكز التجارية العربية .

المرحلة الثانية : تمتدمن القرن السادس الميلادى إلى نهاية القرن الخامس عشر وتتميز المرحلة بسيطرة المسلمين على تجارة المحيط الهندى ، كما شهدت هذه المرحلة أيضاً استقرار العرب والمسلمين (من الفرس والهنود) فى ساحل شرق أفريقيا من الجزيرة العربية والخليج العربى وفارس والهند، ومعلوماتنا عن هذه الفترة تتزايد باستمرار ، علماً بأنه تبع عمليات الاستيطان هذه ظهور الكثير من الوحدات السياسية منذ القرن الثانى عشر الميلادى ، ووصلت إلى أوج ازدهارها فى الفترة التى سبقت قدوم البرتغاليين إلى الساحل الأفريقى .

المرحلة الثالثة : وصول البرتغاليين إلى الساحل وسيطرتهم على تجارة المحيط الهندى وانتزاعها من العرب والهنود .

المرحلة الرابعة : تتميز بالثورات المتتالية التى قامت ضد البرتغاليين حتى خلص الساحل الشرقى لعرب عمان وبذلك وضع الأساس لتكوين

سلطنة زنجبار التى استقرت بالجزيرة وعلى جزء من الساحل الأفريقى . وقبل نهاية القرن التاسع عشر أصبحت الجزيرة تحت الحماية البريطانية (١) .

تأثير العرب فى شرق أفريقيا

بالرغم من أنه لم تقم وحدة سياسية بين الدويلات العربية التى نهضت على الساحل الأفريقى ، حتى بعد أن نجح سلاطين عمان فى طرد البرتغاليين من معظم المدن العربية فقد كان للعرب آثار عظيمة فى هذه المنطقة لاتزال واضحة إلى اليوم وسنذكر أهم تلك الآثار :

١ — تطور أحوال أهالى الساحل فقد أخذ العرب بأيديهم فى مسالك الحضارة وأضفى الإسلام على حياة الذين اعتنقوه طابعاً اجتماعياً واضحاً بعد أن استعربوا على عكس أهالى المناطق الداخلية الذين ظلوا وثنيين وكان التزاوج المستمر سبباً فى ظهور جماعات كثيرة خلطت دماؤهم العربية بالدماء الزنجية . ويمثل هذا الخليط الجنسى « السواحليون » ويزيد عدد هؤلاء على ثلاثين مليوناً .

٢ — كان من تأثير ازدهار التجارة أن عم الرخاء سكان تلك المناطق الساحلية فارتفعت مستويات حياتهم وليس بخاف أن العرب بذلوا جهودا طيبة فى تطوير الزراعة وتوسيع الرقعة الزراعية وإدخال زراعة الغلات ، وفضلا عن ذلك فقد عرف الأهالى بعض الصناعات ، كصناعة التعدين والحلى والحياكة وغيرها .

٣ — اختلطت اللغة العربية بلهجات قبائل البانتو وتولدت لغة السواحلية

---

(١) نالت زنجبار الاستقلال فى أوائل الستينات من هذا القرن ثم اتحدت مع تنجانيقا وأصبحت الدولتان تعرفان بتانزانيا .

التى اشتملت على عدد كبير من الكلمات العربية ويتكلم هذه اللغة - اليوم - حوالى خمسين مليونا .

٤ — ونلاحظ أنه بالرغم مما جلبه الاستعمار معه فى القرن التاسع عشر ، فقد انتشر الإسلام منذ ذلك الحين بين الأهالى فى المناطق الداخلية وذلك فى أثناء احتلال الألمان لتنجانيقا منذ أواخر القرن التاسع عشر وفى أيام الحرب العالمية الأولى ، ويعود ذلك إلى أن غالبية المدرسين كانوا من المسلمين وكذلك التجار ، فانتشر الإسلام فى مراكز كثيرة فى تنجانيقا بل وفى كينيا وأوغندا ، وقد حدث هذا فى الوقت الذى نشطت فيه بعثات التبشير الكاثوليكية والبروتستنتية فى نشر المسيحية بين الزنوج . ومما نلاحظه أن رجال الطرق الدينية لم يسهموا بجهودهم فى مجال الدعوة ، ومع ذلك فإن عدداً كبيراً من المسلمين لم تعترهم الحماسة الدينية ، فقد دأب أحد الفقهاء على التردد على منطقة كليمنجارو للدعوة مرة كل أسبوع ولمدة عدة شهور .

وقد أسلم على يديه كثير من الأهالى وكان الدعاة المسلمون لا يقصرون جهدهم على الدعوة بين الوثنيين ، بل كانوا يوجهون عظاتهم إلى الجدد ممن اعتنقوا المسيحية . ونذكر على سبيل المثال أن أفراد قبيلة Yaso وقد شاركوا العرب فى تجارة الرقيق سنين طويلة أسلموا جميعاً عن بكرة أبيهم فى القرن التاسع عشر وقد انتشر الإسلام بواسطتهم فى منطقة نياسالند . وهذه القبيلة من أقوى القبائل الوطنية وينظرون إلى الإسلام على أنه دينهم القومى .

وهكذا رأينا أن الإسلام قد انتشر فى منطقة فسيحة من القارة الأفريقية ، ليس بفضل السلاح كما كان يقال ، بل بفضل مثله العليا والدعوة الحكيمة الهادئة .

الفصل السابع عشر

الحضارة الإسلامية فى ساحل أفريقيا الشرقى

تندولنا الحديث عن أهم مدن الصومال الإسلامية : زيلع ، وبربر ، ومقديشو . وسنتناول الحديث عن بعض المدن الأخرى التى تقع إلى جنوب مقديشو ، تلك التى تتسم بمعالم الحضارة الإسلامية .

براوة :

تذكر بعض المراجع العربية أن الذين أسسوا براوة هم الإخوان السبعة الذين قدموا من الأحساء بعد عام ٩٠٣/٩٠٤ بقليل .

تقوم هذه البلدة شمال نهر جوبا وجنوب مقديشو . لم يذكرها أحد من جغرافيي العرب أو رحالتهم . وقد كانت مدينة هامة حينما وصل البرتغاليون إليها . كانت إذ ذاك مدينة عربية ، شيدت فيها الدور الكبيرة من الحجارة ، ولم يكن يحكمها سلطان أو ملك ، بل كانت تخضع لطائفة من الزعماء الكبار الذين كانوا يعملون فى التجارة .

اقتحمها البرتغاليون بقيادة تريستا وداكونها ، ودمروها ، وقتلوا كثيرين من أهلها ، كما أسروا عدداً كبيراً منهم ، ثم حملوا مقادير وفيرة من الذهب والفضة . وقد اضطر من تبقوا من سكان براوة إلى الفرار إلى داخل البلاد بعيداً عن الساحل . وبعد مرور فترة من الزمان استقر فيها البرتغاليون وسكنوها ، واستعادت مكانتها الأولى .

وفى مسجد براوة نقش يتضمن تاريخاً يرجع إلى القرن التاسع الهجرى .

باتا :

إحدى جزر أرخبيل لامو ، تواجه ساحل سلطنة ويتو (القرن الخامس عشر) وأهم جزر هذا الأرخبيل : لامو ومالندة وباتا . وقد عثر فى باتا على بقايا مبان عليها نقوش عربية ترتد إلى مابين عامى ٩٣٠و١٠٢٤هـ ويحتمل أن تكون الجزيرة قد اشتقت اسمها من قبيلة الباتوية العربية . وكان أهلها فى معارك مستمرة ضد السكان الوثنيين المجاورين . وقد اشتهرت هذه الجزر كمراكز للرقيق .

وتذكر الوثائق التاريخية المتعلقة بباتا أن مؤسسيها هما سليمان وسعيد حوالى عام ٧٠٠ أو بعد ذلك بقليل ، ثم خضعت للإخوان السبعة حوالى ٩٧٥ ، وأصبحت بعد مافقدت استقلالها إمارة تابعة لكلوا ، بيد أنها عادت شبه مستقلة فى أيام السلطان الثالث عشر لكلوا ، المعروف باسم تالونف (١١٩٠ — ١١٩١) .

فى مستهل القرن الثالث عشر (عام ١٢٠٣) استطاع سليمان بن مظفر النبهانى من سلاطين مسقط أن يتزوج أميرة سواحيلية ، ابنة إسحق حاكم باتا (١) ، ثم ورث الملك وأصبح أميراً شرعياً ، ثم نقل قاعدته من عمان إلى شرق أفريقيا ، وتأسست الأسرة النبهانية فى مدينة باتا التى قامت بدور بارز بين المدن الإسلامية على ذلك الساحل مدة طويلة .

وهكذا لم يكد القرن الثالث عشر ينتصف حتى كادت المدن الإسلامية قد تكاثرت على طول الساحل الشرقى الأفريقى ، من سواكن شمالا حتى موزمبيق جنوباً (٢) ، وازدهرت ثروة وغنى ، وزاد الإسلام رسوخا بين

---

(١) وثائق تاريخ باتا المحلى ؛ وقد فقد معظمها فى أثناء تخريبها عام ١٨٩٠ انظر
Werner : History of Pate, Jornnl R. A. S.

(٢) The Book of Duarte Barbosa

أهلها ، وبدأت تتسع رقعتها بالتدريج ممتدة إلى داخل القارة ، وتحولت إلى سلطنات إسلامية قومية ، ولولا الغزو البرتغالى فى نهاية القرن الخامس عشر وتخريب تلك المدن العربية ودك معالمها، لكان قدر لها أن تكمل تأدية دورها العظيم فى نشر الإسلام والثقافة العربية إلى داخل أفريقيا من الشرق المطل على المحيط الهندى .

فالأسرة النبهانية برزت فى أخريات القرن الثالث عشر ، ولا سيما فى عهد عمر الأول (١٣٣٢ - ١٣٥٨) ، وامتد سلطانها على جزء كبير من ساحل شرق أفريقيا ، وتميزت بتقاليد جديدة فى الملاءمة بين الضرائب وبين النشاط الاقتصادى للشعب . فقد كانت ضريبة الإنتاج مقدارها ١٠٪

وقد استطاعت أسرة بنى نبهان فى باتا أن تبسط نفوذها على كثير من مدن الساحل الشرقى طوال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، واستطاعت كلوا أن تحقق مثل هذا النفوذ فى القرن الخامس عشر . غير أن هذه الجهود لم تتمخض عن إنشاء وحدة سياسية تجمع شمل هذه المدن العربية التجارية .

لامو :

تقع جزيرة لامو أمام ساحل كينيا إلى جنوب غربى رأس ديكس ، وتبعد حوالى ١٥٠ ميلا شمال منبسة . وتسمى أيضاً بلامو ، الثغر الصغير الموجود بالجزيرة ، ويقدر عدد سكانها بحوالى خمسة آلاف .

وقد عثر الأستاذ « هتشنز » على كتاب ألفه شيهو فرج بن أحمد الباقوى عنوانه « أخبار لامو » (١) ، عرض فيه لتاريخ لامو . والهجرات الأولى التى تدفقت إليها ، فذكر أن الهجرة الأولى كانت تمثل فريقاً من أهل الشام لم يرضوا عن سياسة الحجاج بن يوسف ، فرحلوا إلى أفريقيا ، ويبدو أن

(١) Hichens, W, Bontu Studies. 12, (I738) pp, 1-33

أعداء هؤلاء المهاجرين كانت كبيرة ، لأنهم استطاعوا إخضاع السكان الأصليين واقتحام ميناء ويونى الحصين، وكانت به جالية تزيد على عشرة آلاف من المسلمين . وفى أعقاب وصول هذه الهجرة ، جاءت جماعة من أهل عمان ، كان منهم سليمان وسعيد أبناء عباد الجلندى ، وكانوا قد أعلنوا الثورة فى وجه الخليفة عبدالملك بن مروان، ولما غلبوا على أمرهم ، اضطروا إلى الفرار إلى شرق أفريقيا . ولما وصل سعيد ، اعترف له المهاجرون السابقون بزعامته عليهم ، فرسم لهم أن تقسم المدينة إلى أحياء صغيرة لكل منها شيخها ، وشيوخ الأحياء كلهم يؤلفون مجلساً للشورى يشاركه فى المسئولية ، وكان لكل فرد الحق فى أن يلجأ إلى هذا المجلس طالباً الإنصاف إذا مسه أذى . فكانت إمارة لامو هذه أقدم الأمارات الإسلامية ظهوراً فى ساحل شرق أفريقيا (١) .

مالندة :

ومالندة « اليوم » ميناء على ساحل كينيا ، يقدر عدد سكانها بحوالى الألفين ، والمعروف أن على بن حسن وأبناءه الستة ، حينما قدموا على سفنهم إلى الشاطىء الشرقى الأفريقى ، خربوا بلدة ماليندى ثم شيدوا بلدة ماليندى الجديدة فى مكان يقع بالقرب من المدينة التى أحرقوها ، وكان ذلك حوالى عام ٩٧٥/٩٧٦ « ثم جعلها عاصمة مؤقتة من الزمان ، ويشهد بذلك بعض ماتبقى من خرائبها ذات الطراز الفارسى ، ولا سيما مقابرها وقطع الخزف التى عثر عليها . وقد وصل إليها البرتغاليون عام ١٤٩٨ ، وكان على رأسهم فاسكودى جاما الذى شيد أثراً مازال قائماً إلى اليوم . ويقع بالقرب منها أطلال مدينة جيدى القديمة (geqı) التى تتسم بالأسلوب الفارسى . وتضم هذه الاثار ، مسجداً وعدة مقابر وقصرا وسورا يحيط به .

(1) uHichons Islam in Eost Africa p. 110
وهو أحد فصول كتاب ,Islam to.day. (1943)

المعروف أن على بن حسن هو الذى بنى منبسة حينما نزل مع رجاله فى ساحل شرقى أفريقيا (القرن ١١) ، وقد استمدت منبسة اسمها من مدينة لها هذا الاسم فى عمان ، ذكرها ابن بطوطة الذى زارها فى عام ١٣٣١ ، وكان فاسكو دى جاما أول الرحالة الأوروبيين الذين زاروها ١٤٩٨ ، وكانت آنذاك مركزاً تجارياً هاماً كتب عنها ابن بطوطة (١٣٣١) ، أنها جزيرة كبيرة بينها وبين أرض السواحل مسيرة يومين فى البحر ، ولا بر لها ، تنمو فيها أشجار الموز والليمون والأترج ، وثم فاكهة يسمونها الجمون ، وهى شبه الزيتون ولها نوى كنواه ، إلا أنها شديدة الحلاوة ، ولا زرع عند أهل هذه الجزيرة ، وإنما يجلب إليهم من السواحل وأكثر طعامهم الموز والسمك، وهم شافعيو المذهب ، أهل دين وعفاف وصلاح ، ومساجدهم من الخشب محكمة الإتقان ، وعلى كل باب من أبواب المساجد البئر والثنتان ،وعمق آبارهم ذراع أو ذراعان ، فيستقون منها الماء بقدح خشب قد غرز فيه عود رقيق فى طول الذراع ، والأرض حول البئر والمسجد مسطحة ، فمن أراد دخول المسجد غسل رجليه ودخل ، وعلى بابه قطعة حصير غليظ يمسح بها رجليه ، ومن أراد الوضوء أمسك القدح بين فخذيه وصب على يديه وتوضأ وجميع الناس يمشون حفاة الأقدام . وبات ابن بطوطة ليلة بمنبسة ، ثم ركب البحر إلى مدينة كلوا فى الجنوب .

وأهم الأحداث التى مرت بمنبسة : ١ — استيلاء ألميدا عليها وإشعال النيران فيها (١٥٠٥)،وزيارة نونو دى كونها (١٥٢٩) ، ودوارتى دى منزيس (١٥٨٧) واحراقها انتقاماً من زعماء المدينة الذين تعاونوا مع الخليفة العثمانى، وثورة وفرار السلطان يوسف بن حسن (١٦٣١) الذى تغلب على رجال الحامية البرتغالية وذبحهم عن آخرهم ، وحصار إمام عمان لقلعتها (قلعة

يسوع) ثلاث سنوات ١٦٩٦ — ١٦٩٨ ، ثم عودة البرتغاليين إليها من جوا بالهند (١٢ مارس ١٧٢٨ — ٢٩ نوفمبر ١٧٢٩) ، وانتهى الأمر بطردهم نهائيا بفضل عرب عمان ، وأصبحت فى قبضة أسرة المزروعين سنوات طويلة إلى أن طلبوا حماية البريطانيين فى ديسمبر ١٨٢٣ ، بيد أن هؤلاء تركوا الأمر لأهلها، ثم هاجمها السيد سعيد سلطان عمان عدة مرات (١٨٢٩ — ١٨٣٣) ثم وقعت فى قبضته بالخيانة ١٨٣٧ ، وبعد أن جعل زنجبار عاصمة لدولته الأسيوية الأفريقية ١٨٧٥ أصبحت ذات أهمية محدودة .

ومنبسة الآن أهم موانىء جمهورية كينيا وتعتبر منفذاً لاقتصاديات أوغندا على ساحل المحيط الهندى ، وهى اليوم عبارة عن جزيرة صغيرة على ساحل كينيا ، تقع على بعد ١٥٠ ميلا شمال زنجبار ، ويقدر عدد سكانها بحوالى ٥٠٠٠٠ نسمة ، وثغرها الهام كيلنديني ، يربطها بالساحل جسر طويل عند منبسة المدينة ، وهى اليوم أهم مدن كينيا ، ويقدر عدد سكانها بحوالى ٦٠٠٠٠ ، تتسم بطراز شرقى وتتخللها الطرق الضيقة ، وفيها قلعة برتغالية ، ويشاهد بمنبسة إلى اليوم قليل من المساجد والدور القديمة التى تلقى الضوء على عمارة القصر الإسلامى .

كلوة :

كان ياقوت أول من ذكر كلوة فى معجمه الجغرافى بين المؤلفين العرب ، وأمدنا ابن بطوطة بوصف طريف عنها . والمعروف أن حسن بن على وأبناءه الستة قدموا إليها على سفنهم ثم رست إحدى تلك السفن أمام كلوة ونزل مع رجاله إلى البر . ثم عقدوا العزم على الاستقرار فى هذا المكان وكان ذلك فى حوالى عام ٩٧٥ .

وكانت كلوة حينذاك قرية صغيرة يعيش فيها رجل مسلم اسمه « موريرى وبارى » ، ولما قابله حسن أخبره بأنه يرغب شراء جزيرة صغيرة قريبة منه

فذهب موريرى وأخبر الزعيم المحلى الذى كان يعرف باسم صاحب كلوة بذلك ، فرد الزعيم بأنه على استعداد لبيع الجزيرة إذا قدم له قطعة من القماش يحيط بها الجزيرة .قبل حسن وقدم له كطلبه قطعة من القماش ، واستوطن الجزيرة مع رجاله وأطلق عليها كلوة كيزيوانى ، وهكذا بدأت كلوة حياتها الأولى وتطورت حتى صارت من أهم مدن الساحل الأفريقى . ولقد فضل العرب المعيشة فى الجزر لسهولة الدفاع عنها ، وبعد موقعها عن اعتداء الأهالى الساكنين فى البر الأفريقى ، فقد كان عليهم إذا أرادوا الهجوم، أن يخوضوا الماء الفاصل بين الساحل والجزيرة ، وإذ ذاك يستطيع العرب وهم من البحارة أن يردوهم على أعقابهم . وفضلا عن ذلك فقد عمد رجال حسن إلى تعميق المجاز ليجعلوا منه مانعاً يصعب عبوره .

وسرعان ما اكتسب حسن مودة الأهالى ومحبتهم ، فتزوج من ابنة موريرى ولما مات خلفه ابنه على الزعامة ، وأصبح سلطان الجزيرة ، ثم أقدم على مهاجمة جزيرة مافيا المجاورة وضمها لسلطانه دون أن يشتريها كما فعل والده فى كلوة ،فبدأ الأهالى يكرهون العرب . وفى عام ١٠٢٠ أصبح الأهالى أقوياء ، فتغلبوا على السلطان ، وأرغموه على الهرب إلى زنجبار . وبعد قليل جمع السلطان حوله بعض الجند ، وعاد بهم واحتلوا كلوة ثانية ؛ وازدهرت المدينة فى خلال القرن التالى ، واكتسبت ثروتها من تجارة العاج ، وسرعان ما أشرف الأهالى على تجارة الذهب فصاروا أغنياء ، وكانت منطقة روديسيا غنية بهذا المعدن النفيس ، الذى كانت تصدره عن طريق مدينة سفالة على بعد حوالى ألف ميل جنوبى كلوة . وكانت مقديشو بدورها تحصل على هذا الذهب من سفالة لتبيعه فى شبه الجزيرة العربية (١١٠٠ — ١١٣٠) . وقد رأى داود بن سليمان سلطان كلوة (١١٣٠ — ١١٧٠) أن رجاله أحق بهذا الذهب من مقديشو . ولذلك بعث سفنه إلى سفالة ليحصل منها على الذهب .

وبذلك قضى على تجارة الذهب فى مقديشو . وامتد نفوذ صاحب كاوة إلى سفالة وزنجبار . وصارت الزعامة السياسية والاقتصادية لكلوة .

وتفخر كلوة بعصرها الذهبي الذى امتد مابين القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، إذ كانت المدينة عروسة الشاطىء الأفريقى ، كما أصبحت دار السلام فيما بعد ولما كانت التجارة الزاهرة فى حاجة إلى سك النقود ، فقد لجأ سلطان كلوة إلى سك نقود خاصة ضربها من النحاس ومازالت تشاهد إلى اليوم فى المتاحف الخاصة بالنميات ، ولقد عثر فى كلوة وبافيا وزنجبار على حوالى ١٠٠٠٠ قطعة نحاسية منها ، ويتضح أن الحياة بكلوة كانت متحضرة ، بيد أن هذا كان مقصوراً على المنطقة الساحلية فقط ، ولم يتجاوزها العمران إلى الداخل .

ونجمل ما كتبه ابن بطوطة عن كلوة فيما يلى .

« أنها مدينة عظيمة ساحلية ، أكثر أهلها من الزنوج المستحكمو السواد ولهم شرطات فى وجوههم ، وقد ذكر لى بعض التجار أن مدينة سفالة على مسيرة نصف شهر من كلوة ، وأن بين سفالة ويوفى من بلاد الليميين مسيرة شهر ، ومن يوفى يأتى بالتبر إلى سفالة .

ومدينة كاوة من أحسن المدن وأتقنها عمارة ، وكلها بالخشب ، والأمطار بها كثيرة ، وهم أهل جهاد لأنهم فى بر واحد متصل مع كفار الزنوج ، والغالب عليهم الدين والصلاح ، وهم شافعية المذهب .

وكان سلطان كلوا فى عهد دخولى إليها أبو المظفر حسن بن سليمان (١) وكان كثير الغزو إلى أرض الزنوج ، يغير عليهم ويأخذ الغنائم فيخرج

---

(١) تولى السلطان حسن الملك (١٣١٠ - ١٣٣٣) أى حوالى ٢٤ سنة ، وبعد وفاته تولى شقيقه داود الملك ، ويعتقد أن مدة حكمه كانت أيضاً ٢٤ سنة .

خمسها ، ويصرفه فى مصارفه المعينة فى كتاب الله تعالى ، ويجعل نصيب ذوى القربى فى خزانة على حدة ، فإذا جاء الشرفاء دفعه إليهم ، وكان الشرفاء يقصدونه من العراق والحجاز وسواها ، ورأيت عنده من شرفاء الحجاز جماعة ، وهذا السلطان له تواضع شديد ، ويجلس مع الفقراء ويأكل معهم ، ويعظم أهل الدين والشرف . حضرته يوم جمعة ، وقد خرج من الصلاة قاصداً إلى داره ، فتعرض له أحد الفقراء اليمنيين فقال له : ياأبا المواهب ! فقال : لبيك يافقير ، ماحاجتك ؟ قال : أعطنى هذه الثياب التى عليك . فقال له : نعم أعطيكها ، فقال : الساعة . فرجع إلى المسجد ودخل بيت الخطيب ، فلبس ثياباً سواها ، وخلع تلك الثياب ، وقال للفقير : ادخل فخذها . فدخل الفقير وأخذها وربطها فى منديل وجعلها فوق رأسه وانصرف فعظم شكر الناس للسلطان على ماظهر من تواضعه وكرمه . وأخذ ابنه ولى عهده تلك الكسوة من الفقير وعوضه عنها بعشرة من العبيد . وبلغ السلطان ما كان من شكر له على ذلك ، فأمر للفقير أيضاً بعشرة رءوس من الرقيق ، وحملين من العاج . ومعظم عطاياهم العاج ، وقلما يعطون الذهب.

ولما توفى هذا السلطان الفاضل الكريم ، رحمة الله عليه ، ولى أخوه داود بن سليمان ، فكان على الضد من ذلك ، أتاه سائل يقول له : « مات الذى كان يعطى ولم يترك من بعده مايعطى » ؟ ويقيم الوفود عنده الشهور الكثيرة ، وحينئذ يعطيهم القليل ، حتى انقطع الوافدون عن بابه .

أفول نجم كلوة :

لقد قضت كلوة على مقديشو ، بيد أن ازدهارها لم يتجاوز منتصف القرن الرابع عشر ، فبينما أخذ نجمها فى الأفول ، بدأت باتا فى شمالها ، تقوى وتثرى على حساب تجارة الذهب ، فضعفت كلوة ، وسرعان ماانتهز سلطان باتا الفرصة وعمل على زيادة مساحة أراضيه فى اتجاه كلوة ، ثم

تخلصت سفالة من سيادة كلوة واستقلت عنها ، فشبت بها الاضطرابات وسرعان ماهرع إليها العرب من مالندى وتولى بعضهم مناصب الوزراء والأمراء ، وصارت لهم الكلمة العليا عند السلطان وفى أعقاب ذلك تفرقت كلمة الأهالى وأفراد أسرة السلطان ، حول من يكون أحق الناس بتولى أعباء السلطنة ، وسرعان ماتدفقت الجموع ، كل جماعة منهم تناصر هذا أو ذاك ، وفى أوائل القرن الخامس عشر غير السلطان أساليب الإدارة الحكومية من أجل إقرار الأمن والطمأنينة ، ولكن كانت النتيجة أن استبد بالأمور الوزير والأمير المالنديان . ولما انتصف القرن ١٥ تفاقم ضعف السلطان ، فتعاقب على العرش الواحد بعد الآخر ، وقل المال ، فلم تجد الحكومة ماتنفقه على إصلاح المسجد الكبير بعد ماأصابه الخراب ، بيد أن الحياة سارت متراخية .

كان بيدرو الفارس كابرال أول ملاح برتغالى زار كلوة ، فقد رسا بأسطوله على ساحلها فى أثناء رحلته إلى الهند فى عام ١٥٠٠ . وكانت آنذاك على شيء من الثراء . وفى ١٥٠٢ خضعت لفاسكو دى جاما ، بيد أنه لما امتنع سلطانها عن دفع الجزية التى اتفق عليها ، احتل البرتغاليون كلوة ١٥٠٥ ، وشيدوا قلعة دمرت فيما بعد فى أثناء القتال ضد العرب ، فاضطروا إلى إخلائها مؤقتاً (١٥١٢) ثم أصبحت مركزاً هاماً لتجارة الرقيق . وفى أخريات القرن ١٧ وقعت تحت سيادة أئمة مسقط . ولما فصل هؤلاء حكم ممتلكاتهم الأسيوية عن الأفريقية (١٨٥٦) آلت إلى حكومة زنجبار ؛ ثم استولى عليها الألمان (١٨٨٥) . وفى ١٩١٩ أصبحت جزءاً من تنجانيقا تحت الوصاية (١) .

---

(١) يشاهد فى كيلوة (الجزيرة والمدينة القديمة) بعض الآثار الإسلامية التى مازالت تحتفظ بطابعها الأصلى (Kirkman)

لقد اعتمدت مدن الساحل الأفريقي على التجارة مع البلاد العربية ومع الهند التي كانت تستورد حاجتها من العاج ، وكان تجار الهنود يقدمون إلى تلك المدن في سفنهم فيتسلمون عروضهم ، وربما كان هؤلاء التجار هم الذين شيدوا (Songe Mnara) لأن عمارتها شبيهة بمباني جنوب الهند ، وكان الهنود يحصلون أيضاً على الأخشاب النفيسة والذهب . ويبيعون القماش والزجاج والسكاكين والأسلحة ، والخرز ، وكان هذا يستعمل كالنقود ، وكان الأفريقيون يفضلون تسلم الأقمشة والخرز على النقود وكان الهنود يشترون الرقيق لاستخدامهم جنوداً في الجيش ، والمعروف أنه في عام ١٤٥٠ كان في شرق الهند حوالى ٤٠٠٠ جندي أفريقي ، سرعان ما أصبحت لهم السيادة فقتلوا أحد الملوك ونصبوا أفريقيا مكانه ، ثم تخلص الهنود منه .

كذلك تبودلت التجارة بين شبه الجزيرة العربية ومدن الساحل الأفريقية، وكانت تنقل منها إلى الصين في سفن كبيرة .

وإلى شمال كلوة ، كانت هناك مدينة زاهرة أخرى ، وهي قومبا (عند حدود كينيا اليوم) وقد أسسها أيضاً جماعة شيرازية حوالى عام ١٢٠٠ .

سفالة :

أقدم الموانىء على الشاطىء الأفريقي الشرقي ، قصدها العرب في عام ٩١٥ للاتجار بالذهب ، وقد استوطنها جماعة من المسلمين جاءوا إليها من فارس (شيراز) حوالى عام ١٠٢٠ ، ثم ازدهرت في أثناء القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، وكانت بمثابة مركز للدفاع الأمامي لسلطنة كلوا .

كانت سفالة وناحيتها أقصى ما وصل إليه العرب على الساحل الشرقي . تقع اليوم في الجزء الجنوبي من مستعمرة موزمبيق البرتغالية ذكرها المسعودي في كتابه « مروج الذهب » ، وكتب عنها البيروني ، وابن سعيد ، والقزويني، وابن الوردي وغيرهم .

وفى أوائل القرن السادس عشر ، أدرك البرتغاليون أهمية سفالة فى تجارة الذهب الذى يرد إليها من داخل البلاد ، فاستولوا عليها ، وشيدوا حولها سلسلة من الحصون (١٥٠٥) . وظلت سفالة فى قبضة البرتغاليين مركزاً تجارياً عدة سنوات ، بيد أن كميات الذهب لم تكن وفيرة بالقدر الذى كانوا يأملونه . وكانت فى أثناء القرن السادس عشر ، الثغر الوحيد فى شرق أفريقيا الذى يصدر الذهب ثم أخذ التجار يتجهون تدريجياً صوب الشمال إلى كولمانة شمال نهر زمبيزى .

وقد كان لسفالة القديمة شأن عظيم ، إذا نظرنا إلى أطلال الدور الرحبة التى تدل على رفاهية أهلها فى القرن السادس عشر . وقد هجرها أهلها فيما بعد ، وأعيد بناؤها (المدينة) على الأراضى المجاورة للمدينة القديمة ، ثم قامت سفالة الجديدة فى أوائل القرن العشرين ، وهى اليوم بلدة صغيرة لا يزيد عدد سكانها على بضعة آلاف[1].

آثار زنجبار وتمباتو وبمبا

مازالت معلوماتنا عن تلك الأماكن فى أثناء العصور الوسطى غير كافية، على أن هناك بعض الأطلال ترتد إلى العهد الشيرازى ، أوضحت لنا قيام عدة مدن فى الجزر الثلاث اشتملت على بعض المبانى المشيدة بالحجارة ، ومنها مساجد كبيرة . ففى قرية كيزيمكازى ، فى جنوب جزيرة زنجبار ، يقوم مسجد قديم ، لعله من أعجب المبانى فى شرق أفريقيا ، ونقرأ فوق محرابه نقشاً بالخط الكوفى نصه .

بأمر الشيخ السيد ابن عمران ، مفهوم[2] الحسن بن محمد أطال الله حياته

---

(١) راجع التأثيرات العربية فى شرق أفريقيا .

(٢) كلمة مفهوم سواحلية معناها ملك .

المدينة ، اللهم اقض على أعدائه . تم بناء هذا المسجد فى يوم الأحد من شهر ذى القعدة سنة خمسمائة من الهجرة (الموافق ١١٠٧م) .

تمباتو :

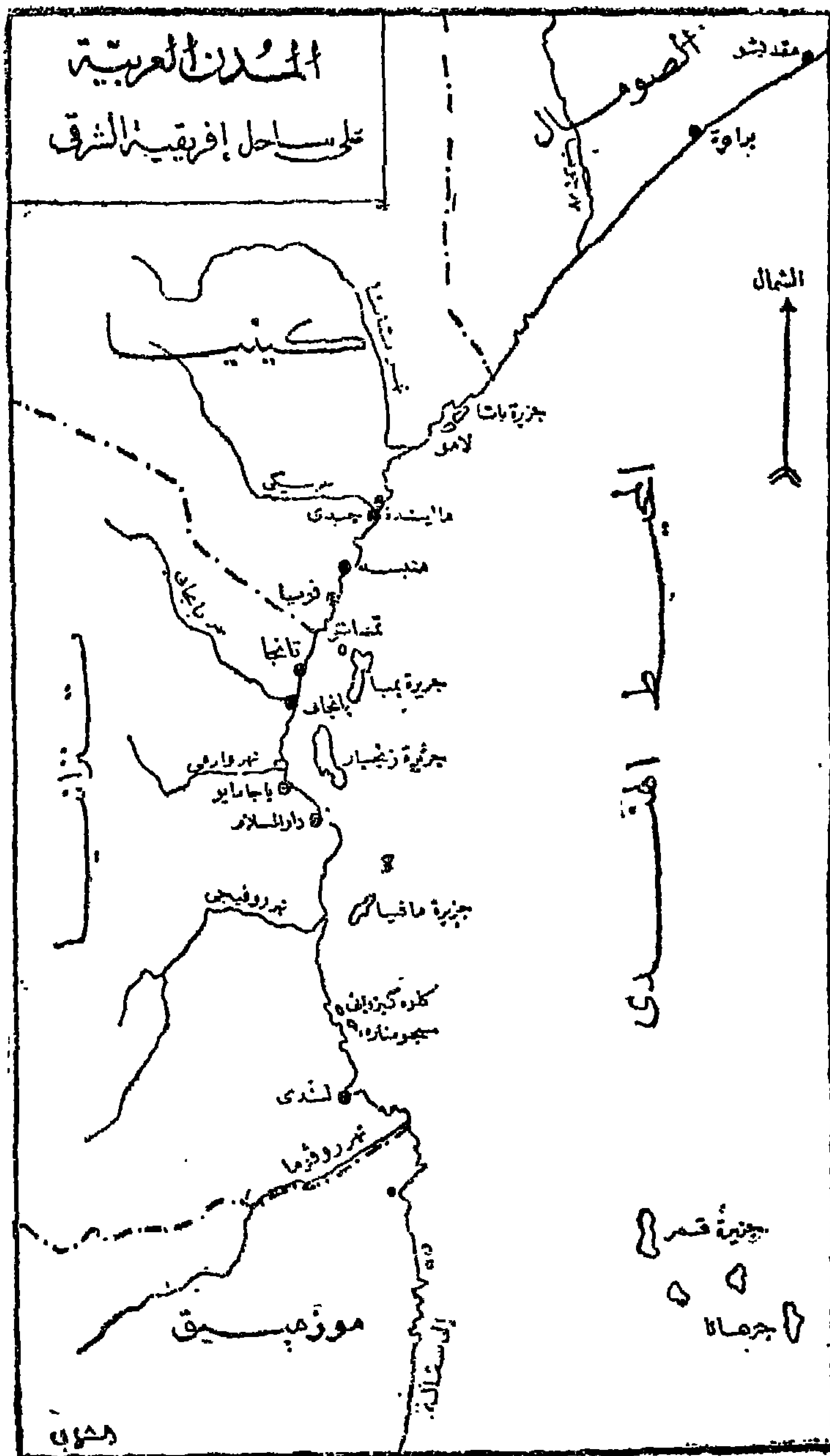
وهناك أطلال فى تمباتو ، وهى الجزيرة الصغيرة التى تقع شمال غربى جزيرة زنجبار ، وتشمل هذه الاطلال أكبر الخرائب الأثرية التى عثر عليها فى زنجبار وبمبا وتدل على أن المدينة التى شغلت مكانها فى الأصل ، كانت أكبر مدن الساحل الأفريقى الشرقى ، ولما جاء البرتغاليون إلى زنجبار عام ١٥٠٠ لم يرد ذكر تمباتو وبمبا ، وربما دل عدم ذكرها على أنها كانت قد فقدت أهميتها .

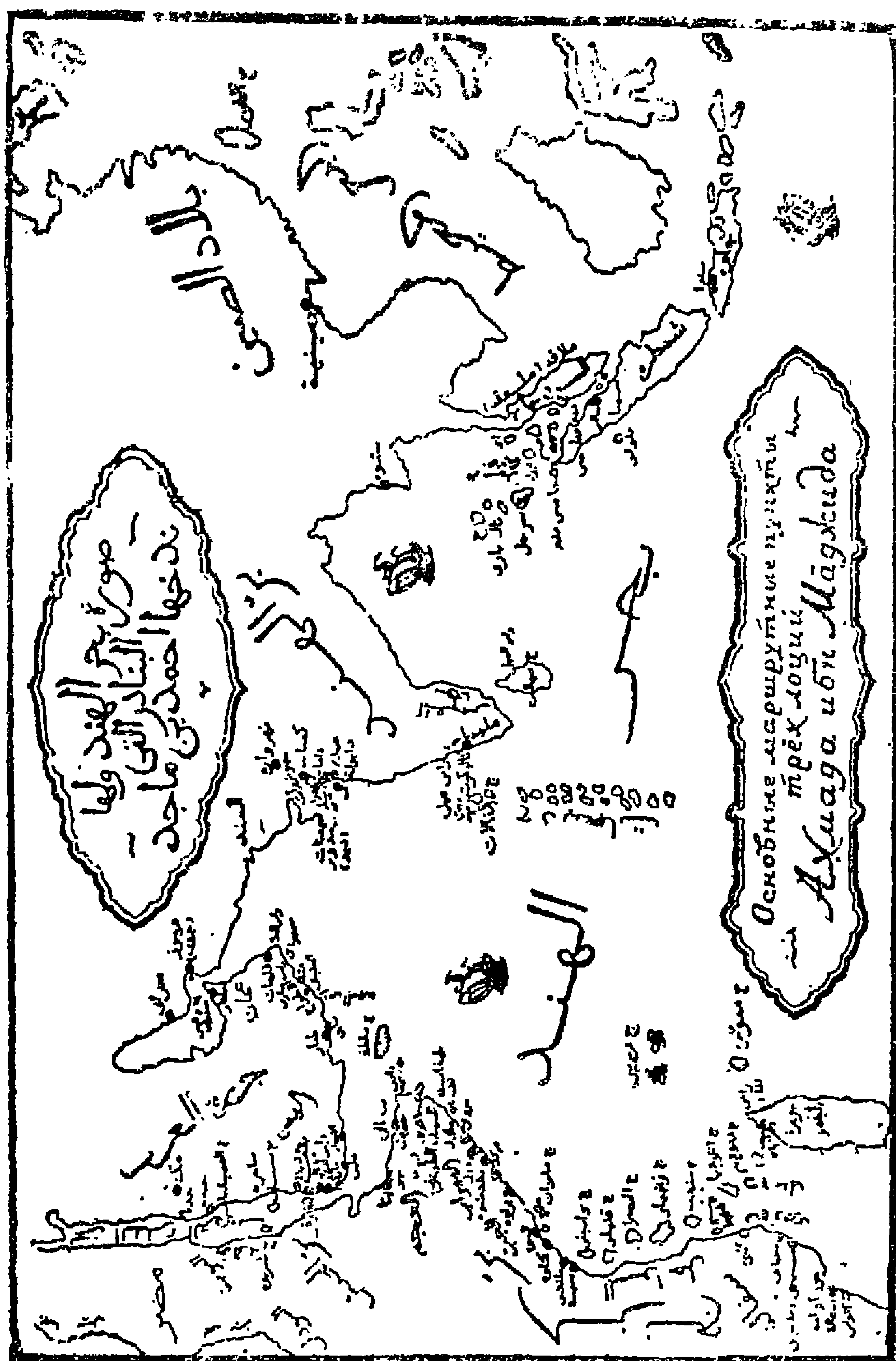
بمبا :

وليس لجزيرة بمبا تاريخ مدون فى العصور الوسيطة ، ويشاهد اليوم بعض الأطلال المبعثرة فى أنحاء الجزيرة ، ويتنافل الناس فيما بينهم ، أن تلك الجزيرة كانت مقسمة إلى خمسة أقسام ، وأنه كان فى كل قسم منها سبع مدن فإذا صح هذا القول كانت بمبا دون شك من أهم مناطق الساحل . وقد عرفت بمبا فى وقت ما باسم الكوثرة « الجزيرة الخضراء وأرضها أكثر خصوبة من زنجبار ، وتمتاز عنها بأنواع القرنفل الجيدة .

فومبا :

وكانت فومبا دويلة هامة فى العصور الوسطى ، اشتملت على الأراضى التى يرويها أومبا وتبعد حوالى خمسين ميلا جنوب منبسة ، والمعروف أن المخطوط الفريد الذى كان يضم تاريخ فومبا وعنوانه « أخبار فومباكو » تلف فى أثناء حوادث عام ١٨٩٥ ، ويظن أن هذه الدويلة قامت حول عام ١٢٠٤ وكانت أهم مدنها فومباكو التى تقع بين فانجاوجاسينى ، ويدل على أهميتها ، تلك الخرائب التى خلفتها فى وسط منطقة من الغابات الكثيفة .


المدن العربية
على ساحل إفريقية الشرقي
مقديشو
الصومال
براوة
الشمال
كينيا
جزيرة باتا
لامو
ماليندي
جيدي
منبسه
تانجا
جزيرة بمبا
جزيرة زنجبار
نهر واري
باجامايو
دار السلام
نهر روفيجي
جزيرة مافيا
لندى
نهر روفوما
موزمبيق
جزيرة قمر
المحيط الهندي


Основные маршрутные пути
трёх лоций
Ахмада ибн Маджида

المراجـــع العربية

فى تاريخ ساحل شرق أفريقيا

تقسم المراجع العربية لتاريخ شرق أفريقيا فى العصور الوسطى إلى قسمين:

١ — مراجع عربية عامة كتبها المؤرخون أو الرحالة العرب .

٢ — مراجع عربية كتبها مؤلفون أفريقيون محليون .

ويمكن القول بأن المراجع العربية العامة متصلة فهى تبدأ من القرن التاسع الميلادى وتنتهى فى القرن الخامس عشر . وسنتناولها فى ترتيب تاريخى .

١ — أشار بن خرواذبة فى كتابه « المسالك والممالك » فى عام ٨٨٦ إلى بلاد الزنج . فقد ذكر عدن وأشاد بأهميتها بين ثغور المحيط الهندى وبتجارتها . . بحاصلات الصين والهند والزنج والحبشة وفارس والبصرة وجدة والسويس[١] .

٢ — وفى أوائل القرن العاشر يقابلنا كتاب « البلدان » لابن النقبة الذى لم يصلنا منه سوى أجزاء قليلة لفقد معظمه ، وقد أشار ابن الفقيه إلى الرياح الموسمية التى تساعد الملاحين على الوصول إلى شاطىء الزنج فى خلال مقاومتهم للعواصف والأمواج العاتية ، كما أنه ذكر بعض عادات الزنج وتقاليدهم . كذلك أمدنا الجغرافى الفارسى أبو على بن رستة فى كتابه « الأعلاق النفيسه » الذى كتبه بعد عشر سنوات من ابن الفقيه أى حوالى ٩١٣ م .

---

(١) ذكر كراتشكوفسكى المستشرق الروسى فى كتابه « تاريخ الأدب الجغرافى » القسم الأول ص ١٤١) أن جميع مؤلفات ابن خرواذبة وأشهرها كتاب المسالك والممالك لا نعرفها إلا من أسمائها فقط ومن المقتطفات الموجودة لدى المؤلفين المتأخرين أو الإشارات إليها .

٣ — تبدأ المعلومات تتضح فيما كتبه أبوزيد السيرافى (٨٧٧ - ٩١٥م) ولذلك فإنه يعتبر أول من أمدنا بمعلومات متصلة عن ساحل أفريقيا الشرقى(١).

٤ — ويعتبر كتاب الأصطخرى الجغرافى (٩٥١) « المسالك والممالك » أول مؤلفات تقويم البلدان العربية التى احتوت على خرائط مرسومة ، وضحت على إحداها المدن والثغور التى تقع فى بلاد الزنج . وقد ذكر عن تلك البلاد أنها واسعة وتمتد شمالا إلى تخوم الحبشة وتقابل اليمن وفارس وكربان والهند « ويبدو أن الأصطخرى أفاد كثيراً بما كتبه أبوزيد البلخى فى كتابه « صور الأقاليم » .

٥ — ويمدنا الجغرافى العربى ابن حوقل (توفى ح٩٧٧) فى كتابه « المسالك والممالك » بشىء عن رحلته التى بدأها فى ح عام ٩٤٣م . ويعتبر كتابه صورة منقحة لما ألفه الأصطخرى ولذلك لا يقدم لنا جديداً سوى أنه صحح بعض ما ورد فى كتاب سلفه .

٦ — والمعروف أن المسعودى (توفى ٩٥٦) تردد على منطقة شرق أفريقيا فى الفترة من عام ٩١٦ إلى ٩٢٦ . وقد طوف المسعودى بأصقاع كثيرة فى العالم الإسلامى وشرق أفريقيا ومدغشقر . وأشهر ما أمدنا به المسعودى كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر وهو يعتبر خير ما كتبه رحالة العصور الوسطى على الأقل إلى القرن ١٢ ، ويمكن القول أيضاً أن المسعودى أضاء الطريق أمام الباحثين فى جغرافية شرق أفريقيا وتاريخها .

تحدث المسعودى عن بحر الزنج ووصفه بالخطورة فقال : « ركبت عدة من البحار كبحر الصين والروم والقلزم واليمن ، وأصابنى فيها من الأهوال مالا أحصيه كثرة فلم أجد أهول من بحر الزنج . ثم قال عن الزنج : « إنهم كانوا مجموعات من الشعوب وليسوا شعباً واحداً يعيشون فى إقليم يمتد مسافة

(١) أبو زيد السيرافى وسليمان التاجر فى Ferrand, Gabriel : Relation de Voyage tome. 1. f. 35...

٢٥٠٠ ميل على الساحل صوب الجنوب فى المنطقة الممتدة فيما يعرف حالياً بالقرن الأفريقى شمالا وإلى موزمبيق جنوباً . ويواصل المسعودى حديثه قائلا وسكنت الزنج فى ذلك الصقع واتصلت مساكنهم إلى سفالة وهى أقاصى بلاد الزنج وإليها تقصد مراكب العمانيين والسيرافيين وهى غاية مقاصدهم فى أسافل بحر الزنج وأقاصى بحر الزنج وبلاد سفالة وأقاصى بلاد واق الواق وهى أرض كثيرة الذهب ، كثيرة العجائب خصبة حارة واتخذها الزنج دار مملكة وملكوا عليها ملكا سموه دقليمى وهى تسمية لسائر الأمصار على ماقدمنا آنفاً والفيلة بأرض الزنج فى نهاية الكثرة وحشية كلها ، والزنج لاتستعمل شيئاً منها فى حرب ولا غيرها ، بل تقتلها ، والزنج يقاتلون على البقر بدلا من الإبل والخيل وهى بقر تجرى كالخيل بسروج ولجم .

٧ — ويمدنا البيرونى (ح ١٠٣٠ م) فى كتابه « الآثار الباقية عن القرون الخالية » بالقليل عن تلك المنطقة « فقال إن ساحل القارة الشرقى والجزر الجنوبية منها تسكنها قبائل متفرقة من الزنج . وأشار البيرونى إلى شئون التجارة التى كانت قائمة بين سفالة والهند والصين ولكنه لم يعطنا معلومات مفصلة عن دور العرب فى تلك التجارة .

٨ — وفيما بين عام ١١٠٠ و ١١٦٦ م يقابلنا الجغرافى الشريف محمد ابن عبدالله الإدريسى الذى ألف لروجر أحد ملوك صقلية النورمان كتابه المشهور « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » . ويتضح مما كتبه أنه أخذ مادته من المؤلفات الجغرافية السابقة عليه وكذلك من التقارير التى يتلقاها من المسافرين وأهمية كتاب الإدريسى أنه أول المراجع التى تتحدث عن مدن الساحل الأفريقى وجزره ، من ذلك كلوة التى كانت لها تجارة هامة مع سفالة ومالندة على الشاطىء ، ومع ذلك فإن الإدريسى لم يقدم لنا معلومات وافية عن تلك المدن ، وإذا عرفنا أن الإدريسى انتهى من كتابه « نزهة المشتاق » فى عام ١١٥٤ فإنه من المهم أن نعرف أيضاً أن فى هذه الفترة كانت تجارة

العرب متسعة فى المنطقة اتساعاً كبيراً وذكر أيضاً تجارة الحديد وقال أن الزنج يمتلكون مناجم الحديد ويستخرجونه منها ويتاجرون فى الحديد المطاوع منه ويربحون من تجارتهم هذه أرباحاً كثيرة . وتحدث الإدريسى عن منبسة التى كان يشتغل أهلها فى تجارة الحديد أيضاً مما يدل على الصلات التى كانت قائمة بين شعوب الداخل ومن يفد على الساحل من التجار العرب وغيرهم خاصة من الهنود حيث كانوا يصنعون فى بلادهم السيوف الجيدة .

ومما يلفت النظر أن الإدريسى لم يذكر شيئاً عن مدينة مقديشيو ، فى حين أنه ذكر بعض المدن التى كانت تابعة لها مثل براوة ومركا ومع ذلك فإن الإدريسى يكاد يكون هو الجغرافى الوحيد الذى ذكر أسماء مدن وجزر شرق أفريقيا فى حين لم يذكرها سواه إلا باعتبار أنها مجموعة جزر (١) .

٩ — وفى وأوائل القرن الثالث عشر صنف ياقوت الحموى «معجم البلدان» ويعتبر معجمه من أهم ماصنفه العرب فى هذا الميدان ويقابلنا فيه بعض أسماء مدن شرق أفريقيا كمقديشو وقال عنها إنها مدينة فى أول بلاد الزنج فى جنوب اليمن فى بر البربر فى وسط بلادهم ، وهؤلاء البربر غير البربر الذين هم بالمغرب هؤلاء سود يشبهون الزنوج جنس متوسط بين الحبشى والزنوج ، وإذا قصدهم التاجر لابد له من أن ينزل على واحد منهم ويستجير به ، فيقوم بأمره ، ومنها يجلب الصندل والآبنوس والعنبر والعاج وقد يكون عندهم غير ذلك مجلوباً إليهم . ولم يزد ياقوت معلومات جديدة عن المدن الأخرى عما جاء فى كتاب الإدريسى (٢) .

---

(١) Freeman Gronvillo . The Medieval History of the Coast. of Tanganyka. f. 41,

(٢) عبد الرحمن زكى : بعض المدن العربية على ساحل افريقيا الشرقى فى العصور الوسطى محاضرة ألقيت فى دار الجمعية الجغرافية المصرية فى يوم ١٥ أبريل سنة ١٩٦٤

١٠ — ثم يقابلنا القزوينى الجغرافى (١٢٠٣ — ١٢٨٣) فى مصنفه «كتاب آثار البلاد» وفيه ذكر أن سفالة هى آخر مدينة معروفة فى أرض الزنج وفيها مناجم الذهب ويمارس أهلها التجارة الخفية

١١ — ويقدم لنا ابن سعيد الرحالة الجغرافى (١٢١٤ — ١٢٨٦) المعاصر للقزوينى كتابه الذى وضعه على نهج الإدريسى فى كتابه نزهة المشتاق وقدم لنا بعض المعلومات عن مدن الساحل الإفريقى كالندة ومنبسه ومقديشو بترتيبها من الشمال إلى الجنوب .

١٢ — ويقابلنا أبو الفدا إسماعيل بن على عماد الدين (١٢٧٣ — ١٣٣١) فى كتابه «تقويم البلدان» وقد نقل كثيراً عن ابن سعيد فيما يتصل بشرق أفريقيا .

١٣ — وفى خلال النصف الأول من القرن الرابع عشر ينهض الرحالة المغربى ابن بطوطة برحلته إلى شرق أفريقيا (ح ١٣٣١ م) مبتدئاً من ثغر زيلع قاصداً مقديشو فمنبسة ، فكلوة وأمدنا بمعلومات قيمة عن مجتمع كل مدينة . فذكر عن مقديشو أن المسافة بينها وبين زيلع خمسة عشر يوما وهى مدينة متناهية فى الكبر ، أفاض فى الحديث عن نشاطها الاقتصادى وأكد اتصالها بمصر تجارياً وذكر أن سلطانها يعرف العربية وإن كان يتكلم لغة مقديشو ، وذكر رحالتنا التقاليد المتبعة فى جلوس السلطان وما يحيط به من وزراء وأمراء ووجوه أجناد كل حسب مرتبه ، وأن الأطبال والأنفال والأبواق كانت تضرب عند جلوس السلطان ، وهكذا يمضى ابن بطوطة فى وصف الحياة الاجتماعية والاقتصادية ومدى ماوصلت إليه هذه السلطنة من اتساع فى النفوذ وعز فى التجارة .

وذكر ابن بطوطة عن منبسه أنها جزيرة كبيرة بينها وبين أرض السواحل مسيرة يومين فى البحر ، ولا بر لها . وأشجار الموز والليمون والأترج ولهم

فاكهة يسمونها الجون وهى شبه الزيتون ولها نوى كنواه ، إلا أنها شديدة الحلاوة ، ولا زرع عند أهل هذه الجزيرة وإنما يجلب إليهم من السواحل وأكثر طعامهم الموز والسمك ، وهم شافعية المذهب ، أهل دين وعفاف وإصلاح ، ومساجدهم من الخشب محكمه الاتقان » .

وكتب رحالتنا المغربى عن كلوة يقول : « إنها مدينة عظيمة ساحلية أكثر أهلها الزنوج المستحكمو السواد ، ولهم شرطات فى وجوههم ، وقد ذكر لى بعض التجار أن مدينة سفالة على مسيرة نصف شهر من كلوا ، وأن بين سفالة ويوفى من بلاد الليمبين « مسيرة شهر ، ومن يوفى يؤتى بالتبر إلى سفالة ، ومدينة كلوا من أحسن المدن وأتقنها عمارة ، وكلها بالخشب ، والأمطار بها كثيرة ، وهم أهل جهاد لأنهم فى بر واحد متصل مع كفار الزنوج، والغالب عليهم الدين والصلاح ، وهم شافعية المذهب ، وكان سلطان كلوا فى أيام دخول ابن بطوطة إلى كلوا أبو المظفر حسن بن سليمان الذى تولى الحكم (١٣١٠ — ١٣٣٣) أى حوالى ٢٤ سنة ، وبعد وفاته تولى داود الملك وكان على عكس أخيه فى كل شىء[١] .

١٤ — وفى أعقاب ابن بطوطة يقابلنا ابن الوردى (ح ١٣٤٠) فى كتابه « فريدة العجائب وفريدة الغرائب[٢] » ، فيشير إلى ذهب سفالة التى تجاوز أرض الزنج ويقول عنها : إنها أرض واسعة بها جبال فيها معادن (مناجم) الحديد ولكن معادن سفالة أطيب وأصح وأرطب والهنود يصنعونه فيصير فولاذا لمعا . ومن عجائب أرض سفالة أن بها التبر الكثير ظاهرا وكل تبرة مثقالان وثلاثة وأكثر ، ومع ذلك لا يتحلون إلا بالنحاس ويفضلونه على الذهب ، وأرض سفاله متصلة بأرض واق الواق .

---

(١) ابن بطوطه : تحفة النظار فى عجائب الأمصار ، مجلدان . طبعة القاهرة ١٩٣٣

(٢) طبعة القاهرة عام ١٣٢٨ هـ/١٩١٠ ؛ ص ٢١

١٥ — ويقابلنا فى صبح الأعشى للقلقشندى بعض الإشارات عن المناطق الإسلامية فى شرق أفريقيا . كما أن هناك فى المنهل الصافى لابن تغرى بردى إشارات قليلة .

وهكذا نرى أنه منذ القرن الخامس عشر تصبح المراجع العربية نادرة جدا وتحل مكانها المؤلفات البرتغالية وأهمها الوثائق التاريخية المعاصرة لغزوهم بلاد الساحل الأفريقى ، ويمتاز هذا العصر بالكشوف الجغرافية التى قام بها الملاحون البرتغاليون إبان نهضتهم .

٢ — ما كتبه المؤرخون المحليون

١ — السلوة فى تاريخ كلوة :

يعاصر الغزو البرتغالى لشرق أفريقيا مخطوطة عربية قديمة كتبت فى ذلك الوقت ولكنها فقدت ، ولم تصل إلينا إلا مقتطفات منها كتبت فى عام ١٨٧٧ وقدمها السيد برغش بن سعيد حاكم زنجبار إلى السيرجون كيرك القنصل البريطانى فى زنجبار ، وتشتمل هذه المخطوطة على ١٧ ورقة فقط مكتوبة بخط منسق وإن كان بها كثير من الأخطاء اللغوية . أهدى كيرك هذه المخطوطة إلى مكتبة المتحف البريطانى (رقم ٢٦٦٦) وتشتمل على أحداث تبدأ من وصول الفرس الشيرازيين إلى ساحل شرق أفريقيا فى القرن العاشر إلى الغزو البرتغالى لكلوة فى القرن ١٦ . وقد نسخت هذه المخطوطة نقلا عن أوراق الشيخ محى الدين الزنجبارى قاضى زنجبار عام ١٨٦٢ وتحمل المخطوطة اسم « السلوة فى أخبار كلوة » فهى إذن جزء من سلوة الكلوية[1]. وقد نشرها آرثر سترونج فى مجلة الجمعية الآسيوية الملكية

---

(١) سنتكلم عنها بعد قليل .

عام ١٨٩٥[1] ، ومما يدهشنا أنه لم يقف أحد على اسم مؤلف كتاب سنة الكلاوية ولكن يوجد فى الفصل الرابع من السلوة مايشير إلى أن المؤلف ولد فى ٢ شوال سنة ٩٠٤ هـ أى (١٣ مايو سنة ١٤٩٩)[2] .

ولا شك أن السلوة فى أخبار كلوة مرجع عربى محلى هام كتبه الشيخ عبدالله الصوافى قاضى زنجبار فى الفترة التى سبقت مقدم البرتغاليين إلى ساحل شرق أفريقيا (١٤٩٨) . ويعرض الكتاب لتاريخ سلطنة كلوة من عهد على ابن الحسن الشيرازى فى القرن العاشر . وهى التى كما ذكرنا أهداها السيد برقش بن سعيد سلطان زنجبار إلى السير جون كيرك فى عام ١٨٧٢ . وقد تناول مؤلف السلوة هجرة على بن حسن الشيرازى إلى شرق أفريقيا ونزوله عند جزيرة كلوة وكيف استطاع خلفاؤه من تأسيس دولة الزنج أو دويلاتها المتناثرة على الساحل الشرقى فيما بين ٩٧٥ م إلى عام ١٤٩٨ حينما وصل البرتغاليون إلى ساحل شرق أفريقيا ، وتعتبر هذه الدولة أول دولة إسلامية قامت فى شرق أفريقيا كما كان لها الفضل فى قيام عدة مدن إسلامية على الساحل .

وقد استفاد المؤرخ البرتغالى خواس دى باروس فى هذا المؤلف العربى حينما نشر تاريخا لكلوة[3] ومع ذلك فإنه لم يذكر لنا المصدر الذى رجع إليه فى تأليف كتابه .

قلنا أن المراجع العربية المعاصرة لفترة الاحتلال البرتغالى لساحل

---

(١) Strong, Arthur : History of Kilwa. J. of the Royal Asiatic Society: April 1895.

بترجمته الانجليزية وبأصله العربى .

(٢) د. جمال زكريا قاسم : المصادر العربية لتاريخ شرق أفريقيا . مجلة الجمعية التاريخية المصرية مجلد ١٤ ، ١٩٦٨ ، ص ١٦٩ — ٢٣٠ .

(٣) Joas de Barros : Chroneca dos Reys de siloa.

شرق افريقيا معدومة ، وربما يعود ذلك إلى انشغال المسلمين بالحروب المتواصلة بينهم و بين البرتغاليين وماتبع السيطرة البرتغالية من تدهور وانهيار اقتصادى ثم عزلة وجمود فكرى . كل ذلك لم يساعد المؤرخين العرب على الكتابة عن تاريخ هذه الفترة .

ومع ذلك فقد ذكر أوين Owen فى كتاب له عن رحلته [1] فى شرق أفريقيا أنه عثر على مخطوطة عربية مدونة فى ٢٨ شعبان ١٢٩٣ (١٨٢٢) عند أحد أهالى منبسة وقد عرفت هذه المخطوطة باسم تاريخ آل المزروعى فى منبسة ، وقد عنى جيان Guillain بنقلها إلينا [2] . وتتناول هذه المخطوطة تاريخ الفترة من وصول البرتغاليين إلى ساحل شرق أفريقيا إلى العام الذى كتبت فيه . وهى على هذا الأساس يمكن أن تمدنا بمادة مكملة لتاريخ كلوة . خاصة وأن كلوة كانت السلطنة المسيطرة على مدن الساحل ، والمزروعيون فرع من قبيلة بنى ياسر التى ماتزال تسكن ساحل عمان على الخليج العربى وقد حكمت هذه الأسرة فى الشرق الافريقى مايقرب من مائة عام فى منبسة وامتد سلطانها فى أوائل القرن ١٩ على طول ساحل كينيا من لامو إلى شمال بنجانى جنوبا ثم قضى العمانيون عليها نهائيا فى عام ١٨٣٩ .

وفى أخريات القرن السابع عشر ، أتيح لعرب عمان أن يقاوموا البرتغاليين ويتغلبوا عليهم فى بلادهم عند هرمز ومسقط وثغور الخليج العربى فلما طردوهم من الأرض العربية الآسيوية عبروا بحر العرب والمحيط الهندى على ظهور سفنهم وأخذوا فى تحرير المدن العربية على الساحل الافريقى ،

---

(١) O, Wen W,F : Narnatvie of Voyages to explore the Shores of Africa Arabia and Ma lagascar. 2 vols. London 1833.

(٢) Gulllain : Documonts sur I, histo ire, Ggographie et Commerce de I, Afri que Orientale. tome I. H. 614-622.

ترجم محمد مسعود هذا الكتاب إلى العربية عام ١٩٢٧ بعنوان : وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن شرق افريقيا .

مدينة بعد أخرى ، ومن ثم نجحوا فى اقصاء البرتغاليين من معظم منطقة الشرق الافريقى ، وعلى أثر ذلك قامت صلات وثيقة بين عمان وشرق أفريقيا وبخاصة على أيام السيد سعيد بن سلطان ، وأخيراً انتقلت عاصمة دولة هؤلاء العرب العمانيين من مسقط إلى زنجبار فى عام ١٨٣٢ .

١٧ — ومن أهم مراجع هذه الحقبة العمانية كتاب « الفتح المبين » فى سيرة السادة البوسعيديين « ألفه حميد الدين بن محمد رزيق بن بخيت ، وقد ذكر حميد بن رزيق أنه انتهى من وضع كتابه فى ٢٤ ربيع الثانى سنة ١٢٧٤ هـ (١٢ ديسمبر ١٨٥٧) وقسمه إلى ثلاثة أقسام أو ثلاثة كتب أسماها : القسم الأول وفيه يعرض لتاريخ عمان فى سنة ٤١ هـ أو ٦٦١ م إلى اعتلاء الإمام أحمد بن سعيد الحكم فى عام ١٧٤١ ، والكتاب الثانى من أحمد بن سعيد إلى حفيده سعيد بن الامام ، والكتاب الثالث يعرض فيه لحياة وأعمال السيد سعيد بن سلطان وينتهى به إلى وفاته فى عام ١٨٥٦ وقد أسمى القسم الأخير بالبدر الكامل[١] .

وهناك مرجع انجليزى جيد ألفه رودلف رويت وهو ابن سيدة عربية من أفراد البيت المالك فى زنجبار كانت تزوجت من أحد الضباط الالمان ويدعى رويت Ruete وانتقلت معه إلى بلاده وألفت كتاباً عن أسرتها . والكتاب الذى ألفه رودلف تناول فيه ترجمة للسيد سعيد بن سلطان[٢] وقد عنى فيه بابراز شخصية هذا العاهل فى المجال الدولى وعلاقاته الخارجية وأهم مميزات شخصيته . كما أن لهذا المؤلف قائمة تاريخية ببلبوجرافية

---

(١) نشر الدكتور بادجراجد الخبراء فى تاريخ عمان هذا الكتاب فى عام ١٨٧١ بعنوان :

History of the Imams and Seyyids of Oman by Salil Bin Razik. From A.D 661 till 1856.

(٢) Ruete, Rudlf : Said bin Sultan, Ruler of Oman and East Africa (1791-1856). London 1929.

بأسرة البوسعيد من مؤسسها أحمد بن سعيد إلى وفاة السيد سعيد[1] .

وهناك كتاب حديث للدكتور جمال زكى قاسم تناول فيه دولة بوسعيد فى عمان وشرق أفريقيا (١٧٤١ — ١٨٦١) صدر فى القاهرة عام ١٩٦٨ .

---

(١) Dates and References of the History of se Abu Said Dynasty from the timc of its founder Ahmad bin Sald till the death of Said Bin Soltan. London 1931.

استدراكات

وقعت سهوا بعض الأخطاء فى أثناء مراجعة قراءة التجارب ونوضح أهمها فى الثبت الآتى :

صفحة	خطأ	صواب	صفحة	خطأ	صواب
٨	بعد	بعده	٦٢	رقم الصفحة	٦١
٨	سوقة	سرقة	٦١	القادة	القائد
٨	فاردهرت	فازدهرت	٦٢	ققضى	فقضى
٨	العاشر	التاسع	٦٣	عنادهم	عتادهم
١٢	فارس	فاس	٦٤	لكانو	لكانم
١٢	أنجة	طنجة	٦٩	ابن مالك	مالك
١٣	جدالة	قبيلة جدالة	٧٩	صحتها	٨٠
١٩	يالجواهر	بالجواهر	٨٠	صحتها	٧٩
٢٠	حباته	حياته	٨٠	بربو	برنو
٢٠	قسيحة	فسيحة	٨٠	يقتدى	مقتديا
٢١	كرمبى	كومبى	٨٠	بنيجويا	بنيجيريا
٢١	ابن خالدون	ابن خلدون	٨٤	السيسية	السياسية
٢٥	(٢)	(١)	٨٤	الكمرن	الكمرون
٢٨	سونجروا	سومانجرو	٨٦	الهوسات	الهوسا
٣٧	ورجاورجلة	وورجلة	٨٧	ونبين	ويتبين
٤٩	مقديمة	القديمة	٨٧	فاعتنفها	فاعتنقها
٤٩	السب	الشعب	٩٠	كان	كانو
٥٣	جنى جاع	جنى وجاغ	٩٠	التجاربة	التجارية
٥٦	ثنيبى	تنديبى	٩٢	خطوة	حظوة
٦١	رقم الصفحة	٦٢	٩٣	Dwat	Twat

صفحة	خطأ	صواب
٩٣	الذينية	الدينية
٩٤	باجوى	باجرى
٩٤	تلميذ	تلميذه
٩٤	كارآءكو	كارآموكو
٩٤	Align	Alifa
٩٤	النشاط	نشاط
٩٨	عنوتها	عنوانها
١٠١	باجرس	باجرى
١٠٢	يعمز	يعمر
١٠٣	بولا	يولا
١٠٤	ديجنواى	دينجوارای
١٠٤	نبورو	نيورو
١٠٧	نبورو	نيورو
١٠٧	موكوتو	سوكوتو
١٠٨	الصمت	الصمد
١١٢	التيجانية	التجانية
١١٣	التيجانية	التجانية
١١٥	التيجانية	التجانية
١٢١	الإسلام	المسلمين
١٤٠	الثارية	التارية
١٤١	أووربا	أوروبا
١٤١	الأتدلسى	الأندلسى
١٥٠	طيبعتها	طبيعتها .
١٥١	عرفية	غرقية
١٥٦	ألمقيت	ألقيت
١٥٧	المؤوخين	المؤرخين
١٦٠	عببد	عبيد
١٦٠	ناريخ	تاريخ
١٦٠	المسمودى	المسعودى
١٦٧	النبت	الثبت
١٧٨	ترحمة	ترجمه
١٩٥	ترديدالموحة	ترديدالموجة
٢٠٤	البوباريين	النوباويين
٢٠٤	بجج	نجح
٢٠٨	التيجانية	التجانية
٢٠٩	هنا	هناك
٢٢٢	١٣٥٠ هـ	٩٣٥ هـ
٢٢٥	عوامل انتشارهم	عوامل انتشار
٢٢٩	الدفاغ	الدفاع
٢٣٩	٣٣٩	٢٣٩
٢٣٩	الشالعية	الشافعية
٢٤٠	مراكرها	مراكزها
٢٥٦	وبل	بل
٢٥٦	اقتيم	إقليم
٢٥٦	زمبيز	زمبيزى
٢٧٠	السادس	السابع
٢٧٠	أفريقيا	أفريقياالقاوين
٢٧١	هذه(فى الهامش)	هذا
٢٧٢	تعترهم	تعوزهم

فهرس

الموضوع | صفحة